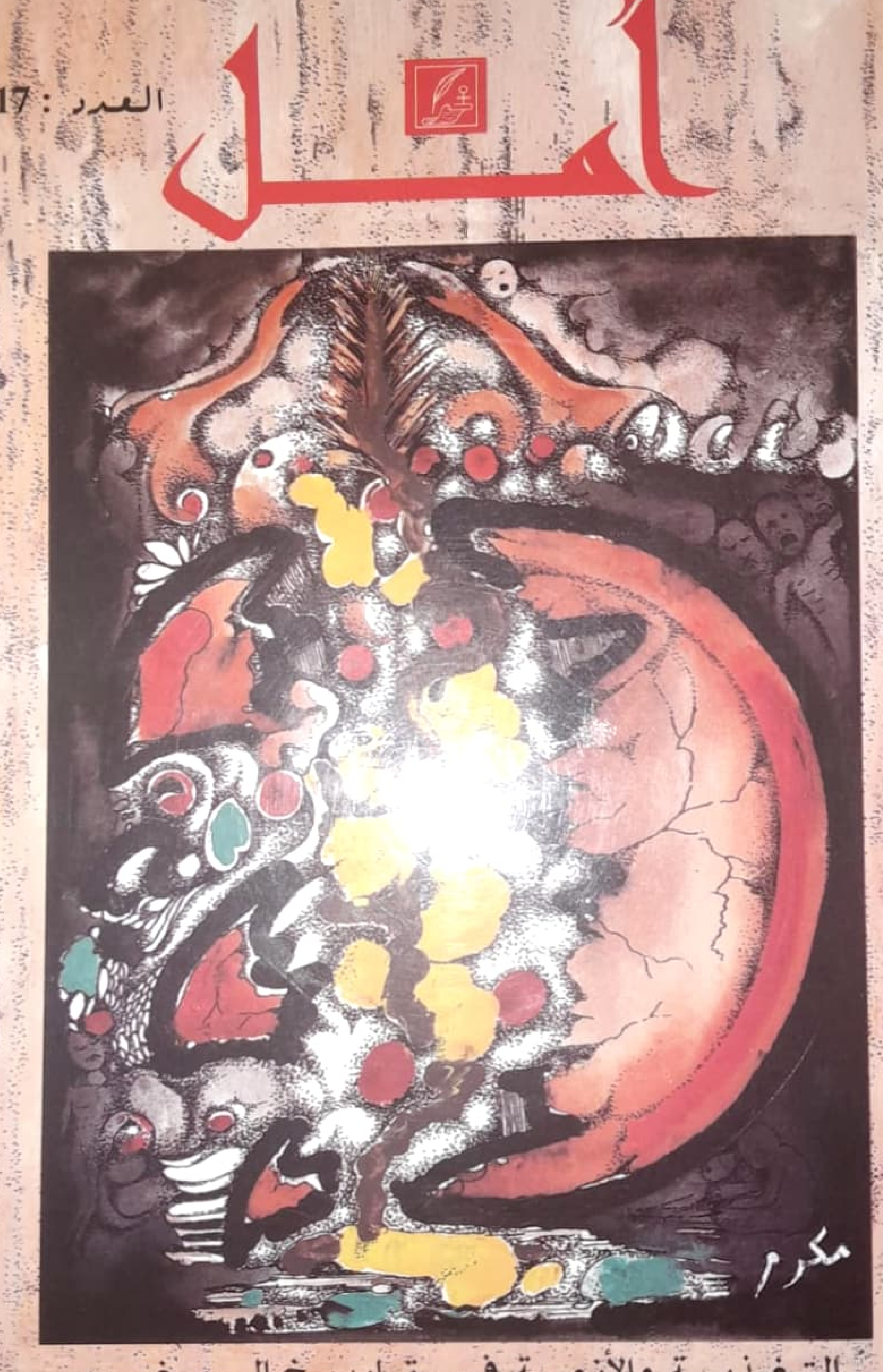
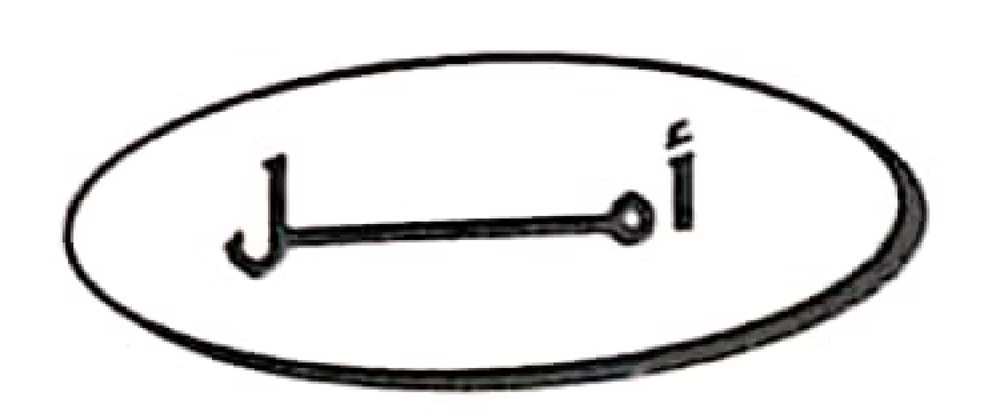
أمل

العدد : 17



التغذية والأزمة في تاريخ المغرب



التاريخ - الثقافة - المجتمع

العدد السابع عشر السنة السادسة 1999

تصدر ثلاث مرات في السنة

المدير المسؤول:

المختار عنقا الإدريسي

رئيس التحرير:

محمد معروف الدفالي

هيئة التحرير:

بوشعيب آهلال

محمد الفلاح العلوي

عبد العزيز باقية

السحب

مطبعة النجاح الجديدة

هاتف المجلة: 50.61.46

التوزيع: سابريس

- الأفكار الواردة في المواضيع تعبر عن آراء أصحابها
- المقالات المرسلة إلى المجلة لا ترد إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر

العنوان: صندوق البريد 14910 - البريد المركزي - الدار البيضاء

ملف الصحافة . 8 - ص. 85 - ردمد : 7967 - 1113 **الإيداع القانوني** : 48 - 92

محتويات العدد

التغذية والأزمة بالمغرب في العصر المريني

ذ . مصطفى نشاط *

ملاحظات أولية :

قبل أن نبسط المعطيات المرتبطة بالشقين المكونين لعنوان المداخلة، ومن خلالهما للمحور الذي اختارته مجموعة البحث في الديموغرافيا التاريخية لهذا اليوم الدراسي، يجدر بنا أن نقف وقفة قد تكون ضرورية لمراقبة التفاعل الذي حصل بين التغذية والأزمة في العصر المريني . فاذا كان الحديث عن مفهوم التغذية عبر العصور قد لايطرح أية مفارقة تاريخية ، فإن استحضار الأزمة باعتبارها مفهوما حديثا يستدعي إبداء بعض الملاحظات الأولية :

1) - سبق لمجموعة من الباحثين - وفي مقدمتهم الأستاذ الراحل محمد زنيبر رحمه الله - في إطار الملتقى الدراسي الذي عقدته الجمعية المغربية للبحث التاريخي حول الأسطغرافيا والأزمة (1) أن أثاروا ملاحظات حول مدى إجرائية استعمال مفهوم الأزمة في المغرب الوسيط.ولا يسعنا إلا أن نؤكد كذلك على عدم استعمال المصادر المرينية لهذه الكلمة ، بل تورد كلمات تحمل شحنات دالة على حدوث اختلال في نظام حياة الناس بفعل نقص المواد الغذائية وكثرة الطلب عليها ، ومن هذه الكلمات الشدة أو البلاء (2) .

2) - إذا كان الحديث عن الأزمة يحيل إلى حالة غير عادية ، فإن المتتبع للأسطغرافية المغربية الوسيطية يلاحظ بها شبه غياب لذكر الحالات العادية ، بل وذكر هذه الحالات لايتم غالبا بالمصادر الإخبارية إلا عرضا ، وذلك عند الحديث عن مظهر من مظاهر الفعل السياسي المتشنج ، كوجود حصار ، أو صراعات سياسية وعسكرية . وفي معظم الأحيان ، تكتفي الأسطغرافية المغربية بوصف الوضعيات القصوى ، فالمواد الغذائية تكثر بفعل الرخاء ، فتنخفض الأثمان ، بينما ترتفع في أوقات الشدة ويقل وجودها ، وقد تنعدم بالأسواق

---

* - أستاذ باحث بكلية الآداب - وجدة .

وأمام ندرة الإشارات المتعلقة بحياة الناس في وثيرتها العادية ، يمكننا أن نتساءل عما إذا لم تكن الأزمات إحدى أوجه الحالات العادية في تاريخ المغرب الوسيط ؟

3) لم تكن مجاعات المغرب الوسيط ناتجة فقط عن التقلبات المناخية ، بل ساهم فيها فعل الإنسان كذلك بفعل الحروب والفتن السياسية. وحينما كانت المجاعات تحل بالمغرب ، فلايبدو أنها عمت كل مناطقه ، والإشارات المتوفرة عنها تهم بالدرجة الأولى الحواضر الكبرى كمراكش وفاس وسبتة. ومن المعلوم أن هذه

الحواضر هي التي احتضنت القسط الأكبر من مظاهر الفعل السياسي بالمغرب الوسيط . فماهي جغرافية المجاعات بالمغرب آنذاك ؟ وهل ظلت البوادي بمنأى عنها ، حينما كانت تجثم على الحواضر ؟

4) - قد يكون من باب تحصيل الحاصل تسجيل نذرة المعطيات الإحصائية بمصادرنا الوسيطية حين حديثها عن الشدة . فكثيرا ما تجنح إلى تقديم صور أدبية بليغة للدلالة على حدوث النزيف الديموغرافي . وحتى الأرقام التي توردها تنطوي في الغالب على المبالغة والتهويل . لقد بسط ابن خلدون بمقدمته سبعة أسباب تسقط المؤرخين في " المغالط " ، ومن هذه الأسباب أنهم " توغلوا في العدد وتجاوزوا حدود العوائد وطاوعوا وساوس الإغراب " (3). ولما كانت النفس البشرية ميالة إلى التهويل عندما يتعلق الأمر بتصوير مظاهر الاختلال ، نتساءل عما إذا لم نكن أمام صور كارثية قد لا تعبر عن حقيقة ما جرى ؟

كرونولوجية عامة للجوائح بالمغرب المريني :

لانروم تقديم لوحة ضافية عن تعاقب سنوات المسغبة بالمغرب في العصر المريني ، لاستحالة ذلك في ظل قصور المادة المصدرية المتوفرة عنها . وقد يكون من حسن حظنا أن ابن أبي زرع سجل بآخر كتابه بعض " الأزمات" العارضة بالدولة إلى حدود سنة 726 هـ . بينما اكتفت معظم المصادر الإخبارية بنقل معطياتها عن هذه الأزمات. وأما المصادر المناقبية فلا تشير إلى سنوات الشدة إلا لتبرز دور رجال الولاية والتصوف في مساعدة السكان على التخفيف من حدة المجاعات. ونفس الملاحظة تنسحب على المصادر الاخبارية ، وخاصة الرسمية منها ، إذ تذكر سنوات المجاعة في الغالب مقرونة بدور المخزن المريني في تقديم يد المساعدة للسكان لتجاوز الشدة . لهذا لانستبعد وجود بياضات عن تعاقب سنوات المجاعة بالمادة المصدرية التي تم الاطلاع عليها .

وكيفما كان الأمر ، فإن هذه المادة سمحت لنا بتتبع بعض سنوات الشدة في العصر المريني ، ووضعها ضمن الجدول التالي :

السنة	مظهر الشدة	المصدر
673 هـ	مجاعة شديدة برجراجة	اثمد العينين ، ج 2 ، ص :209
677 هـ	جراد	الاستقصا ، ج 3 ، ص :89
679 هـ	جراد	القرطاس ، ص : 405

687 هـ	رياح وجفاف	" ص : 408
690 هـ	مجاعـــة	" " "
693 هـ	مجاعــة	" " "
707 - 708	وبـــاء	درة الحجـال ، ج 1 ، ص : 126
711 هـ	جفاف	القرطاس ، ص :398
722 هـ	ريـاح	" " 401
723هـ	مجاعة	" " "
724 هـ	مجاعـة	" " "
726 هـ	جفـاف	الاستقصا ، ج 4 ، ص : 165
749هـ	الطاعون الأسود	ابـن خلـدون ، المقدمــة ، ص :33
عهد أبي عنان	سيول عظيمة	فيض العباب ، ص :38
763 هـ	طاعون وجفاف	نفاضة الجراب ، ج 3
766 هـ	طاعون	ابن قنفذ ، أنس ، ص : 47
819 هـ	وبـاء	الوزان ، ج 1

يسمح لنا الجدول بإبداء الملاحظات التالية :

_ لايخلو عقد من العقود سلم خلاله المغرب من مظهر من مظاهر الشدة . ولعل هذا ينسجم مع ما ذكره الـوزان بـأن الأوبئـة كـانت تضـرب المغـرب كـل 10 أو 15 أو 25 سـنة (4) . وإذا أضفنا إلى ذلك القحوط وهجوم الجـراد والمضاعفـات السلبية للحـروب التـي طبعـت تـاريخ المغرب الوسيط ، أدركنا أن المجاعة ظلت شبحا مخيفا يتهدد المغاربة باستمرار .

_ الملاحظ أن سنوات الشدة عمرت أحيانا لأكثر من سنة بالمغرب ويبدو أن أصعب الفـترات التي عانى خلالها المغاربة في العصر المريني مـن المجاعة ، هي التي امتدت من سـنة 722 الى 726هـ وتلك التي زامنـت اجتيـاح الطـاعون الأسـود الـذي حل بـالمغرب سـنة 749هـ ، واستمر في حصد ضحاياه إلى حدود سنة 751هـ (5).

_ إذا جاز لنا أن نرتب العوامل التي كانت من وراء المجاعـة بـالمغرب ، فيمكننـا - انطلاقـا من الجدول - ملاحظة أن القحوط كـانت تـأتي فـي مقدمـة هـذه العوامـل ، ثـم تليـها الأوبئـة والجراد . ولاننفي أن تحـدث المجاعـة باجتمـاع هـذه العوامـل كلـها أو اثنيـن منـها . وتجـدر الإشارة إلى أنه كثيرا ما تتحدث المصـادر عـن سيادة المجاعـة فـي غيـاب ذكـر العلـة التـي كانت من ورائها.

أصناف الأغذية بالمغرب المريني زمن الشدة :

تورد المصادر عدة أنواع من الأغذية تناولها المغاربة في العصر الوسـيط ، ولربمـا لم يتوسع مصدر في ذكر الأغذية المغربية مثل وصف افريقيا للحسن الوزان - على تـأخره - . بينما تبقى إشارات باقي المصادر متفاوتة الأهمية, فالمصادر المناقبيـة تقدم بعـض الأغذيـة التي تناولها المتصوفة . غير أنه من الصعب أن تتخذ نموذجا عـن أغذيـة معظـم السـكان ،

لأن المتصوفة إنما رام بالدرجة الأولى المجاهدة والابتعاد عن حياة البذخ ، بل والاستنكاف عن الحياة العادية للسكان (6). كما أنه من الصعب التعويل على ما جاء ببعض المصادر التي تخصصت في فن الطبخ - ككتاب فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان لابن الرزين التجيبي الذي ألفه ما بين 636 هـ و640 هـ - واتخاذها مقياسا حقيقيا عن نظام التغذية العادية للسكان ، لأن هذه المصادر تعبر في معظم وصفاتها عن مستوى عيش فئة قليلة من المجتمع كما أنها موجهة " لفتح الشهية ودراسة فزيولوجية الذوق " (7) . أما المصادر الإخبارية - كما سبقت الإشارة - فلاتقدم في الغالب إشارات عن الأغذية ، إلا حينما يتعلق الأمر بوضع استثنائي طبعته المجاعة الناتجة عن الحروب أو القحوط أو الأوبئة. ولاشك أنه في هذا المستوى ، تبرز كتب النوازل أقرب المصادر التي رصدت الحياة اليومية والعادية للسكان ، لارتباط الفقيه والمفتي اللصيق بهموم مجتمعه (8) .

وتأتي الحبوب في مقدمة المواد الغذائية التي تتحدث المصادر عن فقدانها ، أو عن ارتفاع أسعارها ، كلما حلت مجاعة بالمغاربة. وهذا يؤشر على أن القمح والشعير وغيرها من الحبوب شكلت الغذاء الأساسي للسكان (9) ، وليس جزافا أن يخصص ابن الرزين القسم الأول من كتابه لأنواع الأخباز. كما أن الكسكس اعتبر باستمرار " الطبق المغربي " بامتياز ، فهو الطبق الذي يكلف قليلا ويشبع كثيرا(10) ،ويحظى بدلالة رمزية لدى المغاربة (11).

غير أن ثمة عدة عوامل تدخلت في تحديد نظام التغذية عند السكان ونوعيته ، مثل مستواهم الاجتماعي وطبيعة المناخ السائد بالمنطقة ، ونوعية تربتها . يقدم العمري لائحة مفصلة عن المزروعات المغربية المنتشرة بكثرة كالقمح والشعير والقطاني ، كما يورد أصنافا من المزروعات القليلة الانتشار بحكم المناخ السائد بالمغرب ، أو بحكم عادات السكان في التغذية ، فالأرز قليل " وما لهم نهمة في أكله ولا عناية به ، ويزرع به السمسم ولكنه ليس بكثير ، ولايعتصر منه بالمغرب شيرج - أي ذهن الجلجلان - ، ولايأكل الشيرج منهم إلا من وصفه له الطبيب ، وإنما أكلهم عوضه الزيت " (12) . ويمكننا من خلال كتاب الوزان أن نتلمس فعل العوامل السابقة في نظام التغذية لدى المغاربة . ونكتفي بخصوص فعل المناخ ونتائجه بإيراد نموذجين ، أحدهما من جنوب المغرب والآخر من شماله . فبجبل تنزيتة - شمال زاكورة - ينبت الشعير بكثرة كاثرة لكن نقص القمح واللحم به عظيم وبجبل بني بوشيبت بالريف ، يقتات الناس بالبصل والسردين المملح ، وخاصة أكثر بالدبس المطبوخ وحساء الفول ، ويعتبرونهما أحسن قوت (13) . ونلمس أثر المستوى الاجتماعي في نظام التغذية من خلال نموذج فاس. فقد كانت العامة تتناول "اللحم الطري مرتين في الأسبوع ، لكن الأعيان يأكلونه مرتين في اليوم حسب شهيتهم "(14).

وبالرغم من اختلاف نوعية التغذية لدى المغاربة حسب المناطق ومستواهم الاجتماعي ، فقد كانوا قادرين في الظروف العادية على ضمان توازنهم الغذائي بالاعتماد على ما توفر لديهم من أغذية ، وذلك بغض النظر عما تحتويه من " سعة حرارية " . غير أنه بحلول المجاعة يختل ذلك التوازن ، وتصبح الحاجة ماسة إلى التكيف معها باللجوء إلى مصادر أخرى في التغذية. وباختلاف حدة الشدة ، أمكننا أن نميز بين مستويين لأصناف الأغذية التي تناولها المغاربة في العصر المريني :

مستوى ندرة المواد الغذائية : تتحدث المصادر المرينية عن حدوث نقص كبير في المواد الغذائية الأساسية خلال بعض السنوات بالمغرب بفعل الأوبئة أو القحوط . وفي هذه الحالة ترتفع أثمانها ، ويتم الحصول عليها بصعوبة كبيرة . ومن الأمثلة عن ذلك ما حدث بمنطقة رجراجة سنة 673 هـ(15)، أو زمن الطاعون الأسود " ، فالإنسان اليوم إذا طلب ما يتقوت به يلقى شدة وعنتا " (16) . ومن مظاهر هذه الشدة ما يقدمه ابن عباد عن الغلاء الفاحش الذي حدث بالمغرب بفعل الوباء في بعض المواد الغذائية ، " فإذا كان المرء يشتري صاع الحنطة بعشرة دراهم أصبح يشتريه بخمسة عشر أو أكثر ، وإن كان يشتري من الباكور أربعين بدرهم ، أصبح بعشرين أو أكثر وقس على ذلك " (17) . وقد يكون من المفيد لو استأنسنا ببعض المعطيات الإحصائية الأخرى التي تقدمها المصادر عن وضعية أسعار المواد الغذائية الأساسية زمن الرخاء وزمن الشدة بالدولة المرينية . ونستدل عن ذلك بما كانت عليه حين اعتلى أبو يوسف يعقوب حكم المغرب سنة 656 هـ ، وبما أصبحت عليه سنة 724هـ ، حينما تعاقبت ثلاثة أعوام من الجفاف على المغرب ، ونمثل هذه المقارنة ضمن الجدول التالي :

المادة	سعرها سنة 656 هـ (18)	سعرها سنة 724هـ (19)
القمح	*صحفة القمح = 7 دراهم	صحفة القمح = 90 دينارا
الدقيق	ربع قنطار = 1 درهم	أربع أواق = 1 درهم
اللحم	مائة أوقية = 1 درهم	5 أواق = 1 درهم
الزيت	أربعة أرطال = 1 درهم	أوقيتان = 1 درهم
العسل	ثلاثة أرطال = 1 درهم	أوقيتان = 1 درهم
السمن	رطل ونصف = 1 درهم	أوقية = نصف درهم

وإذ نقدم هذه المعطيات الإحصائية عن وضعية الأسعار بفترتين من العصر المريني فلا نخفي تحفظنا حول هذه العملية ، لأن تحديد الأسعار يحتاج إلى مراقبة مجموعة من العناصر التي تدخل في صميم علم الاقتصاد ، مثل القدرة الشرائية والقيمة التبادلية للعملة .... وهذا أمر ما زال بعيد المنال عن المهتمين بالتاريخ المغربي في العصر الوسيط . وحسبنا أن نؤكد على أنه في حالة حدوث " أزمات " من هذا النوع ، لم تكن المواد الغذائية الأساسية تختفي نهائيا من الأسواق ، بل كان بإمكان السكان الحصول عليها بصعوبة كبيرة ولكن بأثمان مرتفعة.

- مستوى انعدام المواد الغذائية : شهد المغرب المريني في بعض الفترات مجاعات حادة ، تمثلت مظاهرها في الانعدام الكلي لبعض المواد الغدائية الأساسية. ومن نماذج ذلك سنة 724هـ ، لما " عدمت الخضر بأسرها " (20). وتزداد حدة الوضعية لما تنعدم الحبوب . وآنذاك يلجأ السكان إلى تناول أية مادة تسمح لهم بالتخفيف من روع الجوع ، ومن البقاء والاستمرارية في الحياة . ويأتي نبات إيرني أو أيرنة كما وردت عند ابن عباد (21) في مقدمة المصادر التي كان المغاربة عبر تاريخهم يلجأون إليها كلما حلت بهم مجاعة مروعة (22) . وتكمن طريقة الاستفادة من هذا النبات في سلق جذوره لمرات متعددة للتخلص من السموم التي يحملها ، ثم يعرض للشمس ليجفف ويطحن للحصول على دقيق

يصنع منه خبز يصعب هضمه ، ناهيك عن المضاعفات السلبية التي قد يتسبب فيها إذا لم يتم التخلص من كل سمومه .

ولاشك أن المغاربة في العصر المريني لجأوا الى مصادر أخرى في التغذية تعودوا على تناولها كلما حلت بهم مجاعة شديدة . ومن هذه المصادر فيتور الزيتون والنارنج وعصائد الخروب (23). كما عولوا في مواجهة المجاعة على النباتات البرية مثل الجمار ، وهو قلب النخلة ، وشجر الدوم (24) ، والبلوط والخبيز (25) ، وعناب السدر (26). والواقع أن أسماء عدة نباتات برية تناولها المغاربة زمن المجاعة تستند إلى معطيات محلية خاصة بكل منطقة (27). وما أحوجنا إلى معاجم تاريخية عن معاني النباتات وتطور دلالتها بالمغرب ، على غرار ما قام به ابن الخير الاشبيلي في القرن 6 هـ (28). ومن الملاحظ - من خلال المصادر التي تم الاطلاع عليها - أن المغاربة لم يلجأوا زمن المجاعات الحادة إلى مصادر فضيعة مثل التي عادوا اليها في العصر الموحدي كأكل اللحم الآدمي (29) . ورغم أن الفقيه راشد بن أبي راشد الوليدي أفتى في شأن نازلة تتعلق بمدى شرعية أكل اللحم الآدمي (30) ، فإن ضبط زمنها يبقى أمرا صعبا ، كما هو الحال عموما في أدب النوازل . كما أن فضاعة مصادر التغذية لدى المغاربة في فترات الشدة لم تصل مستوى ما بلغته خلال الحصار المريني لتلمسان ، والذي دام أكثر من ثمانية أعوام . يذكر صاحب روضة النسرين أن الناس لجأوا إلى " أكل الجيف والحشرات وجميع الحيوانات من الفئران والعقارب والحيات والضفادع وغير ذلك ، حتى أكل بعضهم بعضا ، وكانوا يجعلون غائطهم في الشمس حتى يعود يابسا ، فيطبخونه ويأكلونه " (31) .

وكيفما كان الأمر ، فالظاهر أن العصر المريني لم يشهد حالات كارثية على مستوى التغذية. وتعج المصادر بالإشارات الدالة على سيادة حالات الرخاء بالدولة المرينية. وإذا كان التحفظ حول إشارات بعض المصادر الرسمية ، كالقرطاس والذخيرة السنية والمسند وفيض العباب يبدو مشروعا ، فلربما قد نطمئن لإشارات ابن خلدون التي استندت غالبا إلى الملاحظة والمعاينة الدقيقة . ونكتفي للدلالة على ذلك بمقارنة يوردها عن وضعية المتسولين بفاس وبتلمسان ووهران . فقد ذكر :" بفاس السؤال يسألون أيام الأضاحي أثمان ضحاياهم ورأيتهم يسألون كثيرا عن أحوال الترف واقتراح المأكل مثل سؤال اللحم والسمن وعلاج الطبخ ... ولو سأل السائل مثل هذا بتلمسان أو وهران لاستنكر وعنف وزجر " (32) .

باقي أساليب مواجهة الجوع :

لاشك في أن المجاعات ظلت شبحا مخيفا يتهدد المغاربة باستمرار ، حتى إنها صنعت بعضا من عناصر ذاكرتهم الجماعية في العصر الوسيط. فقد أطلق المصامدة على سنة 615 هـ التي توجت سنوات عجافا إسم سنة "وقليل" لما شهدته من نذرة في المواد الغذائية ، وسمى سكان سبتة سنة 637هـ " بعام سبعة ، وهو مشهور عندهم يتمثلون به بينهم "(33) . ويبدو أن التخوف من المجاعات وهاجس " الأمن الغذائي " ، بالنظر إلى ضعف الإمكانيات الغذائية المحلية لسبتة ، قد ساهم في تكييف سلوك أهلها في الولائم(34). واستمرت المجاعات في نحت الذاكرة الجماعية للمغاربة إلى عهد قريب (35).

ودون أن ننكر أهمية النزيف الذي أحدثته المجاعات بديموغرافية المغرب الوسيط ، ومن ضمنه المغرب المريني (36) ، فلاشك في أن المغاربة تمكنوا من التخفيف من وطأة الجوع ،

ومن الحفاظ على توازنهم البشري باللجوء إلى بعض الأساليب التي تعودوا عليها عبر تاريخهم, فإضافة إلى نجاعة أسلوب " العودة إلى الطبيعة " حسب تعبير روزنبرجي (37) فإنهم تحسبوا للمجاعات بأسلوب الاختزان ، وبإشاعة روح التكافل الاجتماعي فيما بينهم .

لقد تعود السكان على تخزين المواد الغذائية لمواجهة الطوارىء. وتستوقفنا في هذا الصدد وصية لأحد فقهاء سوس نوردها - رغم تأخرها - لأنها تؤشر على أهمية هاجس التخوف من المجاعة عند المغاربة ، وضرورة مواجهتها بأسلوب التخزين . تقول الوصية : " فإن سنى المجاعة لاتجد فيها إلا ما ادخرته في السنين المخصبة ، فعليك بالادخار ، ثم إياك بالسرف ، فادخر ما أمكنك من الإدام والزرع والجلبان واللفت واليابس والهرجان (أي أركان) والخروب وغير ذلكك ، وزريعة كل شيء ، ثم إياك ثم إياك التفريط في التبن فهو تبر لاتبن " (38). وبخصوص سبتة، فبدون أن ننكر قدم لجوء أهلها إلى أسلوب التخزين فإن إشارة ابن عذاري تكشف على أنهم أصبحوا مجبرين منذ مجاعة 637 هـ على الاختزان كل عام نظرا للعواقب الوخيمة التي خلفتها هذه المجاعة " ومن هذا العام صار أهل سبتة يختزنون الطعام في المطامير في كل عام حيطة على أنفسهم من مثل هذه المجاعة التي لم يعهد مثلها في الأعوام الفارطة قبلها "(39). ووصف ابن الخطيب المدينة في القرن الثامن الهجري بأنها " أمينة على الاختزان " (40) وبعد قرن من ذلك ، تحدث الأنصاري - ابن المدينة - عن وجود أربعين ألفا من المطامير لخزن الحبوب (41) وبلغت نجاعة خزن الحبوب أهمية كبيرة لدى المغاربة حتى إن الحبوب المختزنة بمطامير سبتة كان بإمكانها مقاومة الفساد مدة " الستين سنة والسبعين سنة " (42). وفي نفس السياق يذكر الوزان أن سكان مائة بير بدكالة تعودوا على خزن حبوبهم مائة سنة دون أن تفسد أو تتغير رائحتها (43) . وإضافة إلى الحبوب ، لجأ المغاربة إلى خزن مواد أخرى كالخوخ ، وإلى تجفيف العنب و"تصبير" الزيتون وتمليح السمك (43). كما أن السلطة المرينية أوجدت أهراء لخزن الحبوب وتوزيعها على السكان عند المسغبة. ونذكر في هذا السياق أن الفندق الكبير الذي بناه أبو القاسم العزفي كان متكونا من " اثنين وخمسين مخزنا ما بين هري وبيت ، تسع تلك المخازن من قفزان الزرع الآلاف العديدة التي لاتبلغ الحصر" (44). ومن مظاهر مساندة السلطة المرينية للسكان زمن المجاعات أن السلطان أبا سعيد الثاني فتح أعقاب مجاعة سنتي 723 و 724هـ " أهراء الزرع وأخرجه للبيع ، فبيع أربعة دراهم للمد والناس يبيعونه بخمسة عشر درهما " (45). وإضافة إلى تدعيم "القوة الشرائية " للسكان ، بادر أبو سعيد إلى توزيع الصدقات على المحتاجين خلال هذه المجاعة " ، فلم يزل يفرقها بطول أيام الشدة يمر بها الثقات على حارات المدينة فيعطونها أهل التستر والبيوتات وذوي الفاقات والحاجات كل على قدر حاله وضعفه ، فكانوا يأخذونها من دينار ذهبا إلى ربع دينار " (46). ويشير صاحب المسند إلى نفس العمل الإحساني للسلطان أبي الحسن " فكم من سنة مسنهة عال فيها إمامنا رضي الله عنه محاويج أهل بلاد المغرب عموما ، يخرج زرعه المختزن به أود المحاويج عموما في كل ليلة بطول الجذب " (47).

وإلى جانب العمل الإحساني للسلطة ، كان الناس يطلبون مساندة المتصوفة كلما حلت بهم مجاعة ، وقد يكون من باب تحصيل الحاصل القول بأن دور المتصوفة في تاريخ المغرب كان يطفو أكثر في فترات الشدة ، كما هو الحال حين تعم المجاعات . وتحفظ لنا

النصوص المرينية بعض الإشارات عن مبادرة المتصوفة إلى إطعام الجائعين زمن المجاعة ، " والإيثار على الضعفاء والمساكين " (48).

إن الأمثلة التي سقناها عن تدخل السلطة لمساندة السكان زمن المجاعة تتزامن وفترة قوة الدولة المرينية ، ونعلم أن هذه الدولة ظلت محافظة على هيبتها إلى حين نهاية عهد أبي عنان. وقد كان لها قبل هذا العهد من الأسباب ما سمح لها بالتخفيف من روع المجاعات . ولعل من الأمور الملاحظة في هذا الصدد ما ترويه بعض المصادر الرسمية عن حالات الرخاء الذي ساد عهد أبي عنان ، مثل فيض العباب ورحلة ابن بطوطة . ففي هذه الرحلة نقرأ مقارنات بين سعة أحوال المغرب وعسرها بالمشرق الإسلامي ، " فالذي يستعمله أهل مصر من أنواع الإدام لايلتفت إليه بالمغرب " ، " وأما بلاد الشام فالفواكه بها كثيرة إلا أنها ببلاد المغرب أرخص منها ثمنا ،" وقد خرج ابن بطوطة بعد رحلته الطويلة بقناعة مؤداها أن "بلاد المغرب أرخص البلاد أسعارا وأكثرها خيرات وأعظمها مرافق وفوائد " (49)، والجدير بالإشارة إلى أنه أقام هذه المقارنات بعد عودته إلى فاس في شعبان من سنة 750هـ ، أي فترة قريبة من زمن الطاعون الأسود !

غير أنه بعد اغتيال أبي عنان ، تضافرت أسباب الوهن على الدولة ، وغابت لديها شروط مواجهة المجاعات ، وغيرها من مظاهر الشدة. ولربما نكون بذلك قد لامسنا ثابتا من ثوابت نظرية الدولة عند ابن خلدون ، والذي خصه بفصل سماه " في وفود العمران آخر الدولة وما يقع فيها من كثرة الموتان والمجاعات ". فعندما تدنو ساعة نهاية الدولة ، تكثر المجاعات والموتان ، وتحدث المجاعات بفعل " قبض الناس أيديهم عن الفلح بسبب ما يقع آخر الدولة من العدوان في الأموال والجبايات أو الفتن .... فيقل احتكار الزرع غالبا ... والثمار والضرع على نسبة ، إلا أن الناس واثقون في أقواتهم بالاحتكار ، فإذا فقد الاحتكار عظم توقع الناس للمجاعات فغلا الزرع وعجز عنه أولوا الخصاصة فهلكوا " (50). هكذا تتضافر المجاعات مع عوامل أخرى تهيء لعصبية تتوفر لها شروط الحكم للإحاطة بالعصبية الحاكمة . ولاغرو أن المجاعات حاضرة بقوة في الفترات الانتقالية للحكم بالمغرب الوسيط ، فهلا تكون المجاعات إحدى المفاتيح الأخرى التي تساعد على تفسير حركية التاريخ المغربي آنذاك ، وما هي حدود التفاعل بين " أزمة الخبز " و " أزمة الحكم " ؟

الهوامش :

1) - الاسطوغرافيا والأزمة ، دراسات في الكتابة التاريخية والثقافة ، إنجاز الجمعية المغربية للبحث التاريخي ، منشورات كلية الآداب ، الرباط ، 1994 .

2) - ابن أبي زرع : القرطاس ، ص 410 وابن عباد الرندي : الرسائل الكبرى ، مطبعة المعلم الأزرق (حجرية) ، فاس 1320هـ .

3) - ابن خلدون : تاريخ العبر ، ج 1 ، ص 9 ، بيروت 1979.

4) - الوزان : وصف افريقيا ، ج 1 ، ص 68.

5) - حول الطاعون الأسود بالمغرب ، يمكن الرجوع إلى : - البزاز (أمين) : الطاعون الأسود بالمغرب في القرن 14م. مجلة كلية الأداب ، الرباط ، عدد 16. _ مصطفى نشاط : من صعوبات البحث في الديموغرافيا التاريخية للمغرب الوسيط ، الطاعون الأسود نموذجا ، مجلة كلية الآداب ، وجدة ، العدد 6 ، 1996.

6) - أقام المتصوف أبو يعزى ثمان عشرة بالسواحل لا اسم له فيها إلا " أبو لكوط ، وهو النبات المعروف عند العامة بفول أمازير لأنه إنما ينبت غالبا في الأزبال والمزابل وما فيه رائحة الزبل ، ولا يأكله الناس ولا الدواب غالبا ، فكان قوته مما لايشارك فيه الآدميين " . أنظر أحمد التادلي الصومعي ، كتاب المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى ، تحقيق علي الجاوي منشورات كلية الآداب ، أكادير ، 1996 ، ص ص 67 - 68.

7) - Ferhat (H) ; Sapta des origines aux 14 siècle , Rabat , 1994 , p : 436

8) - جاء بإحدى نوازل العصر المريني أن الناس زمن الرخاء كانوا يستهلكون القمح عوض الشعير ، الونشريسي ، المعيار .... بيروت ، 1980 ، ج 4 ، ص 97. وفي ارتباط مع ظروف الرخاء باع التجار " سلعهم في الزاد ونحوه ، فلا يجدون من يشتريها منهم ، فيبيعونها بأبخس ثمن " ج 5 ص 316 .

9) - من الأمور المعبرة أن صاحب المستفاد يذكر في أربع حالات حلول المجاعة بالمغرب في عصره. وفي كل هذه الحالات ثم الحديث عن أسعار الحبوب . التميمي (عبد الكريم) : المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد ، مخطوط مصور عن نسخة الأستاذ محمد المنوني ، صفحات ، 2و 21 و 31 و 38..

10) - Rosenberger (B) , Cultures complémentaires et nourritures de substitution au Maroc 15 - 18 siècle, Annales.E.S.C, Maî - Aout 1980, p : 493.

11) - لاتخفى أهمية حضور الكسكس في الولائم المغربية . وجاء عند الزجالي في أمثال العوام في الأندلس :" تعلمني الكسكسو ونعلمك شحل سبو ".

12) -العمري: مسالك الأبصار ، ضمن ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين للأستاذ محمد المنوني ، 1979 ، ص 298.

13) - الوزان : وصف افريقيا ، ج 1 ، ص 137 وص 260.

14) - نفسه ، ص 200. ونستحضر في هذا الشأن ما كتبه اليوسي في فترة متأخرة عن المرحلة المدروسة عن علاقة نوعية الغذاء لدى المغاربة ببعض العوامل المحددة له . " اجتمع الفاسي والمراكشي والعربي والبربري والدراوي ، فقالوا : تعالوا فليذكر كل منا ما يشتهي من الطعام ، ثم ذكر كل واحد بلغة بلده ، وما يناسب بلده ، ولا أدري أكان ذلك في الوجود أم شيء قدره ، وهو كذلك - يكون - ، وحاصله أن الفاسي تمنى مرق الحمام ، ولا يبغي الزحام ، والمراكشي تمنى الخالص واللحم الغنمي، والعربي تمنى البركوكش بالحليب والزبد ، والبربري تمنى عصيدة إنلي ، وهو صنف من الذرة بالزيت ، والدراوي تمنى الفقوس في تجمدرت ، وهو موضع بدرعة يكون فيه تمر فاخر ، مع حريرة أمه زهراء وحاصله تمر جيد وحريرة " أنظر : الحسن اليوسي : المحاضرات في الأدب واللغة ، تحقيق وشرح محمد حجي ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، 1982 ، ص ص 202 - 203.

15) - جاء عند صاحب اثمد العينين :" كانت مجاعة شديدة سنة ثلاث وسبعين وستمائة ، فأتيت بحمل من دقيق القمح من دار الشيخ في شهر رجب . فقال لي : إجعله في خابية. ففعلت كما أمرني ، فادخل يده في الدقيق ثم أخرجه ، وقال لي : إياك أن يراه أحد غيرك أو يأخذ منه شيئا , فكان الناس يأتون بالجموع الكثيرة من المائة إلى الستين ونحو ذلك ، فما زلت أنفق منه رغدا إلى أن دخل المحرم ..." ، اثمد العينين ونزهة الناظرين في مناقب الأخوين لأبي عبد الله بن تيجلات ، تحقيق محمد رابطة الدين ، رسالة مرقونة بكلية الآداب ، الرباط ، ج 1 ، ص 209.

16) - ابن عباد : مصدر سابق ، ص 156.

17) - نفس المصدر ، ص 196.

18) - ابن أبي زرع ؟ الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ، الرباط ، 1973 . ص 95.

19) - القرطاس : ص 401

* - تحتاج الأوزان والنقود الواردة بالجدول إلى أن تضبط ، وهي كالتالي : - الصحفة : تسمى الوسق كذلك وتساوي 60 صاعا . وكان الصاع المريني مكونا من أربعة أمداد بمد الرسول (ص) . ومن المعلوم أن الصاع الموحدي كان يعادل ثلاثة أمداد وثلث بمد الرسول (ص). وقد حدد مفتي فاس في العصر المريني أحمد القباب المد في رطل وثلث .- الوقية : ذكر الغرفي أن الأوقية " إسم لمقدار من الوزن ... تفسيره

بالعرف لا بالوزن " . وحسب صاحب الدوحة المشتبكة فقد عادلت في العصر المريني 33,33 غراما. - الرطل : عادلت في العصر المريني 533,28 غراما. - الدرهم الفضي الكبير : كان يزن آنذاك 24 حبة من حبوب الشعير ويتكون من ثلاثة دراهم صغيرة . وهذا يعني أن الدرهم الصغير كان يزن ثمانية حبوب . - الدينار : قلما تحدد المصادر نوعية الدينار أكان ذهبيا أم فضيا. فالدينار الذهبي المريني حسب أحمد القباب ورد كما يلي : "دينار وقتنا أربعة وثمانون حبة " . وقد حدده بريت Brethes في 4,56 غراما. وكان يتجزء إلى نصف دينار وربعه وثمنه . أما الدينار الفضي فكان متكونا من عشرة دراهم صغار حول موضوع الأوزان والنقود بالدولة المرينية يمكن الرجوع إلى : - المنوني ، ورقات ، مرجع سابق .- أحمد القباب : شرح القواعد للقاضي عياض ، مخطوط القرويين رقم 352 ، دون ترقيم للصفحات .- الغرفي أبو العباس : اثبات مالابد منه لمريد الوقوف على أحوال الدينار والدرهم والصاع والمد ، مخطوط خاص مصور عن نسخة العلامة محمد المنوني . - أبو الحسن علي بن يوسف الحكيم : الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة نشر حسين مؤنس ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد 6 ، 1958.

_ Brethes (J.D) : Contribution à l'histoire du Maroc par les recherches numismatiques, Casablanca, 1939.

20) _ القرطاس ، ص : 401.

21) _ ابن عباد : مصدر سابق ، ص 254. وتسمى شرق المغرب البكوكا أو تابكوكا أو تلغودا. و" تسمى علميا ARUM ARISARUM ، وتنتمي إلى فصيلة الأراسيات ARACEAE، وهي نبات عديم الساق ، ذو أوراق قليلة العدد ، رمحية الشكل ، تعلوه زهرة بيضاء وسوداء ،وله بصيلة صغيرة لايتعدى حجمها حجم العنب " أنظر عبد المالك بنعبيد معلمة المغرب ج 4 ، ص 1315. وتجدر الإشارة إلى أن التحليل العلمي لمكونات ايرني أو البكوكا كان موضع أطروحة علمية دافع عنها الأستاذ أحمد ملحاوي من كلية العلوم بوجدة

Melhaoui (A) : Thèse de Doctorat Es - Sciences , Contribution à la Connaissance de la structure d'Arisarum Vulgare , 1993.

22) - إلى عهد قريب - سنة 1944 - كان سكان شرق المغرب يقضون يومهم في البحث عن إيرني أو البكوكا لمواجهة المجاعة التي حلت بهم . وما زالت بعض الأسر تحتفظ بأدوات الاستفادة من هذا النبات .

23) - ابن عذاري : البيان المغرب ، قسم الموحدين ، ص 325. ويشير القادري إلى أن المغاربة تناولوا الفيثور والخروب إبان مجاعة 1738هـ . حوليات نشر المثاني ، تقديم وتحقيق نورمان سيكار ، الرباط ، 1976 ، ص 52.

24) - للمزيد حول موضوع النباتات البرية والأعشاب ودورها في التطبيب بالمغرب ، يمكن الرجوع إلى كتاب تحفة الأحباب في ماهية النبات والأعشاب ، نشر كولان ورونو

Renaud et Colin : Tohfat al Ahbab , Glossaire de la matière médicale marocaine , Paris, 1934.

25) - كتاب المعزى : مصدر سابق ، ص ص 68 - 69 . وتحمل الخبيز حسب المناطق عدة أسماء وهي الخبيزة والبقولة وتيبى ووابجير ،كما أن صاحب كتاب المعزى يتحدث عن النبليا باعتبارها مرادفة للخبيز.

26) - مارمول ، ج 2 ، ص : 105.

27) - نذكر مثلا أن السكان بشرق المغرب كانوا يتناولون زمن المجاعة نباتات السلك والكلخة والتافغا وقرن الغزال والكرنينة (العسلوج) والتالما والحميضة. وقد ورد عند صاحب التشوف العسلوج والكلخ ، تحقيق أحمد التوفيق ، ص : 207.

28) - كتب كتابا سماه عمدة الطبيب في معرفة النبات ، وقد حققه محمد العربي الخطابي ضمن منشورات أكاديمية المملكة.

29) - يذكر صاحب الحلل الموشية أن نزلاء السجن أكلوا بعضهم البعض عقب مجاعة 571هـ. أنظر ص 138.

30) - راشد بن أبي راشد الوليدي : الحلال والحرام ، منشورات وزارة الأوقاف ، الرباط ، ص 191. وبعد أن سرد مواقف الفقهاء المالكية من شأن ذلك ، انتهى إلى أنه " لو وقع جزء من آدم ميت في قدر ولو وزن دانق - أي سدس درهم - فإن أكله محرم احتراما لا استقدارا ".

31) - روضة النسرين ، ص 61. ومن الملاحظ أن صاحب العبر وصاحب القرطاس لايشيران إلى تناول المحاصرين غائطهم . كما أن يحيى ابن خلدون مؤرخ الدولة العبدوادية لايذكر ذلك . فهل جاءت مبالغة ابن الأحمر في تهويل مضاعفات الحصار معبرة عن هدفه لإبراز عظمة المرينيين العسكرية وسطوتهم ، خاصة وأنه تجنى كثيرا بكتابه على بني عبد الواد ؟

32) _ ابن خلدون : المقدمة ، ص 644. ويقول عن عهد أبي الربيع :" تنافس الناس في البناء بالزليج والنقوش ، وتناغوا في لبس الحرير، وركوب الفاره وأكل الطيب ..." العبر ، ج 7 ، ص 495.

33) - ابن عذاري : البيان المغرب ، ص 267 و ص 351.

34) - جاء عند ابن الخطيب أن : " ... أنساب نفقاتهم في تقدير الأرزاق عريقة ، فهم يمصون البلالة مص المحاجم ، ويجعلون الخبز في الولائم بعدد الجماجم " معيار الاختيار ، ص 146.

35) - عرفت سنة 1850 عند أهل سلا بعام ثمانية عشر مثقالا ، إذ بلغ مد سلا ورباط الفتح آنذاكك - وهو مد كبير - ثمانية عشر مثقالا ، الناصري : الاستقصا ، ج 9 ، ص 61. وما زال عام 1944 يعرف لدى ساكنة شرق المغرب بعام "البون "Bon ، لأن المواد الغذائية كانت توزع عليهم بالوصل نظرا لقلتها . وتتحدث الروايات الشفوية عن حدوث وفيات على جوانب طرقات وأزقة مدينة وجدة آنذاك بفعل المجاعة.

36) - يذكر صاحب القرطاس أنه بفعل المجاعة الشديدة التي عرفها المغرب سنة 693 هـ كان الناس يحملون من الموتى أربعة وثلاثة واثنين على نعش واحد ، ص : 384.

37) - Rosenberger : Cugtures , op. cit. p : 494.

38) - المختار السوسي : المعسول ، البيضاء 1963، ج 17 ، ص : 257. وقد قدم الفقيه هذه الوصية بعد مجاعة 1878.

39) - ابن عذاري : مصدر سابق ، ص 351.

40) - ابن الخطيب : معيار الاختيار ، ص 146.

41) - الأنصاري : اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار ، الرباط ، 1983 ، ص 42.

42) - نفس المصدر ، ص 24.

43) - الوزان ، ج 1 . ص 121.

43b) - نفسه : صفحات 63 و 260 و279.

44) - الأنصاري : مصدر سابق ، ص 38.

45) - القرطاس : ص 401.

46) - نفسه : ص 401.

47) - ابن مرزوق : المسند الصحيح الحسن ، الجزائر ، 1984 ، ص 191.

48) - إثمد العينين : مصدر سابق ، ص : 209 ، وأنظر كذلك : الحضرمي أبو عبد الله محمد السلسل العذب والمنهل الأحلى ... نشره محمد الفاسي ، مجلة المخطوطات العربية ، المجلد 010 ، ج 1 ، ص : 55.

49)- ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، بيروت ، 1975 ، ج 2 ، ص ص 758 - 759.

50) - ابن خلدون : المقدمة ، ص 302 . ويقصد ابن خلدون بالاحتكار هنا الاختزان .

أزمات التغذيـة في المغـرب من خلال حوليات
محمد بن الطيب القادري (ت. 1187 هـ).

ذ. بدر المقري *

عندما تدبرت في المفتتح عنوان هذا اليوم الدراسي ، ملت في قرارة نفسي إلى الأهمية القصوى التي تحملها المقاربة المنهاجية لموضوع أزمة التغذية في تاريخ الغرب الإسلامي . ومن شأن الشمولية أن تقوي عروة تلك المقاربة المنهاجيـة بالتنبيه على تكامل علم التاريخ والأجناس المعرفية الأخرى . ويكفينا في هذا المقام الإشارة إلى أن قاعدة تحليل أزمات التغذية في تاريخ المغرب والأندلس - سواء أكانت قدرا ربانيا أم اكتسابا- تتمكن وتتقوى بأحكام الحسبة التي تقوم على اجتهاد الرأي فيما يتعلق بالعرف دون الشرع في الأزمات مثلا . وبالإضافة إلى ذلك فإن الحسبة هي الفيصل في أزمات التغذية الناتجة عن الفساد السياسي والاقتصادي . فالحسبة هي الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه ، والنهي عن المنكر إذا ظهر فعله ، وهي واسطة بين أحكام القضاء وأحكام المظالم كما أورد ذلك الإمام أبو الحسن الماوردي (ت 450 هـ) في كتابه " الأحكام السلطانية " (1). وترسيخا مني لأركان المقاربة المنهاجية المتكاملة لموضوع أزمة التغذية في تاريخ المغرب والأندلس ، فإنني قيدت مساهمتي المتواضعة بحوليات محمد بن الطيب القادري الفاسي (1124 هـ / 1187 هـ). وحتى لايلتبس الأمر علينا فإنني لا أقصد بحوليات القادري "حوليات نشر المثاني " التي حققها الأستاذ نورمان سيكار ، سنة 1978 بإشراف المعهد الجامعي للبحث العلمي بالرباط (2) ، بل المقصود هو "نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني " الذي حققه الأستاذ محمد حجي والأستاذ أحمد التوفيق في أربعة أجزاء (3) ، و"التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر "(4).

وللقائل أن يعترض قائلا : وما فائدة تحليل موضوع أزمة التغذية في تاريخ المغرب من خلال " نشر المثاني " و"التقاط الدرر" مع العلم أن " التقاط الدرر " ليس إلا مختصرا لكتاب "نشر المثاني "؟

جدير بنا التنبيه على أن الامتداد الزمني لكتاب "التقاط الدرر" أكبر من "نشر المثاني" ، لأن محمد بن الطيب القادري رحمه الله فرغ من مبيضته في صفر عام اثنين وثمانين ومائة وألف

---

* أستاذ باحث بكلية الآداب - وجدة .

1182 هـ (5) . ويوجد في "التقاط الدرر" مالا يوجد في "نشر المثاني" أحيانا ، ويقوم متن "التقاط الدرر" أحيانا أخرى الأود الحاصل في متن "نشر المثاني" الذي حققه الأستاذان محمد حجي وأحمد التوفيق . ومن أمثلة ذلك أن أزمة غذائية خطيرة وقعت في المغرب في القرن الحادي عشر الهجري ، وردت بنفس التفاصيل والأوصاف في أحداث سنة 1063هـ وسنة 1073هـ في "نشر المثاني" مع خبروفاة الفقيه سيدي محمد المؤذن التطواني . وكان "التقاط الدرر" حجة واضحة على أن تلك الأزمة الغذائية ووفاة الفقيه المؤذن كانا من وقائع سنة 1073هـ (6). وقد تفادينا - من باب الحرص على الضبط والدقة - تكرار ذكر أزمات التغذية الواردة أخبارها في آن واحد في "نشر المثاني " و"التقاط الدرر".ولأخذ موضوع أزمات التغذية في المغرب في القرن الحادي عشر والثاني عشر الهجري بتمامه ، فإنني خصصت مساهمتي بالمنهاج التالي :

أ) - مصادر القادري في أخبار أزمات التغذية .

ب) - منهاجه .

ج) - مفاتيح مصطلحية .

د) - جذور وخصائص أزمات التغذية ونتائجها .

أ) – مصادرالقادري في أخبارأزمات التغذية :

ولد القادري بفاس عام 1124هـ ، ولكنه يفتتح مشروعه التأريخي بعام 1001هـ ، فماهو السر في ذلك ؟

يقول القادري معقبا على وفاة مولاي إسماعيل في جمادى الأولى من عام تسعة وثلاثين ومائة وألف 1139هـ :" وكل ما قيدته هنا في هذه الترجمة وغيرها من الحوادث والتواريخ كله وجدته مقيدا بخط من يظن به الثقة ... ومن وفاته رحمه الله إلى تمام العام وهي خمسة أشهر وجميع العام الذي بعده كان في ذلك قتال عظيم وحروب ... ولكن لا أعقل تفصيل ذلك لصغر سني حينئذ وقلة مبالاتي بتقييده بقرب ذلك ، وكذلك في العام الذي بعده أيضا ..." (7).

وهكذا نستنتج أن مصدر المشاهدة عند القادري يفتتح بعام 1142هـ في حين أن مصدره الرئيس في تأريخ المرحلة الممتدة من عام 1001هـ إلى عام 1141هـ ، هو تقييدات اهل العلم والثقة . ومما يشكل على الباحث في مصادر القادري ، قوله أنه لايعقل تفصيل الفتن بعد وفاة مولاي إسماعيل إلى حدود 1141هـ لصغر سنه وقلة اهتمامه بالتقييد ، ولكننا نجده يعتمد مصدر المشاهدة في تاريخ سابق على تاريخ وفاة مولاي إسماعيل عام 1139هـ .

يقول القادري في وصف نتائج أزمة التغذية الواقعة عام 1133هـ : " ... اشتد الغلاء وارتفعت الأسعار ووقع مرض في الناس وموت كثير بمرض وغيره من عدم الأقوات ، حتى لقد رأيت بالمارستان بفاس أمنها الله الذي كانوا يجمعون فيه الأموات ويجهزونهم فتراكم بعضهم على بعض حتى صعدوا من الأرض نحو القامتين كله معمور بالأموات. شاهدت ذلك وأنا صبي في حد التميز..."(8). والمصدر الثالث عند القادري ، هوالرواية الشفوية التي يضفي عليها صبغة النسبية بل التحفظ،ملمحا إلى ذلك بعبارة :" فيما قيل"(9) ، أو :"وذكروا"(10).

ب) - منهاجه :

وطد القادري في "نشر المثاني" و"التقاط الدرر" أساس منهاج ثابت في تأريخ أزمات التغذية في مغرب القرن الحادي عشر والثاني عشر الهجري . وليس ذلك المنهاج بمستقل عن كليات مشروعه التاريخي الوصفي التقريري التسجيلي . فالمبتدأ عند القادري هو تبيين جذور أزمة التغذية ، ثم إبراز مظاهرها، ليكون المآل مع توضيح نتائجها. ومما نلمسه عن كثب ، أن هذا المنهاج يمكن الباحث من أخذ أزمات التغذية بأصليتها ، من حيث إحاطته بالإطار الموضوعي (الزمان - المكان). ولكن الباحث قد يعيق إدراكه الكلي بأزمات التغذية ، إذا لم يكن له إلمام بالمصطلحات الفقهية التي يستعملها القادري في تبيان مظاهر أزمات التغذية. وهاهنا جوهر بعث فكرة تكامل الأجناس المعرفية ونبذ فكرة قطيعة العلوم.

ج) - مفاتيح مصطلحية:

لكل علم باب رئيس هو مصطلحاته. وكم يقبح بالباحث أن لايأتي العلم من أبوابه . ولذلك خصصنا هذا المبحث بدلالات جملة من المصطلحات الفقهية التي يشد بها القادري عضد إخباره بأزمات التغذية في مغرب القرن الحادي عشر والثاني عشر الهجري.

المد النبوي = رطل ونصف تقريبا من حيث الوزن .

الصاع = أربعة من المد النبوي . وفيما يخص السوائل فإن الصاع يساوي لترين وخمسة وسبعين أو خمسة أرطال وثلث .

الرطل = وهو وحدة الوزن . ومن أنواعه : الرطل العطاري والرطل القشاشي والرطل الخضاري والرطل الصوفي. والرطل الخضاري يساوي ألف غرام.

الدرهم = عملة فضية تساوي أوقية واحدة أو أربع موزونات .

المثقال = عشرة دراهم أو عشر أوقيات تتكون من أربع موزونات. ويساوي هذا المثقال أربعين موزونة شرعية (11).

الربع = أحد أجزاء المد وهو الوحدة الأساسية الخاصة بكيل الحبوب (12). وكان الربع في مرحلة الخلافة بالأندلس يساوي خمسة وعشرين رطلا كما أورد ذلك :- LEVI PROVENCAL في كتابه :" HISTOIRE DE L'ESPAGNE MUSULMANE " (13).

الفلس = وهو قطع نقدية نحاسية (14). وقد ذهب الأستاذ هاشم العلوي القاسمي إلى أن الدرهم الذي ضربه المولى الرشيد عام 1081هـ كان يساوي 96 فلسا (15).

الموزونة = كانت تساوي 24 فلسا عام 1081هـ (16).

الوسق = ستون صاعا نبويا ، وهو خمسة أرطال وثلث (17).

د) - جذور وخصائص ونتائج أزمات التغذية :

*1) - أزمة عام خمسة وثلاثين وألف على عهد السعديين ، وسببها العداوة بين اللمطيين والأندلسيين من أهل فاس ، فبلغ القمح سبعين أوقية للوسق ، وكان المد حينئذ صاعا نبويا (18).

*2) - أزمة عام ثلاثة وستين وألف في العصر السعدي . فقد كانت المجاعة ناتجة عن الجفاف ، وارتفع السعر إلى ستة موزونات للصاع الشرعي (19).

*3) - أزمة عام اثنين وسبعين وألف في آخر العهد السعدي ، حيث بادر أبو محمد عبد الله بن محمد الدلائي إلى حصار مدينة فاس عشرة أيام من باب توسيع نفوذه في مواجهة الإمارة العلوية الناشئة ، فأفسد الفواكه والزروع ، ونهب وسبى وأهلك.وهكذا غلت الأسعار بسبب ذلك، وبلغ الصاع النبوي من القمح نحو درهمين ونصف شرعية أو أزيد ، وأكل الناس الموتى والجيف بفاس،وذبح الأطفال للاستراحة منهم (20).

*4) - أزمة عام ثلاثة وسبعين وألف ، وسببها أن الحياينة عاثوا فسادا في الأرض ، نهبا وسفكا للدماء وقطعا للطرق ، فبلغ خبرهم أمير تافلالت المولى محمد بن الشريف الحسني (ت 1075هـ) ، فخرج إليهم من سجلماسة وأخذ زرعهم ففروا إلى ناحية فاس ، وبايعوا ابن عمه المولى محمد بن عبد الله بن طاهر الحسني ، وكان إذاك مقيما بفاس . فلما بايعه الحياينة ، خرج معهم من فاس لقتال ابن عمه في صفر فأقلع المولى محمد بن الشريف عن الحياينة ورجع إلى موطنه ، ورجع الحياينة إلى بلادهم ، ورجع المولى محمد بن عبد الله بن طاهر إلى فاس . فبسبب هذه الفوضى والفتنة وقع الغلاء بفاس ، حيث بلغ القمح عشرين مثقالا قديمة للوسق الشرعي ، وبلغ الصاع النبوي خمسة دراهم شرعية ، وبلغ اللحم أربع موزونات للرطل ، والدجاج أربع موزونات أو نحو أربعة أواق سكية ، وأكلت الجيف ، وكثر الموت بالأزقة دون ما في المارستان. وقد بلغ عدد الأموات في المارستان أربعة وثمانين ألفا ، وأكل الآدمي بوسط حي الصفارين جهرا ، ولم يبق في حي الدوح من طالعة فاس إلا نحو ثلاثين رجلا بعد أن كانوا ستمائة،وعطلت المساجد. وقتذاك خرج فقهاء فاس مستشفعين بعبد الله الدلائي فأخبروه بما نزل بهم من الجوع ، مع العلم أن العلماء أفتوا بأن الحياينة بغاة يجب قتالهم (21).

*5) - أزمة عام ثمانية وثمانين وألف على عهد مولاي إسماعيل ، إذ ظهر الجراد بحوز مراكش وسلا وتافلالت بل بكل أقطار المغرب باستثناء فاس وأحوازها ، ففسد الجريد ، واشتد الغلاء. وهكذا بلغ القمح في رجب اثنين وعشرين أوقية للوسق على حسب صاع ونصف شرعي في مد ذلك العهد ، أو وسق ونصف شرعي وعدمت الغنم ، وظهر الطاعون بتطاون وفي حوز بني زيات ثم فشا في البلد ووقع الموت (22). وانتقل الطاعون إلى مكناسة عام تسعة وثمانين وألف ، فكان الحراس لايتركون من يرد على فاس ، وفي رابع عشر ربيع الأول ، اشتد الطاعون بفاس إلى أن بلغ عدد الموتى ثمانمائة في اليوم وقيل ألفا (23).

*6) - أزمة عام ثلاثة وثلاثين ومائة وألف على عهد مولاي إسماعيل . فقد ارتفعت الأسعار وهاج المرض والموت من عدم الأقوات ، واستمر ذلك إلى دخول عام سبعة وثلاثين ومائة وألف ، فمات في هذه الأزمة خلق كثير من المدن ومن البوادي أكثر . وروى القادري أنه رأى بالمارستان بفاس جمع الأموات وتجهيزهم ، فتراكم بعضهم على بعض حتى صعدوا من الأرض نحو القامتين. وقد ذكر الأستاذ محمد حجي والأستاذ أحمد التوفيق أنهما وجدا في هامش إحدى النسخ المخطوطة من "نشر المثاني" أن عام ثلاثة وثلاثين ومائة وألف ، كان يدعى بعام "خيزو" لكثرة زراعته في هذه السنة. وكان يدعى أيضا عام الصندوق ، لأن الناس كانوا إذا رأوا أحدا يحمل الخبز في الطريق نهبوه ، فكانوا يجعلون الخبز في الصندوق حيث يمرون به إلى الفرن خوفا من النهب (24).

*7) - أزمة عام تسعة وأربعين ومائة وألف . وسببها الأول أن الزرع كان قد أصابه الضباب . والسبب الثاني سياسي ، إذ أن مولاي عبد الله بن إسماعيل العلوي قطع سبل فاس انتقاما من رؤسائها الرماة. فاشتد الغلاء(25). وأمر مولاي محمد بن إسماعيل العلوي بنهب الزرع بمكناس وزرهون وفاس ، وكثر الظلم بسبب ذلك وأعلنت الوداية والشراقة والحياينة قطع الطرق ، وقل المطر ، وغلت الأسعار ، فبلغ سوم القمح في شهر ذي الحجة من هذا العام ستة أواقي للمد ، وسوم الشعير إلى أربع أواقي للمد ، ولم يجد أحد بما يشتريه في فاس ولم يوجد من يشتريها أيضا لابقليل ولا بكثير لشدة الغلاء وقلة المطر وغلبة الفساد . وقاسى الناس من ذلك الشدائد العظام ، وفروا من المدينة (26). واللافت للنظر أنه كلما وقعت أزمة مجاعة في المدن والحواضر ، كان العلماء سباقين إلى الخروج إلى البادية ،حرصا على التدريس وعدم تضييع العلم ، وفرارا من المجاعة ، وخير دليل على ذلك خروج الفقيه محمد المدجل الفاسي (ت1158هـ) إلى قرية "تاصروت" عام 1150هـ (27).

*8) - أزمة عام خمسين ومائة وألف الناتجة عن الصراع بين ولدي مولاي إسماعيل : مولاي عبد الله ومحمد . فقد ارتفعت الأسعار وبلغ القمح نحو ثلاث أواق ونصف قديمة للصاع النبوي وتعطلت الحرف وكسد كل ما يباع ، فكان الربع وغيره يباع بأقل من نصف عشر قيمته بل أقل من ذلك ، وفسد النظام وانقطعت طرق المغرب بالكلية ، وشاعت السرقة وانعدم الحطب من فاس حتى أكثر الناس في هدم الدور لأخذ الخشب لطبخ ما يتقوتون به ، وخلا من السكنى بفاس نحو الثلثين بسبب الجوع. وإذاك خرج أهل فاس لنواحي تطاون لجلب "الميرة" الواردة على مرسى تطاون وطنجة وأصيلا من إسبانيا ، ولكن باشا طنجة أحمد بن علي الريفي الحمامي منعهم من ذلك. وكان قصده إما أن يدخل أهل فاس تحت طاعته ، وإما أنه خشي أزمة تغذية في الشمال الغربي . وبقي الأمر كذلك نحو ستة أشهر ، فضاع بذلك خلق كثير. وبلغ القمح نحو خمس أواق قديمة للصاع النبوي وخرج المغرب من دائرة الأزمة ، بعد ورود قوافل الحجاج المغاربة محملة بقمح طرابلس ويضاف إلى ذلك نزول المطر ، وتراجع الباشا أحمد بن علي الريفي عن قراره الأول ، وورود قوافل الزرع من جهة ملوية. وهكذا بلغ الزرع ستة أواقي للمد ، وبلغ القمح نحو سبع موزونات للصاع (28).

*9) - أزمة عام اثنين وخمسين ومائة وألف ، بسبب فساد الفأر في الزرع والبحائر والذرة والرمان وفدادين الفول والسنبل وفي الأعناب والتين والخوخ وكل ما ينتفع به من جميع أنواع الخضر الربيعية والصيفية والخريفية(29).

*10) - أزمة عام خمسة وستين ومائة وألف . فقد نزل المطر في إبان الحرث ، وشرع الناس في الحرث على العادة حتى أكملوا العملية ثم انحبس المطر ، ولم يزالوا ينتظرونه في شهر فبراير ومارس على عهد مولاي عبد الله بن إسماعيل حتى انقطع رجاؤهم منه وغلت الأسعار ، وشاهت الوجوه وبيع القمح بتسعة مثاقيل للوسق ، وبالغد بعشرة مثاقيل ، وبعد غد بأحد عشر مثقالا للوسق وهكذا (30).

*11) - أزمة عام سبعة وستين ومائة وألف بسبب هجوم الجراد في أوائل رمضان. فقد أتى على النبات الأخضر كالذرة وأوراق الأشجار ، ولم يسلم منه إلا الزرع الذي صادفه يابسا (31).

الهــوامش :

1) - "الأحكام السلطانية" للإمام أبي الحسن المـاوردي . دار الكتـب العلميـة - بـيروت. ط1 ، 1985م ، ص : 299 - 300.

2) - " المصـادر العربية لتاريـخ المغرب" للأستاذ محمد المنوني منشورات كلية الأداب والعلوم الإنسـانية - الرباط ، 1983م ، ج 1 ، ص : 220.

3) - الجزء الأول : الربـاط : 1397هـ - 1977م.الجزء الثـاني : الربـاط : 1402هـ - 1982م .الجزء الثـالث :الرباط : 1407هـ - 1986م .الجزء الرابع : الرباط : 1407هـ - 1986م .

4) - "التقـاط الـدرر" - تحقيـق : هاشـم العلـوي القاسـمي . منشـورات دار الآفـاق الجديـدة - بـيروت . ط 1 ، 1403هـ - 1983م

5) - المصدر نفسه ، ص : 494.

6) - " نشر المثاني " ج2 / ص : 67 - 134. " التقاط الدرر " : ص 157.

7) - " نشر المثاني" : ج3 / ص : 292 - 293.

8) - المصدر نفسه ، ج 3 / ص : 253.

9) - " التقاط الدرر" : ص157.

10) - " نشر المثاني ": ج 2 / ص : 67.

11) - "التقاط الدرر" : هامش 1 - 2 - 4 ، ص : 157.

12) - المصدر نفسه ، هامش 5 ، ص : 379.

13) - TOME III : p. 245.

14) - « HISTOIRE DE L'ESPAGNE MUSULMANE », T III : p. 253.

15) - "التقاط الدرر" : هامش 1 ، ص : 204.

16) - نفس المصدر والصفحة .

17) - " لسان العرب " لابن منظور الإفريقي المصري - دار صادر - بيروت : ج10/ ص : 378.

18) - "نشر المثاني " : ج1/ ص : 265.

19) - " التقاط الدرر " ص : 134.

20) - " نشر المثاني " : ج2 / ص : 129." التقاط الدرر " : ص : 155.

21) - "نشر المثاني" : ج2 / ص : 64 - 67 - 68." التقاط الدرر" : ص : 157 - 158.

22) - "نشر المثاني ": ج2 / ص : 232." التقاط الدرر " : ص 204.

23) - " التقاط الدرر" : ص 210.

24) - "نشر المثاني" : ج 3/ ص : 253." التقاط الدرر " : ص 323.

25) - "التقاط الدرر" : ص 372.

26) - "نشر المثاني ": ج3/ص : 399- 400.

27) - المصدر نفسه : ج4 / ص 50.

28) - "نشر المثاني" : ج3 /404 - 405- 408. " التقاط الدرر" : ص 380 - 381.

29) - "نشر المثاني" : ج4 / ص 25 - 26.

30) - المصدر نفسه : ج4 / ص 97.

31) - المصدر نفسه : ج4 / ص 99.

أقـوات وتغذيـة في تاريـخ المغرب الحديـث *

(ق. 15 – ق. 18م)

ذ: محمـد استيتـو *

كانت كثرة اعتماد الطبخ البرتغالي على مادة السكر والقرفة والتوابل وأصفر البيض المقلي ... مما شد إليه انتباه أحد الإخباريين الايطاليين الزائرين للبرتغال عام 1571م ، الذي أخبر أن معظم تلك الأطباق مغربي (1) . وتتأكد شهرة الطبخ المغربي الحديث أكثر ، في ما تزخر به كتب الطبخ الأجنبية القديمة ، لاسيما البرتغالية منها ، من أصناف المأكولات المغربية ، مثل كتاب " فن الطبخ " (Art de Cozinha) لطباخ الملك البرتغالي دومنكو رودريكيش(Domingo RODRIGUES) ، الذي عرف فيه بمجوعة من الأطباق ، منها :" خروف على الطريقة المغربيـة " و"دجاج على الطريقة المغربية "و "سمك على الطريقة المغربية "و " مقانق مغربية " (Saucisses) (2) ...

حقا ، إنها أطباق دسمة وشهية ! لكن ، هل تمثل هذه الأصناف من المأكولات المغربية الواسعة الانتشار ، أساس النظام الغذائي العادي في المغرب الحديث ؟

الواقع أن هذه الأطباق – التي لا نجد من بينها الكسكسو أشهر المأكولات المغربية وأوسعها انتشارا – منتقاة بدقة لفئات اجتماعية معينة أكثر من غيرها ، بينما المغرب بلد مترامي الأطراف ، تنوعت أنماط عيش سكانه ، تبعا لتنوع التضاريس والتربة والمناخ ، وتبعا لأهمية التساقطات والمجاري المائية ، والغطاء النباتي ... مما ترتب عن ذلك كله اختلاف في أنواع الغذاء وفي الاستهلاك الغذائي ، حسب الجهات والفئات ، والفصول والظروف ... وهو ما كان يعبر عنه بتلقائية تامة " حلايقي " مراكشي في مستملحاته ، نقلها اليوسي في محاضراته ، مفادها أنه اجتمع فاسي ومراكشي وعروبي (**) وبربري ودراوي (***) ، فذكر كل واحد منهم بلغة بلده ما اشتهاه من الطعام ، فكان " حاصله أن الفاسي تمنى مرق الحمام ولايبغي الزحام ، والمراكشي تمنى الخالص واللحم الغنمي ، والعربي تمنى البركوكش بالحليب والزبدة ، والبربري تمنى عصيدة أنلي (****) ... بالزيت ، والدراوي تمنى الفقوس في تجمدرت ... مع حريرة أمه زهراء " (3) ، أي حاصله تمر بلاد تاكمدرت الجيد وحريرة .

---

* ـ أستاذ باحث بكلية الآداب ، وجدة

لقد كان هذا المداح المراكشي يعكس بحق مشهد الاستهلاك الغذائي العادي للمغاربة حسب جهاتهم ، على الأقل في الزمن الذي عاش فيه ، أي القرن 11هـ / 17م ، وذلك تماما كما كان يعكسه بعض

أرباب الزوايا ، من خلال إطعامهم، على مستوى الفئات الاجتماعية ، كأبي عمرو القسطلي المراكشي (ت. 974هـ / 1567م) ، الذي كان " لايدخل أحد زاويته إلا بادر الخدام له بإحضار الطعام على قدر طبقته . فسائر الناس يأكلون خبز الشعير وما وجد من الفاكهة معها ، وفي الصبح الدشيش ، وفي المساء الكسكس ، ومن هو أعلى مرتبة يأكل خبز البر وخلاصة التمر والعسل واللحم والتريد والدجاج ، ومن هو أعلى قدرا من الطبقتين يقربون له الحسو المتخذ من لباب خبز الخالص وفصوص البيض مفوها بالقرفة والزعفران ولحم الضأن المطبوخ بالمرق واللفت السلجم وأنواع الفاكهة ..." (4).

والظاهر أن هذا " التمييز " الملاحظ في إكرام الواردين بما هو خشن من الطعام وبما هو لين فألين ، لم يكن القصد منه التفضيل بين الشرائح والطبقات ، وإنما مراعاة الطبائع والعادات ، ومصداق ذلك ، أن أبا بكر الدلائي (ت . 1021هـ / 12-1613م) ، الذي كان على طريقة شيخه القسطلي في إطعام الناس حسب طبقتهم وما يناسب حالهم في جودة الطعام ورداءته ، لما نعت أحدهم إطعامه بالرياء ، لأن غيره يطعم الناس سواء ، رد عليه قائلا : " من حسب الناس سواء فليس لحمقه دواء ، فإن الناس أصناف ، وكل واحد ما اعتاده في الغذاء ، فالبدوي الذي ألف الطعام الغليظ من الدخن وشبهه إن أطعمته الرقيق لم يشبعه وبات جائعا ، والحضري الذي ألف الرقيق إن أطعمته غيره لم يقبل عليه ولم يتسوغه وبات جائعا وإن بات أحد جائعا ولم أطعمه ما يجب فقد أهنته ولم أكرمه " (5).

هذا وربما كان اليوسي أكثر وضوحا بخصوص هذه المسألة ، وذلك بما علق به على مستملحة المداح المراكشي ، حين أفاد أنه " لو عرضت ... الحريرة على العربي لم يشربها إلا من فاقة ، إذ لا يعتادها مع الاختيار ، ولو عرضت العصيدة على الفاسي لارتعدت فرائصه من رؤيتها ، وهكذا ..." (6).

لاشك أن اليوسي يؤكد هنا غلبة الطبع / العادة على التطبع ، لكن مع إمكانية "اختراق " هذه العادات الغذائية تحت ضغط الظروف ، كالفاقة التي تتسع خاصة في فترات الإزم الغذائية - وما أكثرها في عصر اليوسي على الأقل ! - حيث يضطر الإنسان عادة إلى التكيف مع الظروف ، أملا في النجاة والحفاظ على النسل ، باعتماد الوسائل الممكنة ، بل وبانتهاك المحظور ، ولعل هذا يقودنا إلى استعراض نماذج من هذه الظاهرة ، إنما قبل ذلك ، لابأس من التعريف بهذه الإمكانيات ومجموعة من الأقوات التي تهبها الطبيعة ، وبأسس النظام الغذائي في مجتمع المغرب الحديث وعاداته الغذائية ، بما يسمح بعد ذلك بالوقوف على بعض ما كان يطرأ على هذه العادات من تحول . فما تكون هذه الإمكانيات والأقوات وما هي عادات استهلاكها

أقـــــوات :

تمكن المصادر المختلفة -بعد جهد- من التقاط إشارات إلى العديد من الأقوات ، منها ما ينتج ، من مزروعات ودواجن ومواش وغيرها ، ومنها ما تهبه الأحراش والبراري والمياه عذبة ومالحة ، من بقول وثمار ووحش وأسماك ... وهذه الإشارات وإن كانت ليست كثيرة ،

بحيث تشفي غليل الباحثين ، ومتفرقة كالشظايا في ثنايا تلك المصادر ، أجنبية أم مغربية ، إلا أنها تبقى مع ذلك أهم بكثير من تلك التي تهم أنواع الأطعمة وطرق إعدادها.
فالمصادر الأجنبية لاتسجل غالبا إلا ما بدا مدعى للإثارة والغلو والطرافة ، في حين ينبغي اقتناص ظروف مجاعة أو ما شابه ذلك لتجد في المصادر المغربية ما قد يفيد ، وما عدا ذلك فنادر .

أ - أقـــوات منتجـــة :

1- الحبـــوب : يبدو أن الحبوب كانت أكثر ما يستهلكه المغاربة ، وربما كان رعاة الابل من رحل الصحراء وحدهم لايزالون ، إلى ذلك العهد ، يجهلون الدقيق والعجائن المستخلصة منها (7) ، تماما كما كان عليه حالهم زمن البكري في العصر الوسيط (8) .

وكان القمح الصلب والشعير والذرة والدخن أكثر أنواع الحبوب انتشارا في مزارع المغرب الحديث حيث كانت تشغل خاصة، السهول الواسعة الخصبة الممتدة بين أصيلا شمالا وقصر عبد الكريم (القصر الكبير)جنوبا، محتلة ما نعته البعض ببداية " المغرب الأصفر " (9) وسهول إقليمي تامسنا ودكالة : "خزان قمح كل بلاد البربر "،حسب تعبير برتغالي من أهل القرن 18م، أو "محيطات الحبو " كما وصفها غيره (10).

وكانت زراعة الشعير تتعدى هذه النطاقات إلى المناطق الفقيرة ، ما دامت تفي بمردود ما ، كما في جبال الريف (11) وشرائط بجبال الأطلس (12) وحتى إلى ما ورائها من واحات وأحواض أودية (13) ...

هذا ، ورغم أن الشعير كان يحتل مساحة أكبر ويستهلك أكثر ، ورغم أن أهميته الغذائية لاتقل في شيء عن أهمية القمح ، إن لم تكن أفضل ، إلا أن قيمته التجارية كانت أقل من قيمة القمح بحوالي النصف تقريبا (14) ، وذلك نظرا لكثرة إقبال الحضريين وأهل اليسار على القمح أكثر من غيره ، حسب البعض (15)، وربما أيضا لكثرة تصديره .

وإذا كان القمح هو الأكثر استحسانا والشعير هو الأكثر استهلاكا ، فإن الدخن والذرة البيضاء (16) كانتا تحتلان بدورهما مكانة لايستهان بها ، لا من حيث المساحة المزروعة ولا من حيث الاستهلاك . وكثيرا ما كان سعر الذرة يفوق سعر الشعير ، لاسيما خلال الإزم (17) . ويستمد هذان المزروعان أهميتهما من كونهما من المزروعات " المازوزية " الربيعية ، التي تقاوم الجفاف وتنمو في وقت قصير ، لايتعدى الثلاثة أشهر في أقصى الحالات (18) ، ثم إنهما لايتطلبان جهدا كبيرا ، سواء عند زراعتهما ، أو عند جمع محاصيلهما ، أو عند عملية الدرس ، علاوة على أن زراعتهما تمثل فرصة ثانية لتدارك السنة الفلاحية ، إذا كانت محاصيل الزراعات البكرية سيئة ، لسبب طبيعي أو لغيره . لذا لاغرو إذا كانت محاصيل الذرة هي التي جنبت فاسا وأحوازها مجاعة محققة في خريف 1541م (19) ، لهذا إذن كان الاهتمام بزراعة الذرة وما شابهها ، خاصة في المناطق الجافة نسبيا والفقيرة التربة (20).

وعموما يمكن القول إن زراعة الذرة البيضاء والدخن كانت معروفة ومنتشرة في مختلف أنحاء المغرب تقريبا ، وإن مع بعض التفاوت من حيث الاهتمام والإنتاج والمردودية

وبمناسبة الحديث عن الذرة بصفة عامة ، لابأس كذلك من استحضار الذرة الصفراء ، التي انتقلت على يد البرتغاليين من أميركا إلى بلاد العالم القديم ومن بينها المغرب ، إما

بحكم الاحتلال البرتغالي لبعض ثغوره وما جاورها ، أو بحكم التبادل التجاري . إلا أنه لايعرف لا بالتحديد ولا بالتقريب تاريخ دخول هذا النوع من الذرة إلى المغرب ، وهناك من يشك في أهمية وجودها فيه قبل أواخر القرن 18م (21).

والراجح أنه لم يكن لها - إلى اليوم - دور مهم في المشهد الزراعي بالمغرب ، ومع ذلك وجب التنبيه !

وهناك من الحبوب كذلك " الشيلم (22) الذي يتلاءم مع التربة الفقيرة ويتحمل البرودة ، لذلك غلبت زراعته في بعض مرتفعات الأطلس والريف . ويستخرج من الشيلم الدقيق ، ويستفاد من حزم قضبانه في تغطية سقوف المساكن ، ولذلك تسمى في بعض جهات الريف بـ "السقاف" .

ثم هناك الأرز ، وهو وإن كان أصبح شبه مجهول في مغرب بداية القرن العشرين (23) ، إلا أن زراعته كانت معروفة منذ العصور الوسطى ، لاسيما حول ضفاف الأودية كوادي سوس ووادي أبي رقراق . ويظهر أن المغاربة لم يكونوا يستسيغونه حسب العمري (24) ، مما كان من بين عوامل تراجع إنتاجه ، على ما يبدو ، لذلك لانجد إلا إشارات قليلة إلى زراعته في العصر الحديث ، ومعلومات شبه منعدمة عن كيفية إعداده للاستهلاك (25).

2 - **القطاني :** تعتبر القطاني عنصرا غذائيا مكملا للحبوب ، فهي قريبة منها من الناحية الغذائية حين تستهلك جافة أو خضراء ، كالفول والجلبان ، اذ تزود الجسم بما هو في حاجة إليه من مواد ، خاصة في ظل نظام غذائي أساسه الحبوب . والملاحظ أن ما هو متوفر من إشارات إلى القطاني ، يتعلق معظمه بالبيع أو بالاستهلاك ، وذلك على عكس الحبوب .

وربما كان الفول من بين أقدم أنواع القطاني إنتاجا واستهلاكا بالمغرب (26) . ويكثر إنتاجه خاصة في المناطق الرطبة والمسقية . وهو من المزروعات البكرية ، وميزته أنه يستهلك أخضر وجافا ، ويعتبر قوتا مستساغا لأهل البوادي والحواضر على حد سواء . فقد ذكر الوزان أن الفول الأخضر كان يباع في موسمه بفاس بثمن رخيص جدا (27) ، وفي بعض جهات الريف الفقيرة كبني بوشيبت ، كان حساء الفول أحسن قوت (28) ، كذلك كان الفول أهم وجبة في الصيف في حاحا (29) . كما كان الفول يستهلك في بعض المناسبات مثل " الناير " مع الحمص ومواد أخرى (30) .

ويختلف الحمص وكذلك العدس عن الفول في كونهما مزروعات مازوزية تقاوم الجفاف ولا تتطلب تربة غنية ، تماما كالذرة والدخن ، لذلك أمكن زراعتهما في كل مكان تقريبا . ويبدو أن الإقبال على زراعتهما كان أكثر كلما تعذر حرث المزروعات البكرية ، كما في موسم 52-1553م ، فحسب شهادة أحد يهود فاس المعاصرين ، أنه لما نزلت الأمطار متأخرة حوالي شهر يناير ، هرع الناس ، في سباق مع الوقت ، للحرث خاصة بظهر الزاوية ، حول فاس ، حيث عمد الناس الى ربط " زوجين " بل وعشرة " أزواج " الى المحراث الواحد ، وذلك من أجل حرث أكبر مساحة ممكنة ، لاسيما من هذين المزروعين ، وبما أن المحصول كان جيدا للغاية فقد بيع المد منهما بفاس بأربع فلوس فقط (31) .

وبالمناسبة ، فهل يستشف من تركيز هذا الشاهد اليهودي على الحمص ، ولاسيما على العدس أنه كان مستساغا جدا بين اليهود المغاربة ؟

إن الرد بالإيجاب له ما يدعمه بالنسبة للمغاربة من المسلمين ، حيث يظهر أن استهلاك العدس كان مرغوبا فيه ، لاسيما من قبل المتدينين كأحمد بن إبراهيم الدرعي (ت . 1052هـ / 42-1643م) الذي كان " لايفارقه العدس " (32) ، وذلك لما جاء في الحديث من أنه "... يرق القلب ويدمع العينين ويذهب الكبر وهو طعام للأبرار " (33) ، ولما نقل أيضا من أنه " قدس على لسان سبعين نبيا " (34) .وهناك كذلك الجلبان والكرسنة التي تعطى علفا للأبقار وتصنع منها عصيدة بالأطلس ، بل وربما الخبز أيضا (35).

ومن بين أنواع القطاني الأخرى نذكر اللوبية التي يعتبر الحديث عنها في المغرب الحديث معضلة كبيرة ، إذ لايعرف ما إذا كانت موجودة أصلا آنذاك أم لا ، وكذلك نوعها . فمحمد الضعيف (ت. 1233هـ /17 - 1818م) يذكر أن عام 1164هـ /50-1751م هو "عام اللوبية واللوبية وهي تشبه القمح كانت تأتي من بلاد النصارى ... بالسفن وكانوا يبيعونها للمسلمين ويأكلونها ، وكانت تباع بمدينة سلا والرباط وغيرهما من مدن الساحل ، وجاءت في زمن الشدة ... " (36).غير أن صاحب كتاب " تحفة الأحباب في ماهية النباتات والأعشاب " أشار اليها في القرن 11هـ / 17م باعتبارها نبتة علاجية (37) ، وكذلك صاحب كتاب " مقنع المحتاج في آداب الأزواج " في القرن الذي قبله (38).

لكن يظهر أن هذا النوع من القطاني هو أقدم من ذلك ، فقد تحدث عنه ابن بصال الطليطلي في القرن 5هـ /11م باعتباره من المزروعات التي تزرع في شهر أبريل (39) ، وذكر بعده ابن العوام أنها اثنا عشر نوعا ، عد منها بالاسم أحد عشر نوعا ، منها نوع واحد كان معروفا بالأندلس (40).

إذن هل يعقل أن توجد اللوبية في الأندلس بينما يخلو منها المغرب ؟ وهل يكون النوع الذي حدد ابن العوام انتشاره في الأندلس هو نفسه الذي تحدثت عنه مصادر مغرب القرنين 16م و17م كنبتة علاجية ؟ تبقى المسألة في حاجة إلى مزيد من البحث والتقصي ، سيما وأن الأمر ازداد تعقيدا لما أصبح ينظر إلى اللوبية باعتبارها نبتة أميركية الأصل (41) .

3 - **الخضر** : لم تكن الخضر كثيرة التنوع في المغرب الحديث ، ولم تكن زراعتها واسعة الانتشار في البادية على ما يبدو . إلا أنها كانت تزرع حول بعض المجاري المائية ، خاصة القريبة من الحواضر . كما كان يهتم بزراعتها أحيانا حتى في مناطق لم يكن أهلها شديدي عناية بالزراعة عموما ، كسكان بادية أسفي في القرن 16م (42). وكذلك فقد كان لسكان آيت عياض الجبلية بتادلا بساتين عديدة للخضر وغيرها على ضفتي جدول يخترق مدينتهم (43) ، مثلما كان لأهل مدينة تييوت كمية عظيمة من الخضر على وادي سوس (44). وكانت مدينة آنفا تصدر فواكهها وخضرها ، خاصة الخيار ، الى فاس لأن نضجها فيه متأخر (45).

إلا أن مدينة فاس كانت تتزود بحاجتها من الخضر ، خاصة من السهول الفسيحة الواقعة في السفح الشمالي لجبل زلاغ وتسقى بالنواعير (46) ، ومن زواغة (غربي المدينة) حيث قدر ما كانت تنتجه من خيار ولفت وجزر وكرمب وخس وغيرها من الخضر بخمسة

عشر ألف حمل في الصيف ومثلها في الشتاء (47). وكان يدخل من اللفت والجزر يوميا إلى فاس خمسمائة حمل ، لكثرة الإقبال عليهما ، ومع ذلك كان ثمنهما بخسا (48) .

4 - **الفواكه** : عرفت الفواكه بكثرة تنوعها وباحتلالها مساحات أهم من مساحات الخضر في البحائر والأجنة التي كانت تنتشر عادة حول نقط الماء ، لاسيما القريبة منها من التجمعات السكانية (49) . وباستثناء بعض الأصناف المحدودة النطاق ، كالتمور في المناطق شبه الجافة وراء سلسلة الأطلس (50) ، والموز في المناطق الساحلية الرطبة كما حول سلا (51) أو سبتة (52) ، واللوز وما شابهه في المناطق المرتفعة الباردة نسبيا كجبال بني بوشيبت بالريف (53)... ، فإن معظم الأصناف الأخرى قابل للتكيف مع النطاقات المحلية ، ولو في حدود معينة ...

وعلى أية حال ، فإن التبادل كان يمكن كل جهة من التزود بحاجاتها من هذه المواد التي لاينتجها . فإلى فاس كان يصل الجوز وغيره من الريف (54) ، وبطيخ تامسنا لنضجه مبكرا فيها (55) ، وإلى تييوت بسوس ينتقل زيت الزيتون من مراكش (56) ، وفي تازة وفاس يستبدل تمر الجنوب بالحبوب وغيرها (57) ، وهكذا ...

وكانت بعض المناطق قابلة لأن تزرع فيها الأصناف الكثيرة من الفواكه وبأنواعها المختلفة كأحواز سبتة ، التي كانت " تسوق منها الأجفان وتسافر إلى المغرب وبلاد الأندلس " (58) ومنها على سبيل المثال (59):

- فواكه صيفية : المشمش وعيون البقر والإجاص والتوت والباكور وحب الملوك (القراسيا)...

- فواكه خريفية : العنب (65 نوعا) ، والتين (28 نوعا) ، والرمان (26 نوعا) والقسطل (18 نوعا) والتفاح (15 نوعا) والجوز (8 أنواع) والسفرجل واللوز (أربعة أنواع لكل صنف)، والزيتون (ثلاثة أنواع) والعناب (نوعان)، والخروب (نوعان ، طيب ورديء) ، والجلوز (نوع واحد) ، والمشتهى (نوع واحد ليس بالمغرب منها شيء) ، والخوخ ، والنخيل (بلحه رديء)...

- فواكه شتوية : الليم والليمون والترنج والنارنج والزنبوع والموز وقصب السكر (الذي أكثر ما اشتهر به الجنوب (60)...).

ويعدد ابن غازي (ت . 919هـ / 1513م) ما كانت تزخر به مكناسة الزيتون من أصناف الفواكه ، فذكر : البرقوق ، والمشمش ، والتفاح (نوع يسمى الطرابلسي يعقد مرتين في العام ونوع يسمى العودة) ، والإجاص ، والسفرجل (حلو وحامض يركب فيه التفاح والإجاص) ومن أنواع الرمان : السفري والراهبي ، وميمونة والنعيمي ، والأخضر والقابسي ، ثم الجوز والخوخ ، وعنب أبيض وأسود . ومن أنواع التين : الشعري والسبتي والانبضار ، والاشكوز والشبلي والحمراء ، والغدان والحافز والنقال ...(61)، هذا ناهيك عن الزيتون الكثير الذي هو صفة المدينة من قديم .

وكذلك فأنواع التمر بالجنوب كانت لاتعد ولا تحصى ، فابن غازي - السابق الذكر - لما سأل صديقه إبراهيم بن هلال (ت. 903هـ /97-1498م) مفتي سجلماسة ، عن أنواع التمر بناحيته ، رد عليه بأن بعث له إلى فاس حملا كاملا ، به تمرتان من كل صنف ، وأردفه بخطاب كتب فيه : " سألتني عن أصناف التمر ، وهاهي تصلك (وإن تعدوا نعمة الله

لاتحصوها)" (62). وأما لكثرة إنتاج التمور ، فيكفي أن نذكر أنها كانت تعطى علفا للماشية بدل الشعير في عدة جهات ، لاسيما في تلك التي يقل فيها العلف (63).

والأهم من تعدد أصناف الفواكه وأنواعها توالي مواسم نضجها وفترات استهلاكها على امتداد ثمانية أشهر في السنة تقريبا ، بدءا بظهور الكرز (حب الملوك) في شهر أبريل واختتاما بموسم جني الزيتون في شهر نونبر (64) ، الشيء الذي كان يتيح إمكانية التنويع والتغيير في الوجبات الغذائية ، وإن كان هذا لايعني قطعا أنها كانت متوفرة باستمرار على موائد كافة الناس ، حتى وإن تعلق الأمر بحاضرة فاس ،التي يقدر الوزان ما كان يباع فيها يوميا من تلك الفواكه في مواسمها بخمسمائة حمل ، عدا العنب ، الذي لم يدخله في هذا العدد (65).

5 ـ **مواشـــي ودواجــن :** لايتردد البعض في القول إن إمكانيات استهلاك المغاربة من البروتينات من أصل حيواني ، في العصر الحديث ، كانت مهمــة وأفضل كثيرا مما كان عليه واقع الحال في كثير من أصقاع أوربا (66) . ويعزز ذلك أن تربية الماشية والانتجاع أو ما أسميناه ترحالا شاذا (67) ، ساد في تلك الفترة على نطاق واسع ، حتى في السهول التي كانت معروفة قبل ذلك بالاستقرار ولا تصلح في الواقع إلا له كالسهول الأطلنتية التي أصبحت فيها تربية الماشية حرفة أساسية قبل الزراعة (68) .

وعلى العموم ، فقد كانت قطعان الماعز تشكل المورد الأساس لكثير من سكان القمم الجبلية الفقيرة (69) والمرتفعات الغابوية الوعرة ، حتى أنها كانت تمكث فيها باستمرار كما في جبل بني جنفن بالريف (70). كما كانت الماعز تربى أيضا إلى جانب قطعان الغنم في مادون ذلك من المناطق الفقيرة ، يلهث وراءها مربوها بأكواخهم البسيطة ، حيثما وجدوا العشب أقاموا (71).

وفي المنحدرات الجبلية والمنبسطات المتصلة بها ، القابلة للاستغلال الزراعي ، وفي السهول حيث يتم عادة المزاوجة بين الزراعة وتربية المواشي (72) ، تنضاف الأبقار إلى قطعان الماعز والأغنام ، للحاجة إليها ، خاصة لجر المحاريث . وتكثر أيضا قريبا من الحواضر في " الزراريب " أو " النوايل " لتزويد سكانها بحاجتهم من الألبان ومشتقاتها ، مثل " النوايل " التي كانت تحيط بدار الدبيبغ بفاس في القرن 18م (73). وكان مربو الماشية يملكون عادة ما يتراوح بين بضعة رؤوس وعشرات آلاف منها ، لاسيما من الماشية الصغيرة . فقد كان لزعيم مدينة تكوداست (!) أو تكندافت بالأطلس مثلا ، مائة ألف رأس من الغنم والماعز (74).

ويبدو أن سيادة ظاهرة الترحال والانتجاع جعلت قطعان الإبل منظرا مألوفا ، ليس فقط في مواطنها بالمناطق الجنوبية ، بل في المناطق والسهول الشمالية كذلك، شرقا: في صحراء أنكاد (75) وسهول كرط (76) ووادي زا (77) وأوطاط الحاج (78) ... ، حيث تكثر جنبا إلى جنب مع الماشية الصغيرة والخيل والبغال ... ، وغربا : في سهول الغرب وأزغار ، حيث المواشي من كل نوع ...(79) . ولم تكن الإبل تزود فقط مربيها بحاجتهم من الألبان واللحوم والجلود والشعر ، بل كانت تعزز وبشكل خاص حركة النقل والمبادلات على نطاق أوسع ، إلى جانب الحمير والبغال .

وعلى ذكر الحمير والبغال وكذلك الخيول ، فرغم أن هذه الأنواع من المواشي ليست مما يربى من أجل الاستهلاك عادة ، بحيث يمكن إدراجها ضمن أقوات الدعم الاحتياطية ، إلا أن شدة الاعتناء بها نظرا لأدوارها الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية ، يسمح بإدراجها ضمن خانة ما ينتج ، سيما وقد كانت تعزز بشكل كبير الثروة الحيوانية للبلاد . وكانت هذه الحيوانات كثيرة جدا في مختلف الجهات ، كما في جبل مسطاسة (80) وجبل سكيم (81) وفي سهل أزغار (82) ... أما في هسكورة ، فكانت الخيل فيها لكثرتها " أحقر الدواب " (83) ، هذا رغم شدة الولوع بها وما لها من مكانة في نفوس الفرسان ، وما أكثرهم في مغرب ذلك العصر... (84).

وبالنسبة للدواجن ، فرغم أن تربيتها قديمة ومنتشرة على أوسع نطاق ، إلا أن ذكرها في المصادر محدود إلى حد كبير ، وسبب ذلك - على ما يبدو - أنها كانت من المشاهد الحياتية اليومية العادية في المساكن والبيوت ، التي لاتحتاج إلى اشارة أو تنبيه ، لذلك لانعرف عنها إلا معلومات قليلة ، يأتي ذكر غالبها عرضا خاصة ضمن ما يؤكل .

ويعتبر الدجاج والحمام أهم هذه الدواجن ذكرا ، لكثرة استهلاكها ولولوع الناس بتربيتها ، ليس في البوادي وحدها ، حيث كانت مما يهدى أحيانا للزوار بسخاء (85) ، بل وفي المدن والحواضر كذلك ، كمدينة فاس ، التي كان يجلب إليها من هذه الطيور (86) وتباع فيها في أسواق خاصة (سوق الطيريين) ، تباع فيها الطيور التي تؤكل والعصافير (87) ، وكان عدد كبير منها يقتنى ويسمن في أقفاص كبيرة من قصب (88)، توضع عادة فوق سطوح المنازل ، أو في أي مجال ممكن ، حتى ولو كان ذلك خزانة كتب في الأصل ، كتلك التي استعمل جناح منها لأقفاص الدجاج وآخر لأقفاص الحمام بأحد القصور المتداعية بمراكش (89). وبطبيعة الحال ، لم تكن الغاية من تربية الطيور ، لاسيما الدجاج ، فقط لحومها وإنما أيضا بيضها ، لما له من قيمة غذائية ولكثرة إنتاجه . ويكفي أن نذكر هنا أن البيض شكل أول دعم شعبي حقيقي لانطلاق حركة الدولة السعدية وأول (نايبة) ضريبة تفرضها على الرعية ، أصلحت بها شؤونها وقوت بها عضدها ، بينما استهون الناس أمر البيضة (90).

هذه إذن بعض أنواع الأقوات المنتجة ، التي كانت تعتبر أساس تغذية السكان ، ويمكن أن نضيف إليها كذلك مجموعة هائلة من أنواع الأقوات التي كان يحفل بها المجال الطبيعي . فما هي هذه الأقوات ! ؟

ب - أقــوات الدعــم :

تشمل هذه الأقوات أساسا كائنات المياه مالحة أم عذبة ، لاسيما الأسماك ، والوحش ثم الفواكه والثمار والنباتات التي تتوفر في الطبيعة.

1 - الأسمـــاك : شكلت الأسماك موردا آخر لدعم المخزون الغذائي من البروتينات بالمغرب الحديث ، سيما وأنه يطل على واجهتين بحريتين تمتدان على مسافات طويلة . لذلك كان السمك موردا للرزق للعديد من الصيادين (91) ، ليس للاستهلاك العائلي فقط ، وإنما أيضا لبيعه لتجار يحملونه مملحا وطريا إلى مسافات قد تناهز المائة والعشرين ميلا إلى الداخل ، رغم صعوبة المسالك أحيانا ، كما كان يفعل أهل ترغة بالريف مثلا (92).

وربما كانت أسماك الأنهار المعروفة بكبر حجمها وكثرة شحمها ودهونها ، من بيوض وأنقليس (النون) وشابل ... أوسع استهلاكا ، نظرا لاختراقها مجموعة من التجمعات

السكنية والدواوير . وكانت تلك الأسماك تباع في جهات بعيدة ، كشابل وادي أبي رقراق الذي كان " يباع ببخس القيم ، ويعم حتى المجاشر النائية والخيم (93) ، وكشابل وادي أم الربيع ، الذي كان يحمل حتى إلى شبه الجزيرة الايبرية ، فبالأحرى إلى الأقاليم والحواضر المجاورة كمراكش (94).

وكذلك وجدت في المناطق الداخلية مجموعات من الصيادين كصيادي فاس الذين كانوا يصطادون من وادي سبو ومن روافده كوادي فاس ، الكثير من أنواع الأسماك الكبيرة وذات الجودة ، تعرض في المدينة في موسمها بثمن بخس جدا ، وذلك على امتداد عدة قرون (95) ، كما كان يحمل منها إلى النواحي المجاورة كمكناس ، كميات مهمة تصنع منها ألوان من الطعام كثيرة (96).

وكانت المروج والضايات تمثل بدورها محيطا للصيد الوفير ، كما في أزغار (97) حيث كان يقيم الرعاة حولها ، يعيشون من ماشيتهم ومن صيد عدد لايحصى من الأسماك المدهشة بحجمها وشحمها (98). ولم تخل مثل هذه الضايات حتى من المناطق شبه الجافة ، كتلك التي كانت تخلفها فيضانات وادي زيز بالجنوب الصحراوي ، فكان الصيادون " من الأعراب يختلفون إلى ضواحيها لأنهم يجدون فيها صيدا حسنا " (99). هذا ناهيك عن البحيرات الجبلية كبحيرة الجبل الأخضر باقليم دكالة ، والتي كانت تعج بكميات عظيمة من أسماك الأنقليس والبرعان الأحمر والبوري (الزنجور) ... كلها في تمام الجودة ، وإن كان لا أحد يصطادها (100).

2 - **الوحش والطرائد** : كانت الطرائد عموما والوحش والزواحف والطيور تشكل دعما إضافيا آخر لخريطة الأقوات وتوفير مزيد من اللحوم والبروتينات . وقد أورد كل من الوزان (101) ومرمول (102) مجموعة من أنواع هذه الحيوانات والطيور ، كان الناس يصطادون معظمها ، وهي : اللمث والبقر الوحشي وحمار الوحش والغزلان والوعول والضباع والضب والسلاحف والورل والنعام والأرانب ... إضافة إلى انواع أخرى يصعب حصرها من خلال المصادر المختلفة ، ومن بينها الخنازير (103).

وجدير بالذكر ، أن بعضا من هذه الحيوانات البرية كان أكثر عرضة للقنص من غيره ، كالذئاب والحرذون ، لأنها كانت تربى وتسمن إلى جانب حيوانات أخرى كالكلاب ، وذلك من أجل استهلاك لحومها طرية أم مجففة ، كما في بعض المناطق الجنوبية الخارجية المذهب ، مثل سجلماسة (104) ، لذلك لم يكن غريبا أن تلفت ظاهرة ندرة مثل هذه الحيوانات أو اختفائها من هذه المناطق مثل الكلاب ، مجموعة من الرحالة ، إلى حد أن هناك من استغربوا من عدم مشاهدتها البتة في رحلاتهم (105).

وكانت الزواحف هي الأخرى من بين ما يصطاد ويؤكل كالسلاحف ، وهي عادة قديمة ، سرد منها صاحب كتاب التشوف نموذج الفقيه عبد السلام التونسي نزيل أغمات والمتوفى بتلمسان في العصور الوسطى ، والذي كان " اذا اشتهى اللحم اصطاد السلاحف في البرية فأكل لحمها " (106).

وكانت الطيور كثيرة ، تغري الناس وتحبب إليهم هواية القنص ، كأهل القصر الكبير الذين كان من عادتهم أن يذهبوا خلال شهر ماي لاصطياد الطيور بالفخاخ في الضاحية ، خاصة اليمام (107). أما الحجل فإنه يبدو في بعض النصوص وكأنه من الدواجن (108).

وهناك إشارات عديدة جدا إلى وجود النحل بكثرة في الغابات والبراري والأحراش، مما جعل إمكانية الحصول على عسلها ، بالنسبة لسكان هذه الجهات ، أمرا متيسرا ، حتى من غير حاجة إلى تربية النحل ، لمن أراد ذلك (109).

وكان الجراد يعتبر قوتا مرغوبا فيه ، يباع في الأسواق ، لاسيما في الجنوب ، من قديم . فقد ذكر الحميري وغيره أن " أهل مراكش يأكلون الجراد ويباع في كل يوم منه أحمال ، وعليه قبالة " (110) ، وأن أهل " سوس يأكلون الجراد أكلا لما مقلوا ومملوحا " (111) . تماما كعادة أهل الجزيرة العربية وليبيا ...(112).

3 - **الفواكه والثمار البرية والنباتات والأعشاب** : الواقع أنه يصعب تحديد أنواع وأسماء الفواكه والثمار والنباتات والأعشاب البرية ، التي كانت تشكل نسبة مهمة من الاحتياطي الغذائي للسكان ، ولا نغالي إذا قلنا إن الناس كانوا منافسين ، لايستهان بهم ، للحيوانات آكلة الأعشاب وغيرها .فقد درج سكان البوادي على الخصوص - من مزارعين ورعاة وغيرهم - على جمعها من الحقول والبحائر والبساتين والأجنة والمراعي ، خلال فصل الربيع خاصة زمن تنقية الحقول وحرث " المازوزي " ، وخلال فصلي الصيف والخريف : زمن نقش البحائر وجمع المحاصيل والغلات ، وذلك ليستهلكونها طرية في مواسمها مع الأقوات الأخرى المنتجة ، أو خارج مواسمها ، بعد تجفيفها ومعالجتها وخزنها . بل إن هذه " المنتوجات " البرية كانت بالنسبة لبعض الفئات أساس غذائهم ، كالنساك والزهاد المنقطعين عن الناس في الغابات والفلوات ، مثل نساك الجبل الأخضر بدكالة ، الذين كانوا " يقتاتون فقط بالنباتات والفواكه التي يوفرها هذا الجبل " (113).

ومن بين مايرد ذكره في المصادر والدراسات من هذه النباتات ، على سبيل المثال لا الحصر العسلوج (114) والبسباس البري والخرشوف البري (الكرنينة) والخبازي (الخبيز) وإيرني (115) وأبو ونلكوط! (116) والترفاس والسرمق (117) والرجلة (118) ....

ومن الثمار البرية : زريعة الخردل (119)، والكرز البحري (120) والنبق (121) ، والزفزوف (العناب)، كان يجنى بكثرة في مكناس - مثلا - فيؤكل يابسا في الشتاء ، وتحمل منه كمية طيبة إلى فاس (122) ، وقلب الدوم وقلب النخيل وثمارها من " الغاز " والبلح(123) ، وتوت الزروب (124) ....

ومن فواكه الأشجار وثمارها : أبطار وهو تمر العرعر (125) وثمر شجر الأربوز(القطلب) (126) والبلوط ، الذي اعتاد أعراب غابة المعمورة " أن يحملوا منه كميات عظيمة على جمالهم إلى فاس ويحققوا بذلك الربح الوفير " (127) ، والخروب (128) والتغزاز (129) والبطم (130) . لكن يبدو أن شجرة الأركان كانت أكثر أهمية من كل هذه الأنواع ، نظرا لاستخراج الزيت منها ولفائدة قشورها كعلف للماشية (131)...

وعلى أية حال ، فان هناك أنواع أخرى كثيرة من النباتات والفواكه البرية والثمار ، لازالت عادة قطفها أوجمعها وبيعها واستهلاكها إلى اليوم ، ويصعب تحديد كثير منها بالإسم لاسيما إذا كانت " تعيش" في أكثر من نطاق مناخي ، إذ يصبح لها أكثر من إسم محلي (132)....

مهما يكن من أمر ، فان الأهم ليس هي كثرة هذه الأقوات، منتجة أم برية ، في مواسمها وزمن وفرتها ، ولكن في الحرص عليها وتخزينها ليوم ذي مسغبة .

ج - تخزين وادخار :

عرف عن المغاربة حرصهم على تخزين المؤن والأغذية وحفظها وادخارها ، ليس فقط لاستهلاكها لمدة أطول في غير مواسمها ، ضمانا لتنوع الغذاء ، وإنما وبدرجة أهم حكمة وتدبيرا واحتياطا وتحسبا لزمن يعز فيه القوت ويندر . وما أكثر ما حصل هذا في تاريخ المغرب إجمالا ، بل ما أقساه ! لذلك كانت مسألة التخزين - خاصة تخزين الحبوب - هاجس الجميع : مخزنا وزوايا، وقبائل وجماعات وأسر وأفرادا ، مستقرين أم رحلا ، منتجين أم مستهلكين ، فلا غرو إذن إذا كان من النادر جدا أن تجد - خاصة من بين سكان المدن - من كان يقدم على بيع حبوبه ، مثل سكان فاس (133). وتولد عن الاهتمام بالتخزين تعدد في الطرق والوسائل والمواد المستعملة (134) ، وترسخت تقاليد وأعراف ، وانتظمت مهن (135). لكن أي المواد أنجع للتخزين ؟

في هذا الصدد ، ينصح أحد طلبة سوس من أهل القرن 11هـ /17م بضرورة خزن كل الأنواع ، من إدام وحبوب وجلبان ولفت مجفف وأركان وخروب ، وكل أنواع الزريعة و(التبن) ... بل وينصح بعدم تسليف القمح قطعا ، وإذا خيف تلفه ، لابأس من مبادلته بالخروب أو الجلبان أو بالإدام ... أي بما لا يخشى عليه من التلف (136).

وعلى أي ، فيظهر أن الحبوب والقطاني وبعض أنواع التمور (137) كانت أكثر وأهم ما يخزن ، ولمدد طويلة أحيانا ، لأنها أساس التغذية ، ولأنها أقل عرضة للتلف ، ولأن خزنها لايحتاج إلى كثير معالجة ، كما هو الحال بالنسبة لمواد أخرى كاللحوم والأسماك والخضروات والبقول والفواكه والثمار ، وغير ذلك مما لابد من معالجته قبل حفظه وتعهده ولذلك طرق ووسائل . ومع ذلك، فإنه بفضل التمليح والتجفيف أمكن حفظ لحوم الجمال والأبقار والأغنام (القديد (138)) ولحوم الكلاب والذئاب(139) ولحوم الأسماك ، بحرية ونهرية (140)...

وسادت عملية تجفيف الخضر كالباذنجان واللفت والجزر (141) ، وربما عرفت أيضا عملية حفظ بعض الفواكه وادخارها طرية كالتفاح والرمان (142) ، والثمار الجافة كالقسطل والجلوز والجوز واللوز (143) مثلما عرفت عملية ادخار الخروب ، وعمليات تجفيف العنب والتين واستخراج الدقيق منه (144) ، وتجفيف الخوخ (145) ، والبلوط واستخراج الدقيق منه (146)، وتصبير الزيتون (147).... وكان معروفا من قديم وإلى اليوم عملية "القصيل" أي تجفيف سيقان القمح والشعير ، خاصة في واحة فكيك (148) ، مثلما كان معروفا من قديم أيضا تجفيف أوراق الأشجار والنباتات البرية (150)...

إذن ، وبعد هذا الجرد لهذه المجموعة من أنواع الأقوات ، منتجة أم برية ، وبعد تناول بعض ما كان يخزن منها وطرق ذلك ، يبقى أن نعرض لأدوارها في تغذية السكان ، سواء في ظروف العافية أم في ظروف الشدة والأزمة .

التغذية زمن العافية وزمن الأزمة :

أ - التغذية زمن العافية : خريطة لأوسع الأطعمة انتشارا :

هل يمكن وضع خريطة عامة لأساس التغذية والأطعمة في المغرب الحديث من خلال كل ما تقدم ؟

الواقع أنه باستثناء رعاة الإبل في قفار الصحراء حيث الاعتماد أساسا على تغذية من أصل حيواني ، وباستثناء المجتمعات الواحية ، حيث التمر أساس كل تغذية (151) ، وباستثناء زهاد الغابات والفلوات المعتمدين أساسا على القطف والجني والوحش ، فإن أساس التغذية بالنسبة لسكان معظم الجهات الأخرى إنما يرتكز على العجائن ، سواء من دقيق الحبوب أو القطاني أو الفواكه أو من ثمار البراري ، ومن عجم الفواكه والثمار أو من خليط من بعض منها (152).

وتحضر هذه العجائن عادة بالشي كالخبز والفطائر ، أو مطهية بالبخار ، مثل " الطعام " أو الكسكسو ، أو مطبوخة كالعصيدة والحريرة والدشيشة والهريسة (153)... أو مقلية كالإسفنج (154) والحلويات (155)... ولاشك في أن العجائن المستخلصة من دقيق القمح الصلب كانت مستحسنة أكثر من غيرها ، كما كانت أساس غذاء الفئات الميسورة ، لاسيما في الحواضر (156) ، فيما سادت عجائن المواد الأخرى بين باقي الشرائح ، غالبا بحسب مناطق إنتاجها .

ويبدو أن الخبز كان أكثر ما يستهلك ، وكذلك العصيدة وما شابه ذلك ... وكان الخبز يصنع من دقيق القمح أو الشعير أو الذرة أو الدخن ، أو من خليط من دقيق الشعير والذرة (157) ، أو من دقيق الذرة أو الدخن وبذور العنب مطحونة (158) ، أو من خليط دقيق الشعير ودقيق البلوط (159) ، أو من مزيج بين دقيق الشعير وحبوب بعض الفواكه البرية (160) أو من دقيق فواكه مجففة كالتين (161)، أو من دقيق فواكه برية ، كأبطار (162) ، أو من أوراق الأشجار والنباتات والأعشاب (163).

وأفضل كسكسو ما كان كذلك من سميد البر الخالص ، فقد كان مستساغا بكثرة ، حتى أن السفير المغربي عبد الله بن عيشة لم ينس أن يحمله معه إلى فرنسا في عام 1699م (164)...

إنما يمكن القول ، إن الكسكسو كان في الغالب طعام الفقراء والعامة ، لما يبدو من أنه يكلف قليلا ويشبع كثيرا . لهذا كان أكثر وأهم ما يقدم للمريدين والزوار في معظم الزوايا ولا نغالي إذا قلنا أن الطمع في لقيمات منه هو الذي شكل مناسبة لتحول عبد الله الغزواني (ت . 935 هـ - 1529م) من مجرد طالب ، بمدرسة الوادي بفاس ، إلى واحد من أشهر أقطاب الطريقة الجزولية الشاذلية بالمغرب . ذلك أنه كانت تجتاز بباب هذه المدرسة عشية كل يوم خميس جماعة من الفقراء ، " فتساءل الطلبة فيما بينهم إلى أين يجتازون ، قال بعضهم لزاوية قريبة منا ، فقالوا : هل لكم في المبيت معهم فنتفرج في حضرتهم إلى السماع ونشبع من الكسكسو عندهم " (165)، فساروا ومن جملتهم الغزواني ، الذي سقط في شرك هذه الزاوية ، حتى " أنه (بعد الذكر) غسل أيدي الفقراء بعد الطعام وشرب الماء الذي غسلوا فيه أيديهم " (166) ،وقص على شيخ الزاوية - علي صالح الأندلسي - قصته وطلب منه أن يقبله مريدا ، فكان من أمره ما كان (167).

وعلى أي ، فإن أشهى كسكسو ما زين بخضر أو بغيرها ، وألذه ما علاه لحم ، لما عرف عن كثرة رغبة المغاربة فيه وعن كثرة استهلاكه ومشتقاته ، سيما وأن السكان كانوا في معظمهم مربي ماشية وأنعام . لهذا لاعجب إذا قرأنا مثلا أن في زاوية الشيخ عبد الله الكوش (ت . 960هـ / 52 - 1553م) بمراكش " كان كل واحدة من قدور مطبختـه الكبرى ، يطبخ فيها

الثوران في مرة واحدة ، ويذبح في كل يوم البقر والغنم والإبل ، وعنده بساط واسع مجصص يبرد فيه الكسكسو بالألواح كما يفعل بصابة الزرع عند التذرية والتصفية " (168).

وشبيها بهذا ، فقد بلغ أن عبد الله بن حسين (ت. 976هـ / 1569م) ، صاحب زاوية تامصلوحت ، " ذبح ... يوما بين يوم وليلة سبعمائة شاة من الغنم ومائتين من البقر ونحو عشرين من الإبل ، ومطابخ الطعام شيء لايقدر على وصفه وقد هيأوا للطعام أحواضا عظيمة ..." (169). وكذلك فإن محمدا بن أبي بكر الدلائي (ت . 1046هـ / 36 - 1637م) " كانت له برمة معدة لطعام المساكين ، لها قيم يخصها ، أقل ما قيل إنها تسع من اللحم بقرة أو ثورا ، والكسكاس الذي يوضع عليها يسع أكثر من وسق ، ويلقى تحتها في الدفعة الواحدة من الحطب قدر حمل الدابة ، والجفنة التي كان يجعل لهم الطعام فيها تكفي المئين من الناس ... ولكثرة ما يصنعون من الطعام كانوا لا يعالجون تبريد ما يحتاج إليه كالكسكس بالأيدي ، لعجزها عن تبريده ، بل بالألواح التي يذرى بها الزرع عند الدرس "(170).

ولاغرابة في ما قد يبدو من إسراف في الإنفاق والإطعام ، خاصة إذا علمنا كثرة من كانت تؤويهم أو تستقبلهم وتطعمهم هذه المؤسسات ، خصوصا في المواسم . فإذا كان الشيخ محمد بن مسعود النظيفي (ت. 1012هـ /03-1604م) إنما " ترده المائة والمائتان فيطعمهم جميعا طعاما مادوما حتى يشبعوا "(171)، والشيخ جابر بن مخلوف الرياحي (ت. 1003هـ /94-1595م) كان " يبيت عنده ستمائة من الناس وأكثر فيكفيهم طعامه ويفضل عنهم "(172). فإن الشيخ عبد الله بن حسين استقبل يوما اثني عشر ألف ونيف وخمسمائة (173) ، وإن الشيخ علي بن عبد الرحمان الدراوي (ت. 1091هـ / 1680م) "بات عنده ليلة سبعة عشر ألفا " (174) .أما الشيخ إبراهيم بن أحمد بن عبد الله بن حسين(ت. 1072هـ /61 - 1662م) فقد " اجتمع عنده في بعض الأيام ثلاثون ألفا من الرجال وتسع آلاف من النساء"(175)، وأما الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي ، السابق ذكره ، فقد ورد أنه كان يطعم في سنة غلاء سبعة آلاف فقير كل يوم ، وأنه أطعم في يوم واحد بسابع المولد النبوي من سكان زاويته وغيرهم من الوافدين لحضور الموسم ، سبعين ألفا (176).

لكن ، وبعيدا عن هذا الكرم الحاتمي ، كيف كان عادة طعام عامة الناس في أي جهة كانوا ؟

بالنسبة للمجتمع الحضري ، إذا نحن اقتنعنا بما ذكره الوزان عن حاضرة فاس (177) واتخذناها نموذجا ، فإنه يذكر أن من عادة سكانها أن يتناولوا اللحم الطري مرتين في الأسبوع ، لكن الأعيان يأكلونه مرتين في اليوم ، حسب شهيتهم ، وإنهم (عامة الناس) يتناولون ثلاث وجبات في اليوم ، هي كالتالي :

صباحا : وجبة خفيفة مركبة من خبز وفواكه وحساء من دقيق القمح (حريرة أو عصيدة على ما يبدو). ويأخذون في الشتاء بدل الحساء رغيفا من حنطة محشو بلحم مملح ينضج معه .

ظهرا : أكلة خفيفة مركبة من خبز وسلاطة وجبن وزيتون . وتكون الوجبة أكثر تغذية في الصيف .

مساء : أكلة خفيفة مركبة من خبز مع بطيخ أو عنب أو لبن. وفي الشتاء: كسكسو مدهون بسمن ومعه لحم

وبالنسبة لتغذية أهل سلسلة الأطلس وما والاها ، فنمثل لهم بنموذج غذاء أهل حاحا ، كما ورد ذلك عند الوزان أيضا . وغذاؤهم كالتالي (178) :
صباحا : خبز شعير وحريرة .
ظهرا : خبز شعير وعسل في الشتاء ، ولبن وزبدة في الصيف . ويؤكل كذلك اللحم مطبوخا بالبصل والفول والكسكسو ، إنما غالبا ما يكون اللحم لتيس مسن (179) .
مساء : يتركب العشاء العادي من : عصيدة من دقيق الشعير في الخريف والشتاء ، تغلى بالماء ويصب في وسطها زيت الهركان ، وتؤكل بالأصابع . لكنها في الربيع والصيف تصبح أكثر فائدة ، إذ يطبخ الدقيق في اللبن بدل الماء ، ويدهن بالزبدة .ويعتمد هذا النوع من العصيدة من بلاد حاحا إلى بلاد دادس .

وبالنسبة لسكان سلسلة الريف ، فمعظم طعامهم : خبز دقيق الشعير أو الدخن أو مزيج منهما ، أو مزيج من دقيق الدخن وبذور العنب ، ومن الدبس المصنوع من العنب المطبوخ وحساء الفول ، والأسماك والسردين المملح ، والبصل ، وأحيانا لحوم عنزات مسنة ، وفواكه كالعنب طريا وزبيبا ، والتين طريا ومجففا ، والبرتقال والليمون والزيتون ، وكثير من الخمر ....(180)

هذه إذن بعض أنواع الأطعمة التي كانت سائدة في المغرب الحديث وجهاتها ، والتي كانت تدعم كذلك بنسبة كبيرة من خلال انتشار ظاهرة الجني والقطف والصيد والقنص ، التي تولد عنها جميعها ذلك الموروث من كيفية التعامل مع المجال ومن طرق الاستفادة منه كصنع الأطعمة مما كانت تجود به الطبيعة من نباتات وأعشاب وفواكه وثمار ، ووحش وزواحف وطيور ، طرية أم مجففة ... إنما هذا في زمن العافية ، فما تكون عليه الحالة زمن الإزم ؟

ب - التغذية زمن الإزم :

- أسباب الإزم الغذائية في المغرب الحديث :

هناك عدة أسباب وعوامل للإزم الغذائية في تاريخ المغرب عموما ، وهي متنوعة ومتداخلة ومعقدة ، إلا أنه يمكن تحديد أسبابها المباشرة في ما يلي :

- **كثرة السيول والأمطار** : إذ كثيرا ما كانت هذه الظاهرة تعرقل عمليات الحرث أو تتلف المحاصيل والغلات، خاصة في الفترة ما بين منتصف القرن 16م ومنتصف القرن19م المعروفة بـ " العصر الجليدي الصغير"(181) ، والتي سادها نزوع نسبي للمناخ نحو البرودة مع كثرة التساقطات . لذا لاعجب إن كانت بعض السنوات في المغرب ، مثل سنة 1092هـ /81 - 1682م " كثيرة المطر الغزير والغلاء والوباء " (182) ومثل عام 1152هـ /39-1740 م ، الذي كان كثير المطر " حتى إن بعض أهل الغرب لم يحصدوا في المصيف مما زرعوا في الحرث شيئا قليلا ولا كثيرا ، لأنه فسد منكثرة المطر " . (183).

- **القحط والجفاف** : كانت الإزم الغذائية الناجمة عن هذه الظاهرة الأخطر من نوعها في تاريخ المغرب عموما ، وقل ما يخلو عقد من الزمن منها تقريبا (184).

- **الأوبئة** : وتكمن خطورتها في كونها تجعل الناس غير قادرين على جمع المحاصيل ، مثلما حدث في عام 898 هـ /92 - 1493م من وباء بأحواز فاس ، أودى بحياة حوالي عشرين

ألف ضحية (185) ، مما أدى إلى نقص خطير في اليد العاملة ، ترتب عنها مجاعة خطيرة رغم أن الإنتاج كان وفيرا (186).

- **الجراد والفئران والجرذان :** كثيرا ما تسبب الجراد في إزم غذائية خطيرة ، لاسيما عندما كان يأتي بأسراب كثيرة جدا ، لذلك كان " حيثما مر الجراد ترك مجاعة كبيرة " (187). وقد زار الجراد بعض جهات المغرب أربع مرات على الأقل في القرن 16م(188). أما في القرنين التاليين فلم تسجل إلا حوالي حالتين في كل قرن (189)، وذلك لغلبة الرطوبة فيهما على ما يبدو

وفيما يخص الفئران والجرذان ، فإن دورها في حدوث إزم غذائية يبدو منحصرا في سنوات قليلة جدا حسب شهادات المصادر ، وأخطرها ما سجل في عام 1153هـ /40-1741م من " ظهور نقمة الفأر ، سلطه الله على الزرع والبحائر والذرة والرمان ، فكان يظهر منه في الفدادين ، فكان يترك الأندر الذي يخرص بمائة وسق لايأخذ منه ربه شيئا لا قليلا ولا كثيرا ، وكذلك في فدادين الفول والبحائر وفدادين الذرة والأجنات العجب العجاب ، وكثرت إذايته حتى أعيا الناس بكل حيلة ، فبدأ يأكل السنبل في الفدادين ، وهو قائم في الأنادر ، وهو محصود ، وأشجار الأعناب والتين والخوخ والرمان وغير ذلك . والحاصل أن كل ما ينتفع به من جميع أنواع الخضر الربيعية والصيفية والخريفية والزروع والثمار كان يأكله ، ولم يسلم منه ولا من نقمته إلا القليل النادر "(190).

- **الأحداث العسكرية والاضطرابات :** يبدو أن العصر الحديث كان أكثر العصور عنفا ودموية في تاريخ المغرب (191) لذلك تعددت المآسي والإزم الغذائية ، خاصة في المدن والحواضر ، بفعل الحصار ، فلاعجب إذا كانت مصادر هذه الفترة كثيرا ما تربط بين الحصار والغلاء أو المجاعة ، كما حدث عام 1076هـ /65-1666م " عام اشتداد الغلاء بحصار مولاي رشيد على فاس " (192).

إنما كثيرا ما كانت هذه الأسباب تتزامن كلها أو بعضها ، ولكن قلما كانت عامة بحيث تصيب كل أنحاء البلاد في وقت واحد .

- **التعبير عن الإزم الغذائية في الذاكرة والمصادر المغربية :**

لاشك في أن الإزم الغذائية ، الخطيرة على وجه الخصوص ، كانت تخلف في كل مرة خدوشا في الذاكرة الجماعية ، ليس أقل من أنها تصبح تاريخا في الناس ، يؤرخون به لأحداثهم وحوادثهم ، ويتذكرونها ويعينونها ويرمزون إليها من خلالها . وقد عبر المغاربة عن هذه الإزم بأساليب مختلفة وبانفعالات وبنعوت وأوصاف مقتضبة ودالة ، لاتخلو في كثير من الأحيان من طرافة وحضور بديهة ... حفظت المصادرمجموعة منها .

فقد تم التعبير عن بعض هذه الإزم باللفظ الصريح ، الذي لايحتاج إلى أي تأويل ، فسنة 927هـ (20-1521م) هي سنة " الجوع الكبير" (193) ، وسنة 1150هـ (37-1738م) سنة " المسغبة العظيمة والمجاعة الكبيرة " (194) ... في حين نعتت بعض الإزم بنوع الظواهر المترتبة عنها أو المتزامنة معها : طبيعية أو تقنية ، أو اقتصادية أو غذائية ، أو اجتماعية أو عسكرية ... وهكذا نجد لبعض أعوام الأزمة نعوتا مثل : "عام اليبسة " (195) و"عام السواقي " (196) وعام "الغلاء الكبير "(197) و"عام خمس أواقي " (198) و"عام البقول"(199) و"عام الخبيزي " أو "عام يرني "(200) و"عام خيزو" المعروف أيضا بـ "عام الصندوق"(201) و"عام اللوبية "(202) و"عام كروم الحاج" (203) إلى غير ذلك .

بل لقد ذهب الناس إلى حد وضع ألقاب لزعماء وسلاطين ، كناية عما ساد في عهدهم من جدب أو غيره ، كما فعل أهل فاس وغيرهم من تلقيب السلطان المولى محمد بن عربية بـ " سيدي محمد الكايلا " ، كناية عن رفع الأمطار وارتفاع الأسعار وانتشار الجوع في عهده (من جمادي الثانية 1149هـ إلى صفر 1151هـ / أكتوبر 1736 - يونيه 1738م) (204).

لكن هل تقدم هذه الأوصاف والنعوت نماذج من بعض ما كان الناس يقتاتون به زمن هذه الإزم ! ؟

غذاء الأزمة وأزمة الغذاء بين السلوكات والوقائع :

يمكن القول إن الإزم الغذائية في تاريخ المغرب الحديث ، كانت تفرض سلوكات وطرقا لمواجهتها ، تتدرج في الحدة ، بحسب قصر أو طول أمدها ، وبحسب حجم فداحتها ذلك أن سنة سيئة المحاصيل - حسب بعض الباحثين (205) - قلما كانت تؤدي إلى مجاعة مميتة أو إلى نفاد الاحتياطي من المؤن ، وأن كل ما كان يترتب عنها عادة : وقوع غلاء ومضاربات . أما إذا توالت سنتان سيئتان ، فتلك لاريب هي المجاعة ، وقد تصاحبها أوبئة وأما إذا توالت ثلاث سنوات سيئة أو أكثر ، فتلك لامحالة هي الكارثة ، إذ تنفد المؤن وترتفع الأسعار ويكثر الموت ، ويعم الخوف ويسود العنف ... ، وقد عرف المغرب من مثل هذه المجاعات الخطيرة ، على الأقل ، واحدة في القرن 16م ، وخمس مجاعات في القرن 17م ، وثلاث مجاعات في القرن 18م(206) ، هذا ناهيك عما كان منها أقصر مدة وأقل فداحة (207).

إن هذه الإزم عادة ماتبدأ بإحساس الناس بالشدة والضيق ، وسيطرة هلوسة الترقب والأمل في نزول المطر ، إذ يلجأ الناس إلى الإكثار من الصوم ، خاصة اليهود (208) ، والإكثار من صلوات الاستسقاء(209) ، بل واستعمال القوة أحيانا ضد بعض الأولياء أو أتباعهم من اجل الاستمطار ، كما حدث لجماعة من آيت عتاب عندما خرجوا مرة لزيارة شيخهم محمد الدادسي الووزغتي (ت.1062هـ /51-1652م) " فتعرض لهم قومهم ، وقد احتاجوا للمطر ، وقالوا لهم : والله إن لم تأتونا بالمطر ، أي تطلبونه فينزل علينا على يد شيخكم ، لضربناكم بالحجر ..." (210)...

لكن كيف كانت تواجه مشكلة القوت ! ؟

الواقع أن هناك حالات متفاوتة في المعاناة والتحدي : فهذا محمد بن أحمد التمنارتي (ت. 1007هـ / 98-1599) "سافر مرة فترك أولاده بلاشيء في عام جدب ، فكانت له بنية صغيرة تأتي بيت التبن فتستخرج منه كل يوم كفايتهم " (211).

وهذه فاطمة الشقوري (ق.11هـ /17م) توفي زوجها وترك لها صبية وطفلين ألزمتهما القراءة رغم " الغلاء المفضي إلى قتل الناس أولادهم للاستراحة منهم حيث لا يجدون ما يقومون به ..." ومع ذلك اجتازت وأولادها تلك الأزمة بفضل خبزة واحدة في اليوم ، كانت تصنعها من دقيق قمح وشعير ثم ترويها في زير زيت كان عندها قبل المجاعة ، وبفضل نبق كان عندها ، " كانت تعطي لكل واحد حفنة أول النهار فكان يظهر عليهم الشبع وحمرة اللون ... حتى يظن الظان أنهم ممن يتمتعون في الأكل غاية التمتع "(212) وكان ثمن الدقيق يتحصل لها من كتان تنسجه فيبيعه لها خالها .

ومن بين هذه الحالات ، يمكن أن نستحضر كذلك مساعدة الأغنياء للفقراء (213) ، وإطعام الأولياء وأرباب الزوايا الجياع (214) ، وتململ المخزن - أحيانا - للتخفيف من ضيق الرعية ، ولو في نطاق العواصم (215) ... إلا أن هذه تبقى غالبا حالات ومبادرات محدودة ومعزولة ، خاصة عندما كانت الإزم تبلغ حالة الهستيريا الجماعية ، حين تفقد المؤن بالمرة تقريبا ، فتكثر ظاهرة الفرار عن الولد (216) ، وقتل الأطفال والانتحار(217) ، وبيع الأهل والأقارب لاسيما للنصارى (218)...

ففي هذه الظروف المطبوعة باليأس ، تظهر سلوكات وأنماط غذائية جماعية ، تتحول فيها ظاهرة الجني والقطف من البراري والأحراش من حالة اختيار - قبل الأزمة - إلى حالة اضطرار ، كما في تلك السنوات الموسومة في المصادر ، بأنواع من تلك النباتات والأعشاب التي أشرنا إليها قبل قليل ، والتي تصبح أساس التغذية ، كما في مجاعة 58-1062هـ /48-1652م التي اعتمد الناس فيها " على أكل تالكوهت وإيرني حتى صار لايوجد في الأسواق إلا هو ، وكان مأكلهم سنتين"(219) ، وكما في حالات أخرى مشابهة (220).

بل إنه في إزم كهاته ، كثيرا ما كان تهافت الجياع على النباتات والأعشاب بأفواج كثيرة وقطعهم من أجلها المسافات الطويلة ، أملا في الاستئثار بحزم منها أو حفن من الثمار البرية يعتبر منظرا عاديا ، كما في مجاعة 1072هـ /1661م ، حين كان يتقاطر أهل الشمال على بلاد ما وراء جبال الأطلس ، إذ " لم يكن لهم في أمد تلك المدة معيشة إلا الربيع إلا من كان منهم بخير يصنع لأولاده الصغار حساء ويأكل هو وباقي أهل داره الربيع فترى القوافل إلى الربيع في كل يوم غادية رائحة ... إلى بلاد زيز وجرسلوين ... فيمتارون منه أنواعا من الربيع لايقتصرون على نوع واحد منه فيطبخون تلك الأنواع جميعا في قدر واحد حتى تطيب فيعصرونه من الماء فيجعلون له شيئا من الملح ... وبه صاموا رمضان أجمع "(221).

وكذلك ذكر أن اهل قرى تزرفت " شمروا غاية التشمير إلى دخار (كذا) أبطار (تمر العرعر) فكانوا يأخذون ما بأطراف دشورهم حتى فرغ طفقوا يوجهون إليه القوافل إلى المواطن البعيدة كسف جمر وأبعد منه فمنهم ذو صحفة وذو أقل وذو صحاف عديدة كل بحسب وسعه وطاقته سهل الله علينا هذا الرزق وكفانا منه كل حرج وضيق "(222). وقد ورد أن أبطار كان يساوي في سجلماسة ست موزونات وأكثار أكثر من ذلك (223).

هذا ولم تتوقف هذه الهجرة إلى حيث العشب وغيره إلا لما أمطر الشمال ، آنذاك ركنت القبائل إلى مواطنها ، مثل " دشور ملوية فملوية لما أمطرت صارت كلها مرتعا فليس يلحقهم في جلب الربيع كبير كلفة وكذلك بلاد زيز وجرسلوين" (224). بل لقد بدأت هجرة مضادة من الجنوب إلى الشمال ، إذ " رجع من بلاد الصحراء ... كل من فر إليها هاربا منها كما هرب إليها فكيف لا وقد سمعوا بخصب بلاد الغرب وأزغار وتادلا وهرب منها أيضا كثير من بواديها "(225).

والطريف أنه في بعض هذه الإزم كثيرا ما كانت تنتشر ظواهر لاتخلو من غرابة، كإقدام البعض على بيع حبوبه والالتحاق بالآخرين لجمع النباتات ، كما حدث في هذه الأزمة ذاتها بوادي بني يازغة ، " فقد أعان الجوع في أهله الحرص حتى أن من كان عنده من أهله زرع

تركه للبيع وأكل الربيع فكان يحكى... عن واحد منهم أن عندهماية وسق قمحا فتركها للبيع وأكل الربيع فمات من أكل الربيع وتركها وراءه "(226).

فهل يكون الخوف من تربص الجياع وأذاهم من وراء ذلك ! ؟

والواقع أن الناس كانوا يأكلون كل ما كانت تصل إليه أيديهم من " نخالة الشعير وقشور الفول وعجم النبق وعجم التمر وعجم تاسلغوا ... والفيتور ..." كما حدث في مجاعة 1150هـ /37-1738م بفاس (227).

إذن وبعد هذا ، هل يبقى مجال لذكر دواجن أو حيوانات أليفة من كلاب أو قطط أو دواب أو غيرها

في هذا الصدد ، ذكر أحد أبناء قرى آيت عياش بشأن مجاعة عام 1072هـ /1662م أنه "انعدم الدجاج منها بالأصالة حتى لايرى فيها ديك ولا دجاجة كما انعدمت وسقطت بالكلية من قريتنا أيضا بل قد سقطت منها أيضا القطوط بحيث لاتسمع فيها لاصياح ديك ولاماو قط " (228).وكذلك " أكلت في مدينة فاس..لحوم الحمر الأنيسة توزن وزنا جهارا لا خفية "(229)، وسجل أكل الخنازير في مناسبات أخرى (230).

بل لقد سجل أكل الجيف ، بل أكل الإنسان جهارا مرارا ميتا وحيا ، حتى أن النصوص حول هذه المجاعات تبدو متشابهة إن لم تكن متطابقة . ففي مجاعة 1662م " أكل الموتى والجيف وذبح الأطفال "(231). وكذلك في العامين بعدها " أكل الناس ... الجيف والدواب والآدمي"(232) . "أكل فيه ... بوسط الصفارين ميتا"(233). وكذلك الشأن في مجاعة 37-1738م فقد أكلت النساء والصبيان من شدة الجوع ورجمت امرأتان بسبب ذلك وقتلت امرأتان بالدوح بسبب ذلك "(234) ، وهذا فقط بالنسبة لمن ضبطوا ، أما من لم يضبطوا فكثيرون ، لأنه حسب النصوص " أكل الآدمي غير ما مرة خفية " و"أكلت الميتة جهارا "(235) ، بل و"أكل بعض الناس ولدا من أولاد التازي (236).

إنها حقا لصور رهيبة ! تحيي تلك الطبائع البدائية الدفينة في الإنسان ، لكن هل تعتبر هذه المشاهد حالات استثنائية ، مرتبطة بالظروف التي أوجدتها تحت غطاء : " الضرورات تبيح المحظورات " أم أنها كانت واقعا حتى خارج ذلك ؟(237) .

بهذا التساؤل نستوفي هذا العمل ، وحاصله أن المغرب رغم ما كان له من إمكانات ومن تنوع في مصادر الأغذية والأقوات ، فإن طبيعة الإزم التي عرضنا لبعضها هنا ، تؤكد بوضوح مدى هشاشة بنياته ومؤسساته بصفة عامة ، وهذا موضوع نأمل أن ينكب عليه بعناية وبدقة أكثر .

هوامش وإحالات :

*) - ألقي هذا المقال مداخلة في اليوم الدراسي الذي نظمته " مجموعة البحث في الديمغرافيا التاريخية " في موضوع : " التغذية والأزمة في تاريخ بلاد المغرب والأندلس " بكلية الأداب بوجدة ، يوم 1997/11/26 . وحصرنا الموضوع على الفترة مابين القرنين 15م و18م دون القرن 19م ، نظرا لتغير كثير من عادات المغاربة خلال هذا القرن الأخير ، بما فيها العادات الغذائية ، وفي ذلك قال أحمد الناصري : " واعلم أن أحوال هذا الجيل الذي نحن فيه قد باينت أحوال الجيل الذي قبله غاية التباين ، وانعكست عوائد الناس فيه غاية الانعكاس ، وانقلبت أطوار أهل التجارة وغيرها من الحرف في جميع متصرفاتهم ، لا في سككهم ولا في أسعارهم ولا في سائر نفقاتهم ، بحيث ضاقت وجوه الأسباب على الناس وصعب عليهم سبل جلب الرزق

والمعاش حتى لو نظرنا في حال الجيل الذي قبلنا وحال جيلنا الذي نحن فيه وقايسنا بينهما لوجدناهما كالمتضادين ، والسبب الأعظم في ذلك ملابسة الافرنج وغيرهم من أهل الأربا للناس وكثرة مخالطتهم لهم وانتشارهم في الآفاق الإسلامية ، فغلبت أحوالهم وعوائدهم على عوائد الجيل وجذبته إليها جذبة قوية". ، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (9أجزاء) ، دار الكتاب الدار البيضاء 1956 ، 9 : 207 - 208.

1) - G. REYRE : Maîtres et esclaves . 2e éd ., Gallimard, 1952, p.190.

2) - ibid . pp. 190-191 وشمل هذا التأثير مجموعة من الميادين الأخرى كالتقنيات والأدوات الزراعية .

ibid. pp. 180-181...

**) ساكن البادية من الأعراب.

***) ساكن درعة ، ويطلق اللفظ خاصة على ذوي اللون الأسمر منهم .

****) مصطلح بربري محلي لصنف من الذرة .

3) - الحسن اليوسي (ت. 1102هـ / 1691م) ، المحاضرات . تحقيق : محمد حجي ، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر ، الرباط 1976، ص :82.

4) - محمد بن عسكر (ت. 986هـ /1578م) : دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر . تحقيق : محمد حجي ، دار المغرب ، الرباط ، 1976 ، ص : 108. ومحمد المهدي الفاسي (ت. 1109هـ / 1698م) ، ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع وما لهما من الأتباع . ط.ح. ، فاس ، د.ت. م 12 ص ص : 4 - 5 .

5) - محمد بن الطيب القادري (ت. 1187هـ / 1773م) نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني (4 أجزاء) ، تحقيق : محمد حجي واحمد التوفيق ، دار المغرب ، الرباط ،ج 1 ، 1977 ، ص : 168.

6) - اليوسي ، م.س ، ص : 82.

7) - Anonyme portugais : Une description du Maroc sous le règne de Moulay Ahmed MANSOUR,d'après un manuscrit de la bibliothèque nationale(1596). trad. de H.de CASTRIES, Paris, 1909, p.139.

8) - أبو عبيد الله البكري (ت. 487هـ /1094م) : المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب . قسم :" وصف افريقيا الشمالية " تصحيح : دوسلان ، مكتبة أميركا والشرق ، باريس 1965 ، ص : 164.

9) - V.M. GODINHO . " Les guerres du blé. Mainmise portugaise et ascension chérifienne", Institut de M.R. Madrid, mars 1987. p. 230.

وتحدث الحسن الوزان كثيرا عن غنى منطقة أزغار ، وذكر أنها تمد جبال غمارة وفاس بالطعام والماشية والخيل ، وأنها تتوفر على كمية هائلة من الغزلان والأرانب ...، وصف افريقيا . ترجمة عن الفرنسية : محمد حجي ومحمد الأخضر . منشورات ج.م.ت.ت.ن. الرباط ، ج1 ، 1980 ، ص : 233 وما بعدها .

10) - GODINHO, op. cit . p. 237. ، وذكر الوزان أن سهل زرفة بتامسنا يعطي خمسين ضعفا ، وأراضي تازة تنتج 30 ضعفا وكذلك بادية أغمات .م.س. ،1: 163 و276 و107 . وذكر مرمول كربخال أن تامسنا كانت " زهرة بلاد البربر كلها ". افريقيا . ترجمة عن الفرنسية : محمد حجي وآخرون ، ج.م.ت.ت.ن. ، الرباط .ج1 ، 1984 ، ج2 ، 88-1989 ، 2: 126.

11) - يذكر الوزان أن القمح لاينبت في إقليم الريف (م.س. 252 :1) ، كما ناحية بادس (ن.م. 1: 253) ، أما الشعير فإذا كان إنتاجه قليلا في ترغة مثلا (ن.م. 1 : 252) فإنه عكس ذلك وفير في بادس (ن.م.1: 253) وفي جبل بني سعيد (ن.م. 1 : 268) ... ، وتؤكد ذلك أيضا مصادر محمد الحميري (ت. 726هـ/1236م) في العصر الوسيط ، حيث ورد أنه في بسائط بادس " يزرعون بها الشعير مرتين في العام على مياه سائحة ..." الروض المعطار في خبر الأقطار . تحقيق : إحسان عباس ، مكتبة لبنان ، بيروت 1975 ، ص : 75 وأنظر أيضا البكري ، م.س. ص : 74.

(12) - مثلا يذكر الوزان أن الشعير يزرع في قمة جبل نفيفة " فينمو بكثرة رغم أن الثلج كثيرا ما يتساقط هناك " (م.س. 1 : 109) وأن حقوله تكثر على حدور جبل كدميوة(ن.م. 1 : 112) ، وأن جميع التلال المحدقة بمدينة الجمعة بهسكورة " مكسوة بحقول الشعير ..." ، (ن.م. 1 : 133)...

13) - يذكر الوزان مثلا أن تشيت بنوميديا يوجد حولها مساحة صغيرة " يزرع فيها شعير ودخن يسد بهما المساكين رمقهم ". ج2 ، الرباط 1982 ، ص : 155 . وإن الشرائط الضيقة الصغيرة الواقعة على حافة نهر زيز بإقليم الخنك ، وإن كان عرضها لايبلغ أحيانا مرمى حجر ، فإنها تزرع مع ذلك بالشعير ، (ن.م. 2: 122) ، وأن أهل القرى والقصور الواقعة على نهر درعة ، من بين مايقتاتون به : حساء الشعير (ن.م. 2 : 119) ...وللاطلاع على منتوجات الجنوب المغربي عموما ، ينبغي الرجوع لدراسة الباحثة

J.MEUNIE . Le Maroc saharien des origines à 1670. klincksieck, Paris , 2tomes, 1982

14) - ذكر دي كويش أن مجموعة من قبائل دكالة فرض عليها البرتغاليون في مطلع القرن 16م دفع ألف حمل جمل من الحبوب لكل منها ، نصفها قمحا ونصفها شعيرا ، بسعر حملين من الشعير مقابل كل حمل قمح

D. de GOIS, Les Portugais au Maroc de 1495 à 1521. trad. de R. RICARD, Rabat , 1937, p. 75.

وذكر الناصري أن القمح في عصر المولى إسماعيل (1672-1727م) كان يساوي ست أواق للمد والشعير ثلاث أواق .م.س. ، 97:7 . وذكر محمد بن الطيب القادري أنه في أواسط رمضان 1150هـ / أواخر 1737م نزل سعر القمح جيده 60 مثقالا ووسطه 50 مثقالا قديمة ، والشعير 40 مثقالا إلى 30 مثقالا ، والذرة 35 مثقالا . حوليات نشر المثاني .(قطعة من نشر المثاني) ، نشر : نورمان سيكار ، المعهد الجامعي للبحث العلمي ، الرباط 1978 ، ص : 55 الخ ...

15) - B. ROSENBERGER, : Cultures complémentaires et nourritures de substitution au maroc . (XVe-XVIIIe siècles). A.E.S.C., n°3-4, p. 483.

16) - يظهر أن هذين النوعين من الحبوب لم يلعبا دورا كبيرا في تغذية السكان ، ولكنهماكانا مع ذلك أساسيين في مناطق إنتاجهما .

17) - راجع الإحالة الأخيرة في الهامش رقم 14.

18) - ذكر ابن العوام (ت. 145م) في " كتاب الفلاحة" أن الدخن يزرع في مارس والذرة في ماي.

Ibn AWAM / Le livre de l'agriculture. trad. de l'arabe de J.J. CLEMENT MULLET , 2e éd , éd. Bouslama, Tunis, 1977, t.2, 1ere partie , pp. 74-77.

وذكر أحد الأوروبيين أن الذرة البيضاء تنمو خلال أربعين يوما . انظر :

J.W.BLAKE , Europeans in west Africa. trad. de G.B. RAMUSIO,(Navigazionie e viaggi, Venise, 1950), 1942, t.1, p.149. نقلا عن : ROSENBERGER , op cit. p. 486 et notes 62 et 63.

19) - راجع : S.I.H.M., 1ere série , Portugal , t.3, 1948, P.547.

20) - يشير الوزان (م.س.) إلى زراعة الدخن ولو بكميات قليلة في عدة جهات جبلية وشبه جافة ، مثل جبل بني منصور (1 : 256) وجبل بني يوسف (1 : 257) وجبل بني يستيتن (1 : 79-80) وجبل دمنسرة (1 : 88 - 89) وتساوين (1 : 138) ، وتشيت (2 : 115) وإقليم حاحا حيث الذرة والدخن والشعير بكثرة (1 : 75) ...

21) - راجع : ROSENBERGER , op. cit . pp. 487-489.

وكذلك : J.J. HEMARDINQUER, « Les débuts du mais en Méditerranée (premier aperçu) » in: Mélanges en l'honneur de F. BRAUDEL , 1973, pp . 227 - 234.

وأيضا : J. BERQUE , « Antiquités Seksawa » Hespéris , XL, 1953 , p. 405.

22) - هو :"اشنتي " بالبربرية و"الشقالية " بلهجة أهل الشمال ، وحبه كالقمح إلا أنه أصغر حجما .

راجع : ROSENBERGER , op. cit. p. 485 et note n° 57.

23) - لازال الناس الذين عاشوا مجاعة 44 - 1945م المعروفة بـ " عام البون " و"عام الروز" يحكون عن جهلهم بكيفية طهي الأرز الذي كانت توزعه عليهم السلطات الاستعمارية ، إذ كانوا يحضرونه كالكسكسو كما كان شائعا بينهم أنه لاينضج إلا بعد تعرضه للبخار (التفوير) سبع مرات .

24) - " يجلب إليهم من بلاد الافرنج وما لهم نهمه (كذا : نهمة) ؟ في أكله ولا عناية به ..." أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (ت. 749هـ / 1349م) : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار . تحقيق : مصطفى أبو ضيف ، ط 1 ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، 1984 ، ص ص : 126 - 127.

25) - هناك إشارات إلى زراعة الأرز بحوض سوس والجنوب عموما في القرن 16م ، راجع : J. MEUNIE, op. cit . p.376 etc...

وذكر مرمول أن من أسماهم بأولاد مطاع وأولاد أهشة شرق فاس ، كانوا يحملون إلى هذه المدينة القمح والمواشي وكمية من الأرز بقصد التجارة في القرن 16م. م.س. ، 2 : 185. وهذه إشارة وحيدة في الكتاب إلى هذه المادة. ويؤكد من جهته مصدر برتغالي أن بلاد فاس تنتج كمية من الأرز ، وكذلك حول وادي أبي رقراق .Anonyme portgais , op. cit . p. 118 et p. 107

كذلك فإن المصادر تشير إلى بيعه في أسواق فاس خلال مجاعة 1150هـ / 37-1738م . أنظر : الحوليات، م.س. ص :54.

26) - يتأكد ذلك من خلال العثور بوليلي على جرة فول مكلسن يعود تاريخه إلى ما بين القرنين 8 و9م ROSENBERGER , op. cit. p. 489.

27) - الوزان : م. س. 1 : 186.

28) - نفسه ، 1 : 260.

29) - نفسه ، 1 : 76 .

30) - نفسه ، 1 : 201.

31) - G. VAJDA, Recueil de textes judéo-marocains. 1ere partie, Hesperis, 3-4e trim. t.XXXv, 1948, pp.316-317.

32) - محمد الصغير اليفرني (ت. ق.11هـ / 17م) «صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر.ط.ح. ، فاس،د.ت. ، ص : 76 . ونشر المثاني ، م.س. ، 2 : 22 و24.

33) - جاء في نشر المثاني أيضا أن " الحديث ذكره ابن التين في الطب بسنده إلى مكحول عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ص إن نبيا من الأنبياء شكا إلى الله قساوة قلوب قومه ، فأوحى الله إليه وهو في مصلاه أن مر قومك يأكلوا العدس فإنه يرق القلب ويدمع العينين ويذهب الكبر وهو طعام للأبرار . نقله العلقمي في حاشية الجامع الصغير ، وعزا في الجامع الصغير للطبراني عن وائلة بن الأسقع : عليكم بالقرع فإنه يزيد في الدماغ ، وعليكم بالعدس فإنه قدس على لسان سبعين نبيا " ن.م. ، 2 : 24.

34) - راجع الإحالة رقم 33.

35) - ROSENBERGER, op. cit. p. 490.

36) - تاريخ الدولة السعيدة أو تاريخ الضعيف . تحقيق : أحمد العماري ، نشر دار المأثورات ، الرباط1976 ، ص : 155.

37) - مجهول : تحقيق ونشر : هـ . ب. ج. س. كولان ، باريس1934.

38) - أحمد ابن عرضون ، مخ . الخزانة العامة ، الرباط ، رقم ك 1026 ، ص : 8.

39) - أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن بصال ، كتاب القصد والبيان أو كتاب الفلاحة ، نشر : خوسي مارية مياس بييكروسا ومحمد عزيمان ، معهد مولاي الحسن ، تطوان 1955 ، ص : 112.

40) - op. cit . t. 2 , 1 ere partie , pp . 62 - 63.

41) - ROSENBERGER , op. cit . p. 490.

42) - الوزان ، م. س. ، 1 : 116.

43) - ن. م. ، 1 : 146.

44) - ن. م. ، 1 : 91.

45) - ن.م. ، 1 : 156.

46) - ن.م. ، 1 : 227.

47) - ن.م. ، 1 : 218.

48) - ن.م. ، 1 : 185-186.

49) - أنظر ن. م. ، 1 : هنا وهناك ، ومرمول ،م.س. ، 2 : هنا وهناك .
50) - تكثر واحات التمور حول سجلماسة ونهر درعــة ، وحول تدغة وفركلة وسوس ، وحول وادي نون ... ، أنظر : J. MEUNIE, op.cit. p. 375.
51) - الوزان : م. س. ، 2 : 282.
52) - محمد الأنصاري (ت. ق9هـ / 15م) : اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الأخيار.
53) - الوزان : م. س. 1 : 259.
54) - المكان نفسه .
55) - ينضج البطيخ في تامسنا في منتصف أبريل .ن.م. ، 1 : 156.
56) - ن. م. ، 1 : 92.
57) - " ... أعراب الصحراء الذين يأتون كـل سنـــة ليمتـاروا ويحملــوا تمــور سجلمــاسة قصـد استبدالها بالحبوب " ، ن. س ، 1 : 276، كما أن "التجار قد اعتادوا الذهاب من نوميديا عبر الطريق الرابط بين فاس وتافيلالت بأحمال التمر في آخر كل شهر أكتوبر .ن.م. ، 1 : 59.
58) - الأنصاري : م.س. ص ص : 52 - 53.
59) - ن.م. ، ص ص 53 - 55.
60) - كانت مزارع السكر ومراكز تصفيته مزدهرة خاصة في القرن 16م لاسيما فـي سـوس وشيشـاوة ... وما جاورها ... انظر : P. BERTHIER ; Les anciennes sucreries du Maroc. (2t.) Rabat , 1960.
61) - محمد بن أحمد بن غازي العثماني : الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون . الربـاط 1952 ، ص : 3 ، ويذكر الوزان من جهته ، أن حدائق مكناس " تنتــج ثمـارا ممتـازة ، لاسيما السـفرجل وهـو غليظ جدا صلب جدا طيب الرائحة ، والرمان الغريب حجما وجودة ... يباع بثمن بخس ، ويكثر بها الـبرقوق الأبيض والدمشقي ، حتى أن الجمل منه يباع بخمسة أو ستة (بيتشات) ويجنى العناب (الزفزوف) بكثرة ... ويوجد بكثرة كذلك التين وعنب الكرم ... وتنتج هذه المنطقة مقادير وافرة من المشمش والخوخ لدرجة أنهم يكـادون يرمونها ... أما الزيتون فتجنى منه مقادير لا حد لها ولا نهاية " .م.س ، 1 : 169.
62) - أحمد بن القاضي (ت. 1025هـ / 1616م) : درة الحجال في أسماء الرجال (3 أجـزاء) .تحقيق : محمـد الأحمدي أبو النـور دار الـتراث ، القـاهرة ، 1970 ، ا : 196. ويؤكـد هـذا أيضـا مـا سـجله لسـان الديـن ابـن الخطيب (ت. 776هـ / 1374م) من أن بلاد سجلماسة " معدن التمر ... تتعـدد أنواعـه فتعيـي الحسـاب ...." ، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار . تحقيق : محمد شبانة ، الرباط ، 1977 ، ص : 181.
63) - يذكر مرمول أن بنوميديا بحيرات كبيرة وسط الرمال " كلها محاطة بالنخيل الذي تحمـل كميـة هائلـة من التمر ، حتى أنها تغمر بلاد البربر ويعلف بها السكان خيلهم بدل الشعير ..." ، م. س ، 1: 44.
64) - أنظـر : الأنصـاري : م.س. ، ص ص 53 - 55 ، والـوزان : م. س ، 1 : 62 - 63 ، ومحمـد مزيــن ، فاس وباديتها : مساهمة في تاريخ المغرب السـعدي (1459- 1637م) ، (جـزآن) ، منشـورات كليـة الأداب بالرباط ، مطبعة المعارف الجديدة الرباط ، 2 : 398 .
65) - الوزان ، م. س. ، 1 : 217.
66) - ROSENBERGER , op. cit. p. 478.
67) - محمد استيتوا : الكوارث الطبيعية في تاريخ مغرب القرن 16م . رسـالة لنيل دبلـوم الدراسـات العليا في التاريخ ، كلية الآداب ، فاس ، 1988 ، ص 70.
68) - بسبب سيادة تربية الماشية على حساب الزراعة في السهول الأطلنتيــة ـ أنظـر : ن.م. ص ص 70 ومـا بعدها ، وخاصـة أحمد بوشرب ، دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي وأزمور (قبل 28 غشت 1481 - أكتوبر 1541م) ، دار الثقافة ، الدار البيضـاء ، 1984 ، ص ص 437 - 438.
69) - يذكر الوزان مثلا أن سكان جبل بني يوسف بالريف فقراء لاينبت فـي جبلـهم أي شـيء حسـن ، عـدا قليل من الدخن ، إلا أنهم يملكون قطعانا كثيرة من الماعز يعتبر لبنها بالنسبة لهم غذاء ثمينـا (م.س. ، 1 : 257) ، أنظر كذلك ما قاله بشأن أهل جبل سكسيوة (1 : 111) وجبل سكيم (1 : 148) بالأطلس .
70) - ن.م. ، 1 : 263 -264.

71) - كسكان جبل مغران بتادلا (ن.م. ، 1 : 148) وجبل سليلكو (ن.م. ، 1 : 0280) وسهل أزغار ايكمارن (ن.م. ن 1 : 284)...
72) - يذكر الوزان مثلا أن جبل بني رزين بالريف " يعيش سكانه في سعة وأمن ، لأن جبلهم حصين وخصيب ... يجنون القمح والزيتون ويملكون كروما كثيرة ، أرضهم جيدة لاسيما منحدرات الجبل ، ونساؤهم يرعين الماعز ويحرثن الأرض" . (ن.م. ، 1 : 258) ، ويقول عن جبل بني وامود بالمنطقة نفسها : " الأراضي الزراعية في كل منحدرات الجبل جيدة والماشية كثيرة ،. (ن. م. ، 1 : 264)، وكذلك الجبال المحيطة بمدينة تكوداست أو تكندافت بالأطلس ، كلها حدائق عجيبة مغروسة بجميع أنواع الأشجار المثمرة ، وتحتها سهل ، حقوله مزروعة ، والناس كلهم يملكون الماشية الصغيرة بكثرة (ن. م. ، 1 : 131 - 132)...
وكذلك السهول كانت تزود محيطاتها بإنتاجها كسهل أزغار الذي " يمد جبال غمارة ومدينة فاس بالطعام والماشية والخيل " ، ن.م. ،1 : 232...
73) - نشر المثاني ، م.س. 4 : 57.
74) - الوزان : م. س. ن 1 : 132 - 133.
75) - ن.م. ، 2 : 11.
76) - ن. م. ، 1 : 0270.
77) - Anonyme portuqais , op. cit. p. 121.
78) - ibid , p. 120.
79) - ibid , p. 115.
80) - الوزان : م. س ،. 1 : 286.
81) - ن.م. ، 1 : 147.
82) - ن.م. ، 1 : 232.
83) - ن.م. ، 1 : 0130، غير أنه بتاكتسة مثلا لم يشاهد فيها « ولو فرس واحد « . ن.م. ، 1 : 83.
84) - أنظر عدد الفرسان الذين كانت تجهزهم كل قبيلة عند الوزان ، هنا وهناك ، ومرمول ، 2 : هنا وهناك .
85) - ذكر الوزان أنه لما نزل بهسكورة ، كان الناس يهدونه ومرافقيه عجولا أو خرفانا أو دجاجا ، وذلك طوال مدة إقامتهم هناك . م. س. ، 1 : 130.
86) - يذكر الوزان مثلا أن القمح والبقر والدجاج والأغنام المجلوبة إلى فاس لم يكن يؤدى عنها الرسوم ن.م. ، 1 : 196.
87) - ن.م. ، 1 : 191.
88) - ن.م. ، 1 : 187.
89) - ن. م. ، 1 : 106.
90) - ورد أن القائم بأمر الله " لما بايعه أهل السوس ورأى قلة ما بيده مع أن الملك لايقوم إلا بالمال ، احتال بأن أمر أهل السوس أن ياتوه بيضة لكل كانون ، فلما اجتمع عنده البيض أمر أن كل من أتى بيضة يأتي بدلها بدرهم ، ففعلوا ، فاجتمع له من ذلك مال وافر فأصلح به شأنه وقوى به جيشه ، وكانت تلك أول نائبة فرضت في دولة السعديين " . الاستقصا ، م.س . 5 : 86.
91) - أنظر ما ذكره الوزان عن بعض التجمعات السكانية المتوسطية مثل يليش وتغسة م. س . 1 : 255 وغيرهما ...
92) - ن. م. ، 1 : 252.
93) - ابن الخطيب ، م. س. ص : 155.
94) - أنظر : ن.م. ، ص 158 ، والوزان م. س. ، 1 : 124و 2 : 247، ومرمول ، م.س.، 1 : 35.
95) - أنظر : علي بن أبي زرع الفاسي (ق. 8هـ / 14م) ، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس . دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط 1973 ، ص : 35 - 36، ومحمد الحميري ، م. س. ص : 606 ، وعلي الجزنائي (ق. 8هـ / 14م) ، جني زهرة الآس في بناء مدينة

فاس . تحقيق : عبد الوهاب بن منصور ، المطبعة الملكية ، الرباط 1967 ، ص : 35 و39 ، واحمدد ابن القاضي : جذوة الاقتباس في من حل من الأعلام مدينة فاس (جزآن) ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط 1974 ، 1 : 48 ، والوزان : م. س. ، 1 : 187.

96) - الحميري : م. س. ، ص 606 ، ومجهول صاحب كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار . نشر وتعليق : سعد زغلول عبد الحميد ، دار النشر المغربية ، الدار البيضاء 1985 ، ص : 184.

97) - كانت هناك عدة بحيرات داخلية كبيرة في أزغار والغرب ، بعضها بين العرائش والقصر الكبير . أنظر : أحمد بن قنفد القسنطيني (ت. 809هـ / 1406م) ، أنس الفقير وعز الحقير . تحقيق : محمد الفاسي وأدولف فور ، الرباط 1965 ، ص : 1 ، والوزان : م. س. ن 1 : 234، ومرمول : م.س. ، 1 : 36 - 37.

98) - الوزان : م. س. ، 2 : 248 ، ومرمول : م. س. ، 1 : 35 - 36.

99) - الوزان : م. س. ، 2 : 254.

100) - ن.م. ، 1 : 126 - 127.

101) - ن.م. ، 2 : 263 و276.

102) - أنظر : مرمول ، م. س. ، 1 : 73 و 85.

103) - تتحدث المصادر عن كثرة أضرارها بالمحاصيل حتى أنهم كانوا يضطرون إلى المبيت في العراء لحمايتها منها . أنظر : عبد الحق البادسي (ق. 8هـ / 14م) ، المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف . تحقيق : سعيد أعراب ، المطبعة الملكية ، الرباط 1982 ، ص 123. ويشير الوزان إلى أن الغابات المحيطة بمدينة تاكتسة بمملكة مراكش ، مليئة بالخنازير البرية .م. ص ، 1 : 83.

104) - الروض المعطار / م.س. ، ص : 305 والاستبصار ،م.س. ، ص : 201. والتشوف ن م. س. ص : 282، هامش رقم 717 . والحرذون في لسان العرب المحيط ، لعبد الله بن منظور هو دويبة أو هو ذكر الضب . دار الجليل ودار لسان العرب ، بيروت 1988 ، المجلد الأول ، رسم حرذن ، ص : 603 ، وحسب بعض الباحثين (لم يسمح لنا بذكره) ان الحرذون ربما هو الجربوع الذي يؤكل إلى اليوم مع الضب في جنوب المغرب . ويبدو أن الحرذون هو الذي ترجمته جاك مونيي إلى ثعلب J. MEUNIE , op. cit., t.1, p.383. chacal

105) - يقول صاحب الروض (م.س. ص : 306): " ومن العجب بسجلماسة أنها ليس فيها ذئاب ولا كلاب لأنهم يسمنونها ويأكلونها كما يصنع أهل البلاد الجريدية "، وفي القرن 16 م أكد أحد البرتغاليين عندما مر بكورارة ونواحيها ، أنه " ليس هناك كلاب " Anonyme portugais, op. cit. p. 137. ، وركز هنري دوكاسترو من جهته على تأكيد هذه الملاحظات ، حين علق بقوله أنه قبل دخول الفرنسيين إلى الواحات الصحراوية ، لم يكن سكان القصور يعرفون الكلب .Ibid , pp 72 - 73 , note 9

106) - يوسف بن يحيى بن الزيات التادلي (ت. 627هـ / 1229م) : التشوف إلى رجال التصوف ، وأخبار أبي العباس السبتي . تحقيق : أحمد التوفيق ، الرباط ، 1984 ، ص : 110.

107) - الوزان : م.س. ، 1 : 236 ، يذكر كذلك كثرة الحجل والحمام والإوز الوحشي والبط وطير الماء والضربان واليحمور ... إلى جانب الأرانب والأيول ... بالجبل الأخضر ، ن.م. ، 1 : 127 - 138.

108) - يذكر البادسي أن أحد صلحاء الريف شوهد مرة في آخر عمره وقد كف بصره " طرح جمته (كذا) للشمس وحجل أمامه يلتقطون القمل من ثوبه (...) فقالت له (زوجته) على وجه المداعبة : أعطني حجلة واحدة من هذه الحجل ، فقال لها : لا أعطي من حجلي شيئا " . م. س. ، ص ص 52 - 53.

109) - أنظر الوزان : م. س. ، هنا وهناك ، ومرمول : م. س. ج2 ، هنا وهناك .

110) - الحميري : م. س. ، ص : 541.

111) ن.م. ص : 330، والبكري م.س. ، ص : 122 ، ومحمد بن حوقل (ق. 4هـ / 10م) صورة الأرض ، دار مكتبة الحياة ، بيروت 1979 ، ص : 90.(112) - الوزان : م. س. ، 2 : 278 - 279 ، الاستقصا : م. س. 8 : 120.

113) - de GOIS, op. cit. p. 111. ، والوزان : م.س. ، 1 : 126 ، ويذكر مرمول حالات في مواقع أخرى ، أنظرها في ج 2 : هنا وهناك.

114) - التشوف : م.س. ص : 49.

115) - ROSENBERGER, op.cit. pp. 490 et suiv.

116) - التشوف :م.س. ، ص 217 ، ذكره نباتا يؤكل حول أزمور ، فهو اسم محلي ، وفي الهامش ، أنه في طرة إحدى النسخ أنه " هو برمرام يأكلونه (كذا) الضعفاء في سنة المجاعة ، وهو نبات معروف " ، وعلق المحقق ، أن التسمية -لاشك- كانت في المجال الصنهاجي في جهات أزمور .

117) - الوزان : م.س. ، 2 : 183 و284.

118) - ذكر ابن بصال (م.س. ص : 155 - 156) أن الرجلة من البقول ، تزرع بين شهري أبريل وغشت بالأندلس ، ولانعرف ما إذا كان هذا هو النبات نفسه الذي ينبت عادة في البحائر ، كلما توفر الماء ، ويستهلكه الناس مثل « البقولة » .

119) - تعود رحال الكوش في سياحته على أكل النبات وادخار زريعة الخردل . أنظر : الدوحة : م.س، ص : 101.

120) - الوزان : م. س. ، 1 : 163 و 239.

121) - الوزان : ن.م. 1 : 163 ، ويذكر ابن قنفد أنه يعالج الإسهال .م.س. ، ص 27.

122) - الوزان : م. س. ، 1 : 169.

123) - ن.م. ، 1 : 168.

124) - كان أهل فاس مثلا يجلبونه من بحائر وبساتين لمطة ، ويستعمل هذا النبات الشوكي عادة لرسم الحدود بين الأجنة وغيرها . أنظر: الصفوة م.س. ، ص 37.

125) - عبد اللـه العياشي (ت. 1169هـ / 1756م) : الإحياء والانتعاش في تراجم سادات زاوية آيت عياش ، مخ، الخزانة العامة ، رقم د 1433 . ورقة 259.

126) - الوزان ، م. س. ، 1 : 126.

127) - ن.م. ، 1 : 169.

128) - يشير مرمول إلى أهمية تغذية الخروب في عدة جهات من بلاد المغرب ، خاصة في المغرب الأوسط .م. س. ، 2 : 295 و351. ويجعله أحد طلبة سوس في القرن 10هـ / 16م من بين ما يجب خزنه لأوقات الشدة . انظر :

B.ROSENBERGER et H. TRIKI : « Famines et épidemies au Maroc au XVIe et XVIIe diècles »,Hesperis, Tamuda, vol. XIV. fasc. un. , 1973 et vol. XV, fasc. un . , 1947. 1974, pp. 102-103.

129) - يكثر في رحاب أسواق بعض المدن والمقابر ، أنظر مثلا : محمد بن جعفر الكتاني (ت. 1345 هـ / 1917م) سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس .(3أجزاء) ، ط .ح. فاس ، 1316 هـ ، 3: 133 و 135 ...

130) - التشوف : م. س. ص : 125 ، وهامش رقم 126. ويذكر ابن عرضون أنه من المواد المكثرة للمني .م.س. ص :255 .

131) - حول الأهمية الاقتصادية لأشجار الأركان ، أنظر : الوزان : م.س. ، 1: مملكة مراكش .

132) - في هذا الصدد يمكن أن نذكر : السلة وتافغا والقوق البري وتالما وبابغا والكرداس (من الصنوبريات) والحميض والسكوم وتابكوكا وتمرضاض والسلق وقرن غزال والبصل البري والفكيع وحب الدرو والداد والكيز والزيتون البري (الزبوج أومسلال) وساسنو ، الذي قد يحدث الإسهال ، لذلك قيل :

ساسنو أحمر مزوق   خلاني في الجبل معوق

ويذكر جاك برك أن اهل الصحراء من الطوارق يأكلون حبوب الدرن Drinn والمروكبا Mrokba والفونيو البري

Fonio والكرام كرام Cram-cram وجذور وجذوع وسيقان البردي الطرية Berdi بينما يحصل جيرانهم من الطوبو على بعض غذائهم من فواكه الدوم والقنص.

J. BERQUE : Introduction . Revue internationaledes sciences sociales,XI.1959 n° 4 .p p : 504 - 505 .

133) - الوزان : م. س. ،1 : 187.
134) - تراوحت المخازن بين مخازن مخزنية (أهراء وأمراس) وجماعية وفردية ، وكانت تشمل كهوفا ومغارات وأبراجا معلقة وغرفا وعرائش ومطامير ... أنظر :
R. MONTAGNE , Un magasin collectif de l'Anti-Atlas. l'agadir des Ikonka. libr.larose, Paris,1930.
J.MEUNIE, « Greniers collectifs » ,Hesperis , 1- 2e trim. t. XXXVI, 1949.
JMEUNIE, Greniers citadelles au Maroc. P.I.H.E.M., t. III, 1951.
B. ROSENBERGER, « Resrves de grains et pouvoir dans le Maroc précolonail. »C.N.R.S., fasc.I,1985.
135) - حفارو المطامير وحراسها والعاملون على كرائها ... أنظر الوزان : م.س. ،: 82 - 94 - 215 - 239... 1
136) - أنظر : محمد المختار السوسي : المعسول ، الدار البيضاء 1963، ج 17 256 - 258 .
137) - يقول الوزان أن بدرعة تمر يمكن أن يدخر لمدة سبع سنين في مستودع دون أن يفسد ، شريطة أن يحتفظ به في الطابق الأول .م. س. ، 119:2. وبالنسبة للحبوب فقد كانت تخزن في مطامير سبتة لمدة سبعين سنة . الأنصاري : م. س. ، ص :42. وفي مطامير مائة بير بدكالة فلمدة مائة سنة . الوزان :م.س. ، : 121 1
138) - لازال المغاربة يستعملون القديد إلى اليوم ، خاصة في البوادي ، في عيد الأضحى - لعدم توفرهم على وسائل التبريد . وفي كيفية إعداد القديد ، أنظر : ابن رزين التجيبي : فضالة الخوان في طيبات الطعام . تحقيق : محمد بن شقرون ، دار الغرب الإسلامي ، ط 20 ، بيروت 1984 ص: 273.
139) - يقول محقق كتاب التشوف ، أن سغروشن تعني الذين يقومون بتيبيس الذنب قصد أكل لحمه ، أو المهارة في اصطياد الذئب الذي كان مشهودا أكله في سجلماسة .م.س. ، ص 282، إحالة رقم 717.
140) - عن أهمية استهلاك السماك ،خاصة مملحة ، في الريف ، وحول أزمور ، وفي بعض المناطق الصحراوية ، أنظر : الوزان :م.س. 1 : 260...و2 : 247 و 295...
141) - لاتزال هذه الطريقة معروفة إلى اليوم في فكيك وحول وجدة .
142) - أشار ابن بصال إلى كيفية حفظ هذه الفواكه طرية ، ونغلب أن يكون قد عمل بها أيضا في المغرب ، ولو على نطاق ضيق .م.س. ، ص ص 179 -180
143) - أنظر : ن.م. ، ص 180 .
144) - يجفف العنب في الشمس بعد منتصف غشت ، فإذا نزل المطر في شتنبر عصر ما بقي . الوزان : م.س. ،1 : 63 وكذلك 184 و279 و 2 : 111، وكذلك التين " يفرز نوعا من الدقيق عندما يراد تجفيفه لادخاره " .ن.م. 1: 169.
145) - " تنزع النواة من الخوخ ويقسم إلى أربع أجزاء ويجفف في الشمس ، وبذلك يحتفظ به طوال السنة ، ويعتبر طعاما شهيا " بجبل بني يستيتن .ن.م. ، 1 : 279، وكذلك كان الخوخ وغيره من الفواكه تجفف بجبل كرسلوين الفقير و"تجعل هذه الفواكه المجففة مع أطعمة أخرى لتصنع منها وجبات يأكلونها ".ن.م. ، 1 : 288 ...
146) - أنظر : التشوف ، م.س. ، ص : 216 ومرمول : م.س. 2 : 372 ...
147) - باستعمال النارنج . أنظر : النشر ، م.س. ، 1 : 205.
148) - تجز دون الجذور ، التي تسقى فتنبت من جديد .
149) - كان هناك من « يعمد إلى أوراق الشجر فيجففها ويطبخها ثم يقتاتها» . التشوف : م. س. ، ص : 419.
150) - كان عبد الله بن الخير الزناتي ، قد أقام عشرين سنة لم يأكل لحما ولا شيئا مما يأكله الناس وإنما كان يجمع نبات الأرض ، فيصنع منه أقراصا يأكلها في العام . كان يجمع النبات ويجففه في الشمس ثم يطبخه ويعجنه ويصنع منه تلك الأقراص فيقتات بها . ن.م. ، ص: 296...

151) - ذكر الوزان (م.س. ، 2 : 119) أن أهل درعة إنما يتغذى أهلها " من مثل هذا التمر ، لاسيما في الأيام التي لايأكلون غيره ، ويقتاتون بحساء الشعير وغيره من الأشياء البسيطة ، أما الخبز فلا يأكلونه إلا في الأعياد والولائم " . ويؤكد هذا أيضا أن أحمد بن إبراهيم الدرعي " دخل عليه أعيان اكتاوة برسم الزيارة فأطعمهم التمر وخبز الحوار الخالص مع السمن والعسل فإذا الخبز يفور من سخونته فقيل له ياسيدي أين يكون في درعة خبز الخالص ، فقال لهم : إنما مدته لنا أخت في الله من مدينة فاس " . الصفوة : م.س. ، ص : 76...

152) - كاستخراج الدقيق من بذور العنب . الوزان : م.س. ،1 :257 ، واستخراج الدقيق من التين . ابن غازي : م.س. ، ص : 3، واستخراج الدقيق من البلوط . التشوف : م.س. ، ص 216. ومعلوم أنه إلى حدود الستينات من هذا القرن ، كان بعض سكان قرى الريف الوسط يعتمدون في صنع الخبز على مزيج من دقيق الشعير ودقيق البلوط ، بمعدل 100 كلغ سنويا للأسرة الواحدة ، أو مزيج من دقيق الشعير ودقيق حبوب أركل بمعدل 20 إلى 100كلغ سنويا لكل أسرة . G. MAURER, « Les paysans du haut Rif central ».R.G.M.,1968, p. 57.

ولاحظ الاسيرج .دي ماندوصا de MENDOCA .J في أواخر القرن 16م أن سكان بعض دواوير الأطلس " فقراء إلى حد أنهم لايأكلون إلا الدقيق الذي يستخرجونه من بعض أشجار شوكية ذات ثمار مرة مطحونة برحي يدوية ".

R.Ricard : « le Maroc à la fin du XVIe siècle d'après la Jornada de Africa de J. de MENDOCA ». Hesperis , 1957, p. 187 et note...

كذلك ذكر القادري ، أنه في مجاعة 1150هـ/ 37 - 1738م أكل الناس عجم عدة فواكه . الحوليات : م.س. ، ص ص 51 - 52 . ونعتقد أن عجم الفواكه والثمار البرية كانت تطحن ويستخرج منها دقيق للاستهلاك كما نصح بذلك ابن العوام .

pcit., t.2, 1ere partie, pp.353-368.

153) - ذكر محقق كتاب سبك المقال لفك العقال لعبد الواحد محمد بن الطواح (ق. 8 هـ / 14 م)، ص : 170 ،هامش رقم 4، أن الهريس في اللسان : الحب المدقوق بالمهراس قبل طبخه والهريسة نوع من الحلوى يصنع من دقيق وسمن وسكر . وهي عند أهل المغرب نوعان من الطعام : ضرب من الطبيخ فيه حب وبقول ، وآخر يمزج فيه الفلفل بالافاويه . والهراس هو بائع الهريسة بأنواعها . ط. 1 ، تحقيق ودراسة : محمد سعود جبران ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، 1995 .

والهريسة معروفة من قديم في المغرب ، كان يصنعها عادة السفاجون ، فقد كان أبو إبراهيم إسحاق بن محمد الهذرجي (ت.581 هـ / 85-1186 م)يبيع الاسفنج والهريسة .التشوف :م.س. ، ص : 242 .

154)- ذكر الوزان أنه كان بسوق الدخان بفاس نحو 15 دكانا للسفاجين ، يبيعون يوميا كمية كبيرة تؤكل عند الفطور ، لاسيما أيام الأعياد و قبل أيام الصوم ، كما كانوا يبيعون فطائر أخرى ، منها "خبز خفيف مصنوع من أشرطة أغلظ من (لازاني الإيطالية) ومعجون بالسمن ، ويؤكل كذلك بالزبد والعسل ". م.س. 1 : 186.

(155) - كانت الحلويات مما يقدم في المناسبات كالأعراس . أنظر : ن.م. ، 1 : 200. وهناك ذكر لعديد من أنواع الحلويات ، منها : المقروض ، الصفوة : م.س. ، ص : 116 ،والفقاص أو البجماط. أنظر : القرطاس ، م.س. ،ص : 63 والهامش رقم 1، والكعك . أنظر : جذوة الاقتباس م.س. ، 2 : 442 - 443. والقريشلات ، أنظر : الاستقصا : م.س.، 11:5...

156)- كان أبو المحاسن الفاسي (ت. 1013 هـ / 04-1605 م) يطعم الناس يوم عيد المولد النبوي بفاس "العصيدة من سميد القمح تؤكل بالسمن والعسل حتى يعم ذلك الناس ، ويحضر خلق من المساكين لايحصون فيأكلون ويحملون ما أمكن ، يصنع ذلك في اليوم الثاني عشر ... وفي سابعه أيضا ..." محمد العربي الفاسي (ت. 1052هـ / 1642 م) ، مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن .ط.ح. ، فاس 1324 هـ ، ص: 128وكذلك الحريرة بفاس كانت تحضر عادة من خميرة القمح . أنظر :ن.م. ص : 229، ومحمد بن جعفر الكتاني ، م.س. ، 1 : 144 - 145...

157) - أنظر : نشر المثاني : م.س. ، 2 : 259 - 260 ، وترجمة عمرو بن يحيى الشفشاوني ، الذي كان " يأكل في الغالب قرص الشعير المختلط بالذرة " سلوة الأنفاس : م.س. 2 : 232...

158) - أنظر الوزان : م.س. ،1 : 257.
159) - أنظر : الهامش رقم 152.
160) - أنظر الهامش نفسه .
161) - أنظر : الروض الهتون ، م.س. ص : 3.
162)- الإحياء والانتعاش : م.س. ، ورقة 259.
163)- أنظر : الهامش 149 والهامش 150 .
164) - S.I.H.M., 2e série , France , t.5 . pp . 44 - 47.
165) - ممتع الأسماع : م. س . ، م 5 ، ص ص : 6 و 7.
166) - المكان نفسه .
167) - انظر ترجمة الغزواني وكيفية انخراطه في سلك الجزولية في : الدوحة ، م.س. ، ص ص 96 - 99.
168) - ن.م. ، ص 110، وممتع الأسماع ، م 12 ، ص : 7 ، السلوة ، م . س ، 3 : 168 - 169 .
169) - الدوحة : م.س. ، ص107.
170) - نشر المثاني : م.س. ،1 : 346.
171) - الصفوة : م.س. ، ص : 108.
172) - نشر المثاني : م.س. ، 1 : 48 والسلوة : م.س. ،222:3 .
173)- الدوحة : م.س. ، ص :107.
174) - الصفوة : م.س. ، ص : 186.
175) - نفسه ، ص : 150.
176) - محمد حجي : الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي . المطبعة الوطنية ، الرباط 1964 ، ص : 46.
177) - الوزان :م.س. ، 1 : 197 - 198 .
وقد اعتمدنا أساسا لهذه الخريطة على :
L.MASSIGNON , Le MAROC dans les premieres années du XVIe siècled'après Léon L'AFRICAIN. Alger, 1906.pp.118-121.
178)- الوزان : م.س. ، 1 : 76 .
179)- نفسه ،1 : 109.
180) - نفسه ، 1 : 248 - 270. وبالجملة فإنه يمكن الرجوع إلى الوزان لمعرفة هذه الأنواع من أطعمة أهل الريف . وعن شدة ولوع أهل الريف بالخمر ، انظر : ماقاله عبد الله الهبطي في هذا الصدد في أرجوزته : الألفية السنية في تنبيه الخاصة والعامة على ما أوقعوا من التغيير في الملة الإسلامية . إعداد وتقديم : محمد استيتوا ، منشورات كلية الأداب بوجدة ، 1999 ص : 44.
181)- انظر : E. Le ROY LADURIE , Histoire du climat depuis d'An Mil . 2 volumes, Champs Flammarion, Paris, 1983,vol.1, pp.157- 287.
182)- نشر المثاني : م.س. ، 2 : 302.
183)- حوليات نشر المثاني : م.س. ، ص : 61.
184) - أنظر جدولا باهم الكوارث الطبيعية ن لاسيما المجاعات ، عند محمد استيتو، م.س. ، ص ص : 474 - 456
185) - I.D. ABBOU;Musulmans andalous et judèo- espagnols. casablanca, 1953, p. 293.
186) - أنظر : محمد مزين: م.س. ، 1 : 158 ، ومحمد استيتو : « الأزمة الديمغرافية في تاريخ فاس الحديث » ، مجلة كلية الآداب بوجدة ، عدد خاص عن " الديمغرافيا التاريخية" ، عدد 6 ، 1996 ، ص : 82.
187) - الوزان : م.س. 2 : 278 - 279.
188) - في سنوات : 919هـ / 1513م و 923هـ / 1517م و 47 - 948هـ / 40 - 1541م و 978هـ / 1571م ... أنظر : محمد استيتو ، الكوارث ...، م.س. ص ص:89 - 102.

189) - في سنوات : 1049هـ / 39-1640م و 1088 هـ / 77 - 1678 م و 1133هـ / 1726م و 1167 هـ / 1754م ... أنظر : جدول : ن.م ، ص ص : 467 - 474.

190)-نشر المثاني : م.س. ، 4 : 25 ، وحوليات ...، م.س. ، ص : 65 ... وقد عاين المجهول البرتغالي كثرة الفئران بجنوب شرق المغرب دون أن يشير إلى تأثيرها في الزراعة أو في غيرها .Anonyme portugais,. op. cit. p. 134.

191) - ذلك أن المغرب شهد في هذا العصر سطوة الايبريين بالعنف على مجموعة من ثغوره أدت إلى مواجهات مسلحة كثيرة من أجل استردادها ، وشهد انتقال السلطة بالقوة من المرينيين إلى الأدارسة الجوطيين إلى الوطاسيين فإلى السعديين فالعلويين ... غالبا بعد عدة عقود من الصراعات والأحداث الدامية ، كما عرف المغرب أزمة الثلاثين سنة الخطيرة التي أعقبت وفاة السلطان المولى إسماعيل عام 1727م ،راجع مثلا : نشر المثاني :م.س. ، والحوليات : م.س. وتاريخ الضعيف :م.س. ،وعبد الكريم بن موسى الريفي ، زهر الأكم ، دراسة وتحقيق : آسية بنعدادة ، طبعة المعارف الجديدة، الرباط ، 1992 ...

192) - نشر المثاني :م.س. ، 2 : 157، والسلوة : م. س. ،2 : 39.

193)- الاستقصا : م.س. ، 4 : 165.

194) - حوليات : ن.م. ، م.س. ، ص : 51 ، والسلوة : م. س. ، ترجمة أبي الحجاج يوسف ،2 : 179...

195) - تاريخ الضعيف : م. س. ، ص : 155.

196) - مرآة المحاسن : م.س. ، ص : 213 ، والاستقصا : م. س. ، 4 : 136 و 165.

197) - مرآة المحاسن : م. س. ، ص :213 ، والاستقصا : م.س. ، 4 : 136 و 137 و 165.

198) - نشر المثاني : م. س. ، 2 : 157 ، وحوليات ...، م.س. ، ص ص 50 - 51، والسلوة: م.س. ،: 39. 2وربما عرفت سنة 1022هـ / 13-1614م هي الأخرى بالنعت نفسه . أنظر : السلوة : ن.م. ، المكان نفسه .

199) - محمد الصغير اليفراني : نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي .ط 2، مكتبة الطالب ،الرباط ، د.ت. ، ص : 72 والاستقصا :م.س. 5 : 191 .

200)- هو عام1266 هـ/ 49 - 1850م الاستقصا : م.س. ،9 : 61...

201)- يعرف بعام خيزو لكثرة زرع الجزر في ذلك العام ويعرف بعام الصندوق لأن الناس كانوا إذا أرادوا حمل الخبز إلى الفران أخفوه في صناديق ليلا ينهبه الناهبون . أنظر : نشر المثاني : م.س. ، 3 : 253. إحالة رقم 9.

202) - عرف عام 1164هـ / 50 - 1751م بـ " عام اللوبية " لأنها كانت تباع في غلاء ذاك العام ، " كانت تاتي من بلاد النصارى ... بالسفن ... وكانت تباع بمدينة سلا والرباط وغيرهما من مدن الساحل ، وجاءت في زمن الشدة إلى أن اغاث اللـه المسلمين من فضله ". الضعيف : م. س. ، ص : 155.

203)- سنة1070هـ / 59 - 1660 م " كان فيها الغلاء المفرط بالمغرب لاسيما بمراكش ، وهذه السنة هي المعروفة عند العامة بسنة كروم الحاج لازالوا يضربون المثل بغلائها إلى اليوم ". الاستقصا : م.س. ، 112. : 6

204) - الضعيف : م.س. ، ص: 126، واختصر صاحب زهر الأكم دولة هذا السلطان التي دامت عاما وسبعة أشهر وعشرين يوما ، بانها كانت " كلها في شدة ونزاع ، وعامة الناس كلهم جياع " م.س. ، ص : 252.

205) - ROSENBERGER, Cultures...op.cit. وأيضا ROSENBERGER et TRIKI; op.cit., 1974, p.26. p.481.

206)- من بينها : 20 - 1523 م ، 03 - 1606 م ،06 - 1608م ، 25 - 1628 م ، 48 - 1653 م ،60 - 1663م ، 20 - 1725م ، 27 - 1738م ، 76 - 1781م ، 49 - 1852م ، أنظر : الكوارث الطبيعية ... ، م. س . جدول ، ص ص : 463 - 474.

207)- الجدول نفسه .

208)- كما في قحط أعوام : 52 - 1553م ، 83 - 1584 م و 1606م و 1613م و 15 - 1616م ... ويفرض الصوم لمدة ثلاثة أيام متفرقة ، هي الاثنين والخميس والاثنين ويعاد مرارا إذا لم تسقط الأمطار . انظر :
VAJDA, op. cit ., 1948, pp. 316,323,327,332,333,337 etc...

209) - مثلا في عام 1163م المعروف بعام اليبسة ، "حبس المطر ... وعطش الزرع النابت ، وصلى الناس بفاس صلاة الاستسقاء مرارا وإمامها أبو مدين الفاسي ، ثم أعيدت الصلاة أيضا وإمامها سيدي الكبير الغزواني السرغيني ، ثم أعيدت وإمامها غيره ، ثم أعيدت مرارا أيضا وإمامها سيدي بومدين حتى آيس الناس وأطلقوا البهائم لرعي الزرع ". الضعيف : م.س. ن ص : 155 وقد بلغ تكرارها تكرارها تسعة عشرة مرة ". حوليات : م.س. ، ص : 74.

210)- نشر المثاني : م.س. ، 2 : 62 - 63

211)- الصفوة : م. س. ، ص : 134.

212) - نشر المثاني : م. س. ، 2: 359 - 360.

213) - يفهم ذلك مثلا من خلال شهادة أحد الربيين اليهود بفاس حول مجاعة عام 1680م ، إذ قال : " الحقيقة أنه في هذا الوقت لم يحدث للناس أي ضيق بسبب هذه المجاعة ، لأنه كان في الملاح أغنياء ، وكانت منازلهم عامرة بكل خير وبمؤونة كثيرة من الحبوب ، وكانت مخازنهم مملوءة ، وكذلك المطامير الخاصة باليهود". VAJDA, op. cit ., 2e partie, Hesperis, 1951,p.55.

214) - على سبيل المثال أن أحمد بن وسعدون السكتاني (ت. 987هـ /79-1580م) " كان الناس يأكلون بزاويته أربع مرات بين الليل والنهار وبها من الطلبة سبعمائة طالب مرتبين ، ودام على هذه الحال مدة من أربعين سنة في الجدب والخصب". الصفوة : م.س. ، ص ص 132-133، وكذلك زاوية آيت عياش ، خاصة في مجاعة 71-1072هـ /61-1662م . أنظر : الاحياء والإنتعاش : م. س. ، ورقة 28 ، وأيضا محمد الصنهاجي (ت.1154هـ /1741م) في مجاعة 1150هـ /37-1738م " أقام أياما يطعم الطعام حين المسغبة العظيمة وضيق المعيشة للخاص والعام". نشر المثاني : م. س. ، 4 : 27.

215) - من ذلك مثلا ما ذكره Diego de TORRES من أن السعديين في مجاعة 21 - 1522م " لم يدخروا أي جهد أو إنفاق لتوفير مؤن بأثمان معقولة " Relation de l'origine et succès des Chérifs. trad .de Charles de Valois (duc d'Angoulème), Paris, 1936. p. 56.

وكذلك السلطان محمد بن عبد الله في أزمة 1190هـ -1191هـ/ 76-1782م فإنه " رتب الخبز في كل مصر ، يفرق على ضعفائه في كل حومة ، وأسلف القبائل الأموال الطائلة يقتسمونها على ضعفائهم إلى أن يؤدوها زمن الخصب والرخاء ، ولما عاش الناس وهموا بأدائها سامحهم بها " الاستقصا : م..س. ، 8 : 49 وأما العكس فصحيح في حالات كثيرة ، كما في مجاعة عام 1143هـ / 30-1731م ، حيث بعث السلطان عبد الله بن إسماعيل " خديمه المدعو ولد المجاطية لنهب زروع أهل فاس وغيرهم الكائنة داخل المدينة ، فكان يدخل على الديار ويأخذ كل ما يجد فيها من القمح فكف الناس عن شرائه بسبب ذلك ... » حوليات ...،م.س. ص : 36.

في حين نجد أن السكان والتجار يتدبرون أمرهم ، كما في مجاعة 1151هـ /38-1739م ، إذ قدم ركب الحاج ومعه قوافل الزرع الكثير من طرابلس إلى فاس ، وقدمت إليها قوافل أخرى من تطوان وأحوازها بالزرع والدقيق وغيره لتجار المدينة ن.م. ، ص 58 ونشر المثاني ، م.س. ، 4 : 16 - 17.

216) - في مجاعة 1014هـ /05-1606م ، أخذ الناس يأكلون عن أولادهم في الأسواق ، وفي مجاعة 1133أو 1134هـ (1721 أو 1722م) فر الناس عن أولادهم إلى السودان وافريقيا ومصر والحرمين واليمن والشام وجزيرة المورة من بلاد الترك . ن.م، 1 : 224 و4 : 231.

217) - في مجاعة 03-1606م كان الناس يلقون بأنفسهم في الآبار وذبح أخرون أنفسهم بالمدى ، وقتل الآباء والأمهات أولادهم والرضع منهم .أنظر : VAJDA, op. cit. 1948, pp. 326-327.

218) - خاصة في مجاعة 20-1521م حيث أن أهل قبائل دكالة وعبدة على الخصوص " أصبحوا يتملصون من بعضهم البعض وأصبحوا يبيعون أنفسهم لمسيحي الثغور بثمن بخس جدا حتى انهم كانوا يعطون مسلما

أو مسلمة مقابل قفة من التبن أو من العنب ... لقد كانت المجاعة عامة إلى حد أنه لم يعد هناك شيء أرخص من الإنسان ". de TORRES, op. cit. p. 16 وكذلك de GOIS, op.cit. p. 228.

219) - تقييد لأحد حفدة الشيخ أبي محمد صالح بإحدى كنانيش الفقيه الكانوني ، ذكره أحمد بوشرب في " أزمة ضمير المغربي خلال القرنين 16 و17م ، مجلة كلية الآداب بفاس ، عدد خاص ، 1985 ، ص : 77.

220) - في مجاعة 1163هـ حفر الناس أكلوا يرني . الضعيف : م. س. ، ص : 155.

221) - الإحياء والانتعاش : م.س. ، ورقة 259.

222) - المكان نفسه . فهل تكون هذه هي الثمار التي ذكرها ماندوسا في القرن 16م ؟

223) - المكان نفسه .

224) - ن.م. ، ورقة 253.

225) - ن.م. ، ورقة 251.

226) - المكان نفسه .

227) - حوليات ...، م.س. ، ص ص 51 - 52.

228) - الإحياء والانتعاش : م. س. ، ورقة 258.

229) - ن.م. ، ورقة 255.

230) - خاصة في أزمة 90 -1196هـ /76- 1782م بأحواز فاس . الاستقصا ، م.س. ، 8 : 49.

231) - نشر المثاني : م. س. ، 2 : 129.

232) - الاستقصا : م. س. ، 7 : 104.

233) - نشر المثاني : م. س. ،2 : 134.

234) - حوليات ...، م. س. ، ص ص 53 - 54.

235) - ن.م. ، ص : 52.

236) - ن.م. ، ص : 48.

237) - فعليا قد لانجد ما يدعم هذا الاحتمال في المصادر ، أما نظريا فهناك إشارات كثيرة خاصة في أبواب الوصفات والإرشادات العلاجية ، إلى تناول أعضاء لحيوانات أو حتى أعضاء بشرية ، رغم كراهيتها أو تحريمها. وقد نقل ابن عرضون مجموعة منها : كالورس الموجود في مرارة الأبقار وخصي الثعلب وخصي حمار الوحش ، وقضيب الفحل وشحم الأسد ... بل إنه نقل عن محمد بن الحاج (ت. 737هـ /36-1337م) في كتابه " المدخل إلى تنمية الأعمال ..." قوله في علاج الراغبات في السمنة: " وقد أدى الأمر بسبب تعاطي السمن إلى أمر شنيع فضيع (كذا) وذلك أن بعضهن يأكل مرارة الآدمي لزعمهن أن من فعل ذلك يكثر أكله ويسمن بسبب ذلك ، انتهى -. قلت ومن هذا أتمعن أكلهن أفراخ الكلاب لأجل التسمين فقال إذ الكلب لايجوز أكله". مقنع المحتاج ، م. س. ، ص ص : 33 و 35 و225 الخ ...

التغذية والأزمة في المغرب
النصف الثاني من القرن 17 والقرن 18

ذ. محمد منفعة *

مقدمة :

إن أرض المغرب الخصبة ومياهه المتدفقة جعلتا المغاربة يولون اهتماما كبيرا لتغذيتهم وإنتاجها بالطرق والوسائل التقليدية. غير أن هذا الإنتاج لم يكن قارا أو متناميا باطراد ، وإنما انتابته في فترات كثيرة أزمات أدت إلى نقصانه أو فقدانه بالمرة ، وذلك بسبب اعتماد المغاربة على نزول الأمطار ، لأنها العامل الأساس في الإنتاج . وهذا الأمر يطرح الإشكال التالي : إذا قل المطر أو لم ينزل ووقعت أزمة تغذية فما هو حلها ؟ وما هي نتائجها ؟

لقد اتخذنا نموذجا لهذا الإشكال الفترة التاريخية الممتدة من النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي والقرن الثامن عشر ، ولتوضيح ذلك نقترح الخطوات التالية :

1 - خريطة المنتجات الغذائية .
- أنواع المنتجات وتوزيعها .
- تغذية المغاربة .

2 - أزمة التغذية خلال هذه الفترة.
- أسبابها .
- البدائل الغذائية .

3 - نتائج هذه الأزمات على الساكنة المغربية وموقف المخزن .

خريطة المنتجات الغذائية خلال الفترة المحددة أعلاه :

أنواع المنتجات : إذا قمنا بجرد للمنتجات الغذائية بالمغرب ، سنجد أرضه صالحة لإنتاج

* أستاذ باحث بكلية الآداب - وجدة .

أنواع كثيرة من المواد حسب الجهات التالية :
- **مكناس** : تنتج الزيتون والقمح ، والشعير ، والفول ، والجلبان ، والثوم ، والبصل ، والخس ، والكرنب، والجزر، والسلجع، واللفت الرجلة، والخيار ، والمعدنوس، والبرتقال، والليمون والتين والجوز ، واللوز ، والإجاص والتفاح ، والبرقوق ، والمشمش ، والبطيخ والسفرجل والرمان وعدة أنواع أخرى (1).
- **جبل زرهون** : العنب الدمشقي والزيتون (2).
- **تطوان** : تنتج بها أنواع كثيرة من الثمار(3)، والعنب الدمشقي يصدر إلى أوربا(4).
- **سلا** : تزرع بحقولها الحبوب وبها عدة بساتين (5) لإنتاج الفواكه المتنوعة وبها الأشجار المثمرة .
- **فاس** : تزرع بها جميع أنواع الحبوب والفواكه .
- **مراكش** : تزرع بها كل أنواع الحبوب ، ويوجد بسهلها الكبير النخيل التي تنتج تمرا ممتازا (6).
- **سوس** : بها بساتين كثيرة تنتج أنواع مختلفة من الفواكه، وجبالها مليئة بالحبوب والثمار(7).
- **القصر الكبير** : تكثر فيها الحبوب ، والسمن والعسل والثمار(8).
- **تافلالت** : يزرع بها الشعير ، وهناك كمية كبيرة من أشجار النخيل التي تعطي تمرا جيدا. ولندرة الماء يشرب السكان لبن النوق(9).

يظهر من خلال هذه النظرة على خريطة المنتجات الغذائية أنها كانت متنوعة. وهذا ما استرعى اهتمام الأجانب ومنهم الأسير مويط(10) الذي قال " بلاد البربر من أخصب بلاد الدنيا ، وكانت مملكتا فاس ومراكش أجمل هذه البلاد وألطفها وأغناها(11).
ويتضح أيضا من هذه النظرة أن التغذية بالمغرب كانت جيدة ومتنوعة ، لذا نتساءل ماذا عن هذه التغذية ؟

تغذية المغاربة : إن اختلاف أنواع المنتجات حسب المناطق ، يوضح اختلاف التغذية بين هذه المناطق ، ويمكن إضافة عنصر ثان يؤدي إلى اختلاف التغذية هو الوسط الاجتماعي ، وذلك لأن المجتمع المغربي كان ينقسم إلى فئات اجتماعية مختلفة فمن الأسرة المالكة في أعلى السلم والفئات الثرية ، إلى الفئات المتوسطة ثم إلى الفئات الفقيرة أو المدقعة ثم في أدنى السلم فئات العبيد العاملين بالمنازل والمتسولين .

ويتضح هذا الاختلاف في التغذية حسب الوسط الاجتماعي في قول هذا الأسير الذي ورد في بعض إشاراته العارضة إن "أكل أهل فاس مثل أكل الملك"(12) و"طعامهم المعتاد هو الكسكسو"(13). وقوله عن الغذاء الذي قدمته له زوج التاجر الذي اكتراه ، بأنه كان يتضمن "خبزا أبيض وسمنا وعسلا وقليلا من التمر والعنب الدمشقي"(14). هذا إضافة إلى أنها "كانت تمتعه بخبز السميد الأبيض، والزبد الممزوج بالعسل ، والفواكه حسب فصول السنة"(15). لكن هذه التغذية الجيدة التي حصل عليها مويط ، بسبب انتقاله إلى بيت حاكم قصبة سلا ، الذي لم يقدم له فيه إلا "الخبز الأسود والماء"(16) وهذا يعني أن الخبز الأبيض

كان للأثرياء أما فئة العبيد ومن في مرتبتهم كانوا يأكلون الخبز الأسود. وهذا التركيز على الخبز يوضح أن الأوربيين أنفسهم كانوا يولون أهمية كبيرة للخبز بحيث يعد العنصر الأساس في التغذية. وقد تحدث هذا الأسير أيضا عن نوع من التغذية وهو "الكسكسو" الذي يصنع في فاس وغيرها بالدقيق الجيد المفتول. ويوضع عليه أحد أنواع اللحوم المختلفة دجاج أو غنم أو بقر(17)، إضافة إلى بعض أنواع الخضر.

إن هذه الإشارات إلى بعض أنواع التغذية، واختلاف المواد الغذائية تؤدي إلى طرح التساؤل: ما موقف المغاربة في فترات الأزمات الغذائية؟ إن الجواب عن هذا التساؤل يتطلب معرفة هذه الأزمات.

أزمات التغذية :

يدفع الحديث عن أزمات التغذية إلى تحديد الفترة الزمنية التي ظهرت فيها، ومن ذلك أزمة 1048 / 1674 التي "بلغ فيها القمح 40 أوقية للوسق... واللحم لم يؤكل إلا البقر، ولم يذبح الناس في العيد ضحايا، وإنما كان عيدهم كعيد الفطر"(18).

إن هذه الأزمة التي لم تكن خطرة على الساكنة المغربية تبعتها أزمة مماثلة بعد خمس سنوات 1089 / 1678، والتي عرفت ارتفاع القمح فكان من نحو الموزونة ونصف للصاع النبوي(19)، وارتفع سوم الغنم حتى بلغت الشاة عددا لم يعهد أصلا، وبقي الكثير من غير أضحية"(20). وفي عام 1091 / 1680 غلت الأسعار "فبلغ سوم القمح نحو 45 أوقية والمد نحو صاع ونصف الصاع "(21).

وبعد السنة بثلاث أي سنة 1094 / 1683 "بلغ سوم القمح نحو الدرهم الشرعي للصاع النبوي "(22). وقد أورد اكنسوس عن القادري في الأزهار الندية "أنه في هذه السنة "كان غلاء كثير بسبب تأخر المطر فبلغ ثمن القمح 40 أوقية للمد والمد صاع ونصف "(23) و"ضاق الأمر على الناس: وفي الشهر نفسه ضاق الحال على أهل الحركة فأكثروا الهرب والفرار منها، وكثر فيهم السجن والضرب والرد لها في الحين "(24).

وفي أواخر هذه السنة انخفض ثمن القمح إلى الثلث، وكان ذلك آخر عهد المغاربة بالأزمة الغذائية خلال القرن 17، فتنفس الناس الصعداء لأكثر من ثلاثين سنة إلى أن حل عام 1133هـ / 1720 - 1721 فكان "ابتداء الغلاء في المغرب، ووصل وسق القمح إلى اثني عشر مثقالا أو ثلاثة عشر، وتمادى ذلك الغلاء نحو أربعة أعوام"(25).

ثم لم يدم هناء المغاربة بعد هذه السنوات الأربع التي عرفوا فيها أزمة غذائية، إلا سنتين حيث أنه لما حلت (1139هـ / 1727) أي السنة التي توفي فيها السلطان إسماعيل وقع الغلاء في الأسعار، وبلغ "سوم القمح ثلاثون موزونة وهي سبع أواقي ونصف للوسق وأقل وازيد بقليل"(26).

وبعد الاستسقاء نقص سوم الزرع واستمر الحال على ذلك إلى سنة 1147هـ /- 1735 1734 حيث وقع بالمغرب "الغلاء المفرط في آخر دولة مولانا عبد الله وأوائل دولة أخيه مولانا علي بلغ الزرع فيها إلى أربع أواقي للمد وإلى خمس أواقي"(27).

وفي السنة الموالية وقع بعض الرخاء، لكن في شهر ذي الحجة من سنة 1149هـ / 1737م بلغ ثمن القمح ست أواقي للمد ... وقاسى الناس من تلك الشدائد العظام من انقطاع

اللحم وقلة الإدام ولم يزل الأمر في شدة وازدياد ، وماتت بالصنعة رقاب كثيرة ، وارتفعت الأسعار "وبلغ القمح نحو ثمان موزونات للصاع النبوي"(28).

واستمرت الأزمة إلى سنة 1150 / 1738 وبلغ القمح "ست أواقي للمد"(29) ، بل تضاعف سوم القمح القديم أربعين مثقالا للوسق ، والجديد ثلاثين مثقالا ثم ارتفع القمح إلى خمس وأربعين مثقالا ، ورجع إلى أربعين مثقالا وإلى ستة وثلاثين مثقالا وإلى ثلاثين مثقالا"(30).

وفي أواخر هذه السنة نقص سعر القمح ، حيث وصل إلى "خمس أواقي للمد"(31) ، غير أن هذا النقص كان عرضا ، بحيث أن ارتفاع الأسعار عاد إلى ما كان عليه قبل هذا الانخفاض الطفيف ، الأمر الذي أدى بالقادري إلى القول :"وفي هذا العام والعياذ بالله من سخطه ، كانت المسغبة العظيمة العظمى والمجاعة الكبيرة المليمة الكبرى التي لم يعهد مثلها فأخيفت الطرق وكثر نهب الزرع الأخضر من فدادينه ، وترك الناس حرث الذرة على السقي من شدة الخوف وكثرة قطع الطرق خارج المدينة كأنها محصورة وارتفعت الأسعار جدا ، فبلغ القمح أزيد من خمس أواقي للصاع النبوي "(32).

وفي أواسط شهر جمادى الثانية من نفس السنة (1150 / 1738) وصل ثمن القمح "خمسة وخمسين مثقالا قديمة للوسق ، ثم وصل سوم القمح إلى ستين مثقالا ... وبلغ سوم الزرع بمكناسة الزيتون تسعين مثقالا وبسلا كذلك"(33).

وفي سنة (1155 / 1743) وقعت أزمة غذائية عانى منها ساكنة فاس خاصة فاشتد الجوع المفرط بالناس "وخرجوا من ديارهم وبلادهم وتفرقوا في القصر ووزان والعرائش وتطاون وطنجة بعيالهم ، وكانوا يتكففون ويطلبون القوت من أبواب الديار"(34).

وقد أورد الضعيف أنه "من عام 1159 هـ والأهوال متراكمة والوباء والجوع"(35)، فلم تتحسن الأحوال، واشتدت الأزمة سنة 1163 / 1749 وأطلق الناس على هذا العام " عام اليبسة ، ظهر فيه الطاعون ... وحبس المطر في هذا العام وعطش الزرع النابت ... وبلغ سوم القمح أربع أواقي قديمة والمد حينئذ كيله ثلاث صواع نبوية ... واستمر الغلاء إلى أن دخلت سنة 1164هـ وهو عام اللوبية ، واللوبية تشبه القمح ، كانت تأتي من بلاد النصارى دمرهم الله بالسفن وكانوا يبيعونها للمسلمين ويأكلونها ، وكانت تباع بمدينة سلا والرباط وغيرها من مدن الساحل ، وجاءت في زمن الشدة "(36).

بعد هذا العام أحس الناس بالرخاء الذي دام عقدين من الزمان ، وإثر ذلك بأربع سنوات أي عام 1188هـ / 1774م بدأ "الغلاء في الزرع والأسعار "(37) و"وصل الزرع سبع أواقي للمد "(38) وانخفضت الأسعار إلا أنها لم تستمر طويلا ، بحيث ارتفعت سنة 1193 / 1779 ، واشتد فيها الغلاء (39). وبعد سنتين (1195 / 1781) "وقعت يبسة في الزرع الأخضر ... وانقطع الزرع الصويني من الرحبة وكذلك الخرنوب والزبيب والتين والشعير والذرة والبشنة وخلت الأسواق من ذلك كله"(40).وقيل بأن الزرع وصل إلى "خمسين أوقية للمد "(41) في هذه اليبسة .

إن هذه الأزمات الغذائية تدفعنا إلى التعرف على أسبابها .

أسباب الأزمات الغذائية :
إن أسباب الأزمات الغذائية الآنفة الذكر ترجع في أغلبها إلى قلة الأمطار والجراد إلا ما كان من بعض الفترات التي عرفت زيادة على ذلك التسلط البشري وفتنته ، وعلى هذا الأساس يمكن حصر أسباب الأزمات الغذائية في عاملين : عامل طبيعي ، وعامل بشري.

فالعامل الطبيعي لم يستطع المغاربة ليومنا هذا إيجاد حل له ، ولو أن المغرب اليوم وجدت به سدود إلا أن أم الإهمال وعدم العناية بها قد لحقاها فغطى الطمي بعضها ، الأمر الذي جعلها لاتؤدي وظيفتها في فترة الجفاف لذلك مازلنا نشكو من الجفاف ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين ، هذا فضلا عن عدم استغلال المياه الجوفية .

وكذلك الأمر بالنسبة للجراد ، فرغم وجود الأدوية والإمكانات المادية من آلات إلكترونية للاستشعار فالمغاربة يعانون في هذا العصر في كثير من الجهات بهجوم الجراد فلايستطيعون له دواء إلا بجهد جهيد وفي كثير من الأوقات بعد فوات الأوان. وإذا كان هذا هو الحال والإمكانات موجودة ، فكيف يمكن الحديث عن القضاء عليه أو إيجاد حل له في الفترات السابقة والتي لم تتوفر فيها إلا طاقات الفلاحين والعاملين في الفلاحة ، لذلك كانت محاصرة هذه الآفة ضعيفة ، فكان اجتياح الجراد يؤدي إلى أزمة غذائية كما وقع في أوائل سنة 1778/1193 التي كان فيها هجوم الجراد ، ووقع موت البقر حتى كاد ينقطع في كل الأرض من الجدب" (42) وقبلها عرفت سنة 1138 / 1727 بجائحة الجراد بالعدوتين (43).

أما بالنسبة للعامل البشري ، فإن أهم فترة عرفت أزمة غذائية حادة بسبب القحط الذي تلاه أو واكبه التسلط البشري والفتن ، هي فترة السلطان محمد بن عربية الذي لقبه المغاربة بالكايلا - (1149 / 1736 - 1151 / 1738) - كما سبق لهم أن أطلقوا بعض النعوث على سنوات الأزمة مثل عام اليبسة وعام اللوبية وغيرهما .

لقد أطلق هذا السلطان "أيدي النهب في أموال المسلمين وأخذ هو في استخراج الحبوب والأقوات من دور أهل مكناسة غصبا، وبحث عنها في الأهراء والمطامير وكل من ذكر له أن عنده قمحا أو شعيرا قبض عليه ، وصادره إلى أن يظهر ما عنده ، وكل من جلب من أهل البادية حبا أخذ منه كرها فكثر الهرج وعمت الفتنة وفر الناس من مدينتهم وعم النهب خارجها وانقطعت السبل ووقع الناس في حيص بيص والأمر لله وحده "(44).

بعد ذكر هذه العوامل ننتقل إلى البدائل الغذائية التي لجأ إليها المغاربة في فترات الأزمات .

البدائل الغذائية :
لقد سبق أن أشرنا إلى أن المغاربة كانوا كغيرهم يهتمون بتغذيتهم ، لكن حينما تقع أزمة غذائية ، يفكرون في بعض البدائل للحفاظ على حياتهم ، هذا بالنسبة لعامة الناس. ومن البدائل :

- الخبز الأسود إذا انعدم الدقيق الأبيض .
- أوراق أشجار إذا وجدت .
- بعض المزروعات مثل اللوبية (45).
- بعض النباتات مثل إيرني (46).

ـ نخالة الشعير وقشور الفول ، وعظم النبق وعجم التمر وعجم تاسلغوا (وهي الخروب) والفيتور (47).

وحين اشتد الجوع بالناس ولم يجدوا شيئا مما سبق ذكره "أكلت النساء والصبيان من شدة الجوع ورجمت امرأتان بباب العجيسة بسبب ذلك وقتلت امرأتان بالدوح بسبب ذلك وأكلت الجيف والدم "(48). ومن لا يستطيع أكل الجيف يموت جوعا بحيث "مات من الجوع عدد لايحصى ، وأخبر صاحب المارستان أنه كفن في رجب وشعبان ورمضان ثمانين ألفا وكذا دون من يكفنه أهله"(49) وكان هذا سنة 1150هـ /1734م.

لكن هناك فئات خوفا على أنفسها من الهلاك تهاجر إلى المناطق السالمة ، أو المناطق التي بها بعض البدائل كما وقع لأهل فاس في سنة 1150 / 1737 ، حيث خرجوا إلى تطوان وغيرها من المدن المغربية بالشمال .

نتائج هذه الأزمات على الساكنة المغربية وموقف المخزن :

ـ إن هذه الدراسة التي قمنا بها نستشف منها بعض النتائج :

ـ أن الأزمات الغذائية التي عرفها المغاربة خلال الفترة المدروسة لم يعتبروا بها خلال الفترات التاريخية اللاحقة.

ـ هذه الأزمات الغذائية أدت إلى فقر أرض بعض الجهات من المغرب بسبب التصحر لقلة الأمطار وكذلك أدى ذلك إلى انخفاض الساكنة بهذه المناطق.

ـ إن المخزن لم يكن باستطاعته حل هذه الأزمات الغذائية ، إلا ماكان في عهد السلطان سيدي محمد بن عبدالله الذي كان يخرج ما عنده ويوزعه على الفقراء في فاس، إلا أن هذا لم يكن عاما لذلك لم يحل الأزمة ، بحيث يمكن اعتبار هذا الحل ترقيعيا وليس حلا جذريا للأزمة .

الهوامش :

1) ـ رحلة الأسير مويط ، تعريب محمد حجي ومحمد الأخضر ، ص : 74.
2) ـ نفس المرجع ، ص : 74.
3) ـ نفس المرجع ، ص : 77.
4) ـ نفس المرجع ، ص : 77.
5) ـ نفس المرجع ، ص : 20.
6) ـ نفس المرجع ، ص : 43.
7) ـ نفس المرجع ، ص : 44.
8) ـ رحلة الأسير مويط ، تعريب محمد حجي ومحمد الأخضر ، ص : 49.
9) ـ نفس المرجع ، ص : 100.
10) ـ فرنسي وقع في الأسر بالمغرب سنة 1670 م ، وأطلق سراحه بعد افتدائه من الرهبان الفرنسيين يوم 19 يوليوز 1681م. أنظر : رحلة الأسير مويط ، ص : 6.
11) ـ رحلة الأسير مويط ، ص : 137.
12) ـ نفس المصدر ، ص : 29.
13) ـ نفس المصدر .
14) ـ نفس المصدر ، ص : 22.
15) ـ نفس المصدر ، ص : 23.

16) - نفس المصدر ، ص : 24.
17) - نفس المصدر ، ص : 29.
18) - الضعيف ، تاريخ الدولة السعيدة ، تحقيق أحمد العماري، ص : 60.
19) - الصاع ونصف صاع يساوي مد ، أنظر : الضعيف ، ص : 63.
20) - الضعيف ، ص : 62.
21) - الضعيف ، ص :62.
22) - القادري ، حوليات نشر المثاني ، تقديم وتحقيق : نورمان سيكار ، قدم له : عبد الهادي التازي ، ص : 11.
23) - الجيش العرمرم ، ج 1 ، ص : 29.
24) - القادري ، حوليات نشر المثاني ، ص : 11.
25) - الضعيف ، ص : 97.
26) - حوليات نشر المثاني ، ص : 30.
27) - نفس المصدر ، ص : 38.
28) - نفس المصدر ، ص : 46 - 47.
29) - نفس المصدر ، ص : 47.
30) - نفس المصدر ، ص : 48.
31) - نفس المصدر ، ص : 50.
32) - حوليات نشر المثاني ، ص : 51.
33) - نفس المصدر ، ص : 54.
34) - الضعيف ، ص : 141.
35) - نفس المصدر ، ص : 153.
36) - نفس المصدر ، ص : 155.
37) - الضعيف ، ص : 178.
38) - نفسه .
39) - نفس المصدر ، ص : 182.
40) - نفس المصدر ، ص : 183.
41) - نفسه .
42) - الضعيف ، ص : 182.
43) - الاستقصا ، ج / 7 ، ص : 113 قال الناصري :" هذا الجراد ، خلف قمله المسمى في لسان المغاربة بأمرد فكان كالسيل العارم لم يترك ورقة خضرا ". ج / 7 ، ص : 113.
44) - الاستقصا ، ج / 7 ، ص : 144.
45) - اللوبية تشبه القمح كانت تأتي من بلاد النصارى دمرهم الله بالسفن وكانوا يبيعونها للمسلمين ويأكلونها وكانت تباع بمدينة سلاو الرباط وغيرهما من مدن الساحل ، وجاءت في زمن الشدة . الضعيف ، ص : 155.
46) - الضعيف ، ص : 155.
47) - حوليات نشر المثاني ، ص : 52.
48) - نفس المصدر ، ص : 54.
49) - أكنسوس ، الجيش العرمرم ، ج ، ص :108. وقد ذكر القادري أنه في شهر جمادى الأولى من سنة 1150هـ / 1737م - بلغ "الموت بمجلس أهل فاس بالجوع نحو السبعة آلاف من الذين دفنهم أهل المارستان ، أما الغير من أهل المدينة فلايحصى عددهم إلا الله تعالى" الحوليات ص : 53.

التغذية والأزمة شرق المغرب
خلال القرن التاسع عشر

ذ. عبد الحق الصدق *.

يأتي اهتمامنا بهذا الموضوع في إطار البحث الذي نقوم به حول المنطقة الشرقية (1) والذي ينصب على دراسة علاقات المدن والأرياف . سيكون العمل مبتورا إذا لم نقف عند تاريخ هذه العلاقات ، وأشكالها لفهم لغز بعض علاقات المدن بالأرياف الموجودة حاليا . إن الكثير من التيارات سواء السكانية أو الاقتصادية أو الخدماتية قد نسجت في الماضي ولازالت آثارها حاضرة اليوم رغم التحولات التي حدثت عليها مع مرور الوقت .

من الصعب دراسة تاريخ المنطقة لعدة لأسباب منها : نذرة الأعمال الوصفية المدققة حول الحالة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لسكان المنطقة ، وخاصة إذا تعلق الأمر بدراسة مجال صغير (كالضفة اليمنى لواد ملوية موضوع الدراسة) الذي تتوزع فيه قبائل عديدة ، ثم الموقع الحدودي والبعد عن السلطة المركزية الذي أكسب المنطقة مميزات خاصة تدفعنا نذرة الوثائق المغربية إلى الاعتماد في هذه الدراسة على الكتابات التي خلفها الفرنسيون عن المنطقة الشرقية رغم الأخطاء الأخلاقية كالكذب والافتراء ... المرتكبة في كتاباتها بدافع تبرير التدخل وفرض الحماية .

إن الحديث عن الأزمة الغذائية بشكل عام يجرنا إلى البحث عن الأسباب المساعدة عليها قبل الحديث عن النتائج ، وللإحاطة بهذه الأسباب لابد من القيام بدراسة للوضعية الاقتصادية للمنطقة المدروسة وللأنشطة المزاولة وللأسباب الأخرى المكملة لذلك كالاستقرار السياسي والأمني ... هذه المداخلة هي عبارة عن محاولة للوقوف علىالحالة الاقتصادية التي كانت عليها المنطقة خلال نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، وكذا التوزيع المجالي للإمكانات الاقتصادية في المنطقة . من خلال :

1) - إبراز الإمكانيات الاقتصادية خلال الفترة المدروسة .

2) - الأساليب المستعملة في تخزين الإنتاج الفلاحي(المرس), والتوزيع الجغرافي للمراسي بالمنطقة المدروسة.

3) - الأسواق ودورها في التغدية والتبادل التجاري وتوزيعه الجغرافي ...

الإمكانات الاقتصادية للمنطقة :

قسم جل الباحثين في التاريخ الضفة اليمنى لواد ملوية إلى ثلاث مناطق مختلفة

---

* أستاذ باحث بكلية الآداب وجدة

وهي المناطق البسيط أو الصحاري أي المناطق السهلية (أنكاد ، تريفة ، طفراطا ، الظهرة) ثم المناطق الجبلية (بني يزناسن ، الزكارة ، بني يعلى ، بني بوزكو) ، وفي الأخير المناطق المحاذية للأودية (زا ، لقصوب ، الحي). ويمكن حسب هذا التقسيم الطبغرافي في توزيع قبائل المنطقة على الشكل التالي : القبائل المستقرة بالجبال ، بني يزناسن ، بني بوزكو، الزكارة ، بني يعلى . قبائل السهول وهي: أهل أنكاد أهل تريفة ،لمهايا ، السجع ، ثم قبائل الظهرة وهي بني مطهر أولاد سيد علي بوشنافة وجزء من لمهايا .

كانت الكثافة السكانية تتوزع في تلك الفترة بشكل يتناسب مع الوحدات الطبغرافية ، إذ سجلت أعلى الكثافات في المناطق الجبلية ، كجبال بني يزناسن ، بني بوزكو ، بني يعلى ، الزكارة ... وترجع الكثافة السكانية القوية بالمناطق الجبلية بشكل عام إلى أنها أكثر أمنا بالإضافة إلى أنها كانت تعرف نشاطا فلاحيا مهما تتنوع فيه المزروعات سواء الشجرية أو الخضرية ، وذلك باستعمال تقنيات رائدة - في تلك الفترة - في استغلال الماء وإنشاء المدرجات تنتشر بأحواض جبال بني يزناسن الحدائق التي تتوزع فيها الخضر والأشجار المثمرة كالتي توجد بمناطق الحوض المتوسطي (2) . بالإضافة إلى ذلك كانت تخصص المجالات الواسعة من أراضي تريفة وأنكاد لزراعة الحبوب "تنتشر في جبال بني يزناسن البساتين والحدائق التي تعتمد على السقي . وكذا الزراعات الشجرية كالحوامض التي تنتج فاكهة من الصنف الجيد ، ونجدها بكثرة بتاكربوست وبزكزل ، ونجدها كذلك في أماكن متفرقة أخرى إذ تحيط بسيدي علي البكاي ، وتوفر بساتين بني يزناسن أنواع أخرى من الأشجار كالرمان والمشمش والسفرجل والتفاح و الإجاص والبرقوق واخوخ والكروم وتنتشر أشجار الزيتون في مختلف المناطق وكذلك الشان بالنسبة لأشجار اللوز التي تنتشر في الأراضي غير السقوية وخاصة في السفوح الجنوبية من بني يزناسن التي تفتقر إلى البساتين ما عدا بالقرب من العين الكبيرة . أما الخضر والقطاني فتتكون من الجلبان ، الحمص ، العدس الفول والبطاطس التي دخلت المنطقة منذ عهد قريب والدليع والبطيخ والقرع ... " (3)، بالإضافة إلى انتشار تربية المواشي خاصة تربية الأبقار التي كانت تعتبر نشاطا مكملا للرعي .

أما المناطق السهلية كبسائط أنكاد وتاوريرت - وجدة وتريفة وطافراطا والظهرة ... فكانت تسجل كثافات ضعيفة ، لأن المناطق السهلية كانت شاسعة وغير مغلالة وتعتمد على الزراعات البورية أو على الرعي . وتتناسب المردودية مع الظروف المناخية التي كان يطغى عليها الجفاف "لم يكن يستغل الأهالي بسهل تريفة إلا الأراضي الخصبة بالطريقة التقليدية . فهم يحرثون ، بل يخدشون الأرض بين فرشات الأحراش والعنب ، وحتى الحشيش المضر لزراعتهم والذي يمتاز بجذوره العميقة لم يجتثوه"(4).

أما المناطق السقوية الموجودة بالقرب من الأودية الدائمة الجريان كواد زا ، واد القصوب فكانت تنتشر بها البساتين التي كانت تخصص لزراعة مختلف الخضر والأشجار المثمرة . تمثل ضفاف واد زا نفس المشهد : تمتاز بغناها الذي تستمده من التوفر المستمر لمياه واد زا وهذا مصدر قوة بلاد زا "(5) و"بعد خروج الواد من الحوض الضيق الذي يتشكل من مرتفعات بني بوزكو على اليمين ومرتفعات بني اعمر وجبل مرج الشوم على

الشمال ، ستغطى ضفاف الواد ، التي كان قبل خروجه مَن هذا الخانق قاحلة ، بالبساتين والحدائق إلى أن يلتقي بواد ملوية ، ويشكل الواد من اتكفاية إلى المصب خطا واحدا من البساتين وخاصة من بني كولال إلى المصب " ... كما كانت للعيون أهمية كبيرة في انتشار المناطق السقوية كمنطقة أغبال ومنطقة تافوغالت ، ومنطقة صفرو ، ومنطقة راس العين عند بني مطهر : تنتشر زراعة ببني مطهر شمال وغرب نقط الماء ... ويعد القمح والشعير من الحبوب المزروعة الرئيسية، ولكن يحضى الشعير بالأهمية الكبرى . بعد الحصاد يزرع الأهالي الذرة والبشنة التي تتناسب جيدا مع الأراضي السقوية (6).

لم تترك لنا الوثائق سواء المغربية أو الفرنسية إشارات واضحة عن مساحة الأراضي التي كانت تزرعها القبائل ولا عن المردودية ، وبالتالي يصعب الحديث عن المردودية وعن أهمية الإنتاج ، ولكن جل المصادر تتفق على أن إنتاج الحبوب كان يستهدف الاكتفاء الذاتي بالدرجة الأولى " رغم توسع المناطق المحروثة لدى بني مطهر إلا أنهم يكتفون في أغلب الأحيان بما يحتاجونه خلال السنة بدون أن يبحثوا في الزراعة عن مصدر الربح "(7). وهذه الأفكار مقبولة على أساس أن الإمكانيات المستعملة لم تكن تسمح بالقيام بزراعة تتجاوز حدود الاكتفاء الذاتي رغم ما جاءت به المصادر الفرنسية من إشارات لبيع الحبوب من طرف القبائل المغربية في الأسواق الجزائرية . أهم ما يمكن استنتاجه من خلال ما جاء به الذين أرخوا للمنطقة أن الإنتاج كان متنوعا بها ومتوفرا بالجهات التي كانت تعرف كثافات سكانية مهمة ، ويظهر من خلال خريطة توزيع المنتوج تخصص بعض المناطق في منتوج معين ، فالجهات الجبلية كانت تتخصص في إنتاج الخضروات والفواكه ، والمناطق السهلية الشمالية كانت تتخصص في إنتاج الحبوب ، بينما كانت المناطق الجنوبية تتخصص في إنتاج اللحوم . فتكامل المناطق في ما بينها سيظهر في الأسواق الأسبوعية التي كانت تتناسب كثافة انتشارها مع أهمية المنتوج وأهمية الساكنة كذلك . وتعتبر المراسي من العناصر الهامة لمعرفة مدى أهمية المنتوج .

دور المراسي (8) في التخفيف من حدة الأزمات الاقتصادية :

حرصا من كل قبيلة على أمنها الغذائي كانت تلجأ إلى وسائل متعددة ومتنوعة لخزن منتوجها الفلاحي ويمثل حفر مطامير لخزن المنتوج الزراعي الوسيلة الأكثر استعمالا وانتشارا بالمنطقة . إن دراسة هذا العنصر له أهمية كبرى بحيث يمكن أن يعطينا فكرة عن احتياطي القبيلة ، وكذا عن أهمية إنتاجها .

إن اختيار أماكن المرس لم يكن عشوائيا ، وإنما كان مدروسا ، فلم تكن تكتفي القبيلة بوضع محصولها في مكان واحد ، بل كانت تنوع الأماكن ، وذلك خوفا من الهجمات المباغتة نتيجة التحالفات التي كانت تقام بين القبائل . وداخل نفس القبيلة كانت الفخذات تتعاون فيما بينها لخزن المنتوج . فعند بني منكوش كانت فخذة بني خلوف تخزن حبوبها - بالإضافة إلى المراسي التي كانت توجد بمجالها الحيوي - في مراسي توملت غير البعيدة عن صفرو. مقابل ذلك كان أهل صفرو يخزنون حبوبهم عند بني خلوف ، بالإضافة إلى المراسي الأخرى التي تبرز في الجدول . كانت تحفر المراسي بالقرب من الأسواق وبالقرب من

الأولياء أو بالقرب من أهم التجمعات السكنية داخل المنازل كما هو الشأن بالنسبة للوجادة وأولاد المنكار ، كما كانت تقام الحراسة على بعض المراسي .

كانت توجد أهم مراسي بني يزناسن بالمكان المسمى بغذان الذي يقع بمجال بني خالد عند فخذة أولاد الطاهر ، وكانت تحتل مساحة تقدر ب 15 هكتار . وكانت تخزن فيها فخذات بني يزناسن وبعض القبائل المجاورة شعيرها وقمحها وزبدتها . والاحتياطي الذي كان يوجد بهذه المراسي كان يكفي لتغذية جيش كبير لعدة أشهر (9). وتعتبر مراسي الزكارة من أهم المراسي كذلك ، وكانت تشمل ما بين 150-200 مرس تخزن فيها عدة قبائل منتجاتها .

جدول رقم (1) : توزيع المراسي حسب الفخذات بمنطقة الشمال الشرقي خلال أواخر القرن التاسع عشر .

اسم أماكن المرس	إسم الفخذات والقبائل التي تخزن حبوبها في المرس
البيوض	هوارة
سيدي المختار	هوارة
القلعة	لعثامنة - أولاد منصور
عيون سيدي ملوك	السجع
لحمام - زناكة - لمعزيز (فجيج)	أولاد سيدي علي بوشنافة
على بعد 1 كلم من تاكربوصة	زكزل
مرس بوسعيد عند بني موسى	بني عتيق
تازرين	بني عتيق
سوق شراعة	بني وريمش - بني محيو
سوق الأربعاء (بني وريمش)	بني محيو
(تاكما لوطا) عند هوارة	بني وريمش - بني محيو
ا. زايد (تيريت)	أهل تاغجيرت
بتيزي علي	ا. الغازي - أولاد علي أوماس
بتاغجيرت	ا. المنكار
غنان	كل فخذات بني خالد
زاوية أولاد سيدي رمضان	ا. علي أو ماسا
تومليلت (غير بعيد عن صفرو)	بني خلوف - لبصارة - أهل صفرو
عند بني خلوف	لبصارة - أهل صفرو
صفرو	أهل صفرو
سيدي سلطان	لمزاوير - بني وكيل
سيدي درفوف	لمزاوير

تريفة	لعثامنة (المزاوير)
خضران	لعثامنة (المزاوير) - بني وكيل
وجدة	ا. أحمد بن ابراهيم (الشراكة) - ا. علي بن طلحة
تنسايف (قرب وجدة)	ا. أحمد بن إبراهيم (الشراكة) - ا. علي بن طلحة
قصبة كرسيف (أولاد مسعود)	هوارة
قصبة أولاد حمو	هوارة
قصبة أمسون	هوارة
بجبل الزكارة	الزكارة
ببوصالح على بعد 1500 متر من تيزي	الزكارة
بالقرب من النهر (إيسلي)	الزكارة
أولاد بوبكر عند بني حمليل	لمهايا
قصبة سيدي ذاوود براس العين	بني مطهر
بتانشرفي قرب دار القائد	بني بوزكو
بقبة سيدي محمد السعيدي	بني بوزكو
تازوين عند أولاد الحاج	بني بوزكو
جبل بني يعلى	أولاد بختي
جبل بني بوزكو	أولاد بختي
بموقع دار الشيخ	بني كولال
تاقبلة بالجزائر	كل فخدات أنكاد
امسيردة بالجزائر	بني درار

بالإضافة إلى المراسي الموجودة داخل المنطقة ، كانت تخزن قبائل المنطقة منتوجها في مراسي موجودة بالجزائر . ويعود ذلك إلى أن القبائل المجاورة للحدود التي كانت تحرث الأراضي ، أصبحت بموجب اتفاقية للامغنية 1845 في عداد الأراضي الجزائرية . ونشير في هذا الصدد إلى الاستغلال المشترك بين أنكاد وبني خالد وبني واسين لبعض الأراضي (كمنطقة جبل بيرو التي توجد على بعد ثلاث كيلومترات شمال شرق مركز بني ادرار) . جاء في رسالة مؤرخة بتاريخ 6 مايو 1856 موجهة من قائد وهران السيد دومانتوبون إلى قائد تلمسان:"أخبروا بني درار الذين يحرثون فوق أراضينا بأنهم سيتركون جزءا من محصولهم الزراعي لتعويض قبائلناالتي انتهبت من طرف جيرانهم " (10). كانت تحرث جل القبائل

المغربية المتاخمة للحدود أراضي تقع بالتراب الجزائري « بلغت المساحة المزروعة من طرف المغاربة داخل ترابنا (الموسم الفلاحي 1873 - 1874) 117 سكة أي ما يقارب الألف هكتار وتتوزع المساحة المزروعة حسب المستفيدين على الشكل التالي:50 سكة لبني درار ، 25 سكة لأنكاد ،42 سكة لبني حمليل» (11) . وجاء في رسالة مؤرخة بتاريخ 21 يونيو 1874 من قائد مغنيةبرينوتيار إلى قائد تلمسان :" أنكاد الذين حرثوا 25 سكة داخل ترابنا يحفرون في عين المكان مطامير لخزن منتوجهم "(12) . بالمقابل لذلك كانت تحرث قبائل جزائرية أراضي تقع في التراب المغربي . ويتضح ذلك من خلال رسالة مؤرخة بتاريخ 27 نونبر 1880 من قائد مغنية إلى قائد تلمسان : " لقد منع المخزن المغربي أفراد من قبيلة بني منكوش (الجزائرية) من حرث أراضي بتريفة ... "(13) . وجاء في رسالة مؤرخة بتاريخ 17 نونبر 1874 موجهة من قائد تلمسان إلى قائد وهران : "لقد قامت اعداد كبيرة من قبيلة عطية بحرث حوالي 25 سكة في التراب المغربي خلال الموسم الفلاحي الماضي (1879 - 1880)..."(14).

كانت تستعمل السلطات الفرنسية المراسي الموجودة فوق ترابها كورقة ضغط على القبائل المغربية عند حصول نزاع ما . ولم تنج المطامير الموجودة في الجهة المغربية من نهب السلطات الفرنسية التي كانت تدخلها ضمن عملية تأديب القبائل المغربية المناهضة لفرنسا . لم تكن فرنسا وحدها التي تعلم بمراسي القبائل المغربية وتتخذها كورقة ضغط ، بل السلطات المغربية كذلك كانت تلجأ في بعض الأحيان إلى هذا الأسلوب "لقد صرح لنا الموظف الشريفي (عبد السلام ولد بوشتى) بأنه عاجز عن قمع مناوشات بني خالد ، ولذا فهو يطلب منا مساعدته على معاقبة الجناة وذلك بوقف قوافلهم التي تتردد على الأسواق الجزائرية وبعثها للموظف الشريفي،وطلب منا كذلك حجز حبوبهم المخزونة في المراسي الموجودة فوق التراب الجزائري "(15) (وقع هذا بعد تكرار الاعتداءات على السكان المجاورين للحدود سنة 1892) ، فالجملة الأخيرة تؤكد بأن جل القبائل التي تستوطن المجالات الحدودية تتوفر بالإضافة إلى المراسي الموجودة داخل الحدود على مراسي داخل التراب الجزائري ، وجاء في التقرير السنوي لمكتب الشؤون العربية لمغنية سنة 1875 " لقد وصلت أخبار يوم 13 يناير إلى مواطنينا على الحدود مفادها تحرك بنوا يزناسن لمهاجمة دواوير بني بوسعيد التي كانت تقيم بعين تاقبلت ، مما خلق جوا من الهلع أدى بمواطنينا إلى حمل السلاح . وكان تحرك بني يزناسن في الحقيقة موجها أساسا لمهاجمة قافلة كبيرة جدا لأنكاد كانت محملة بالحبوب التي اخرجتها من مطاميرها التي توجد عندنا بعين تاقبلت " (16).

الرعي من أهم الموارد الاقتصادية لقبائل المنطقة :

سنعتمد في هذا العنصر على أهم الإحصائيات التي جاء بها دولاكروا ولامارتينيار (17) لأنها أكثر شمولية وإحاطة بالموضوع ، بالإضافة إلى الإشارات التي جاءت في كتابات باحثين آخرين . واعتمادا على بعض الإحصائيات المتوفرة على أهمية قطيع الماشية نحاول دراسة القوة الاقتصادية لكل قبيلة داخل المنطقة من خلال القطيع المتوفر لكل خيمة . ونمثل ذلك داخل الجدول التالي :

الجدول رقم (2) : نسبة الماشية لكل خيمة داخل القبيلة سنة 1893.

القبيلـــة	الأغنـــام	الماعـــز	الأبقـــار	الجمـــال
بني بوزكو	10	3	1	0
بني وكيل	117	9	1	2
بني يعلى	54	26	2	0
الزكارة	40	48	1	0
لمهايا	127	39	0	6
بني مطهر	63	20	6	0
السجع	161	13	1	5
أنكاد	88	11	1	1
تريفة	52	8	5	0
بني خالد	27	15	8	0
بني منكوش	23	10	4	0
بني عتيق	28	5	2	0
بنـــي وريمش	62	11	4	0
وجدة	1	1	1	0
ا.س.علـــي بوشنافة	166	14	0	2
المتوســط داخــل المنطقة	67	16	2	1

المصدر : بتصرف عن لامارتينيار ودولاكروا.

تعطينا هذه العمليات الإحصائيــة فكرة أخرى عن أهميـة القبيلـة داخل مجموع قبـائل المنطقة ، وتختلـف هذه الطريقـة الحسابية عن العمليات التي اعتدناها في دراساتنا للقوة الاقتصادية للقبائل (18) التي كانت تعتمد بالأساس على أهمية القبيلة من حيث العدد فقط .

ويتضح من خلال الجدول بأن قبائل المنطقة كانت ميسورة إذ وصل معدل الأغنام لكل خيمة 67 راس من الأغنام وبقرتين (19) ، علما بـأن هنـاك تباينـا بيـن القبـائل ، بحيث تعتبر قبيلة أولاد سيدي علي بوشنافة من أغنى القبائل ب 166 راس من الغنام لكل خيمة ، وهي من القبائل المتخصصة في الرعـي ، بالإضافـة إلـى لمـهايا والسـجع لكونـها تتوفـر علـى منـاطق رعوية جد شاسعة . بينما نلاحظ أن اهمية تربية الأبقار تزداد عند القبـائل المسـتقرة بالجبـال وبالقرب من نقط الماء كقبائل بني يزناسن ، تريفة ثم عين بني مطهر .

تنتشر تربية الأبقار بالمنـاطق التـي تمتـاز بوفـرة الميـاه والأكل كمـا هـو الشـأن بالنسـبة للمناطق الجبلية أو المناطق التي توجد بها العيون كعين بني مطهر "تستقر قبيلـة بنـي مطـهر في منطقة غنية بالماء والزراعة السقوية مما ساعدها على تربية الأبقـار بشـكل واسـع "(20) .

ويوضح الجدول بأن متوسط الأبقار لكل خيمة يصل إلى ستة . وهكذا تحتل هذه القبيلة المرتبة الثانية بعد بني خالد بما مجموعه 1030 بقرة . "... تعد الأبقار المستقدمة من قبائل المغرب من أجود الأبقار المعروضة بالسوق ، ويصل وزنها في المعدل إلى 300 كيلو غرام وتأتي من بني بوزكو وبرابر وكبدانة وبني يزناسن " (21) . لكن رغم أهمية ثروة القطيع ، فيمكن أن يضيع هذا القطيع خلال سنة واحدة من الجفاف أو بسبب انتشار وباء للحيوانات ، وبالتالي يجب الاحتياط من هذا المقياس .

ويظهر من خلال الجدول رقم (2) بأن قبائل شرق المغرب كانت ميسورة وأن ما جاء به من مراسلات من القواد إلى السلطان تشتكي فيها الجفاف والقحط والمجاعة منافية للواقع الذي تحدث عنه الكثير من الفرنسيين . ونستدل على ذلك بسنة 1893 ، فهي حسب الإحصائيات التي قدمها الفرنسيون سنة خير ورخاء ، بينما تقدمها الوثائق المغربية سنة مجاعة وقحط . وهذا ما يظهر من خلال سنوات الجفاف والقحط والمجاعة التي جمعها بعض المؤرخين الذين اهتموا بالمنطقة ، والتي جاءت كالتالي (22):

" - من سنة 1876 إلى سنة 1885 : جفاف وقحط .
- سنة 1892 : جراد .
- من سنة 1895 إلى سنة 1896 : جفاف وقحط .
- من سنة 1897 إلى سنة 1899 : مجاعة .
- من سنة 1903 إلى سنة 1905 : جفاف وقحط".

يمكن أن نرجع هذه المبالغة إلى كونها مجرد تحايل من طرف القواد لتبرير عجزهم عن استخلاص الزكاة والضرائب من القبائل التي يشرفون عليها . إن الوضعية مابين 1876 إلى سنة 1905 والتي تصادف 15 سنة جافة و11 سنة عادية لن تسمح بتكوين قطيع من الماشية بنفس العدد والأهمية التي جاء به الكتاب الفرنسيون الذين عايشوا المرحلة . ويرجع البعض وجود هذا القطيع المهم إلى المساحة الشاسعة للمراعي في المنطقة الشرقية والتكامل مابين السهل والجبل (الانتجاع) ، طفراطة تعتبر ملتقى للرعاة (23) تؤمها قبائل مختلفة وخاصة عندما تكون السنة جيدة (أي مطيرة) وهي أولاد الحاج وأهل ركو وهوارة والأحلاف وجزء من السجع . اما لمهايا فتنزل بقطيعها جنوبا نحو الظهرة ، أما أولاد سيدي علي بوشنافة يدفعون بقطيعهم إلى حدود تالسينت وفكيك حسب الظروف المناخية ... السبب هو كون جل القبائل الموجودة على خط الحدود كانت تدفع بقطيعها نحو الجزائر " العشرون دوار الذين يوجدون داخل ترابنا والذي سبق لي أن أشرت إليهم في مراسلات سابقة لايقومون كلهم بالحرث ... أما الذين لايحرثون فهم يرعون ماشيتهم والتي يصلون بها إلى حدود تافنة . لقدد أحطتكم علما بسلبيات هذا الغزو والذي كان كبيرا هذه السنة (1874) بسبب الجفاف . كل مراعي بني واسين قد أتلفت مما اضطرني إلى توزيع قطعان بني واسين بين قبائل الدائرة لكي لايموتون جوعا "(24) . وأشارت عدة تقارير فرنسية إلى دخول قطيع القبائل المغربية نحو الجزائر وإلى الخسائر التي كانت تنجم عن ذلك" مع بداية أكتوبر 1876 انسلت عدة دواوير مغربية من بني واسين وبني بوسعيد حيث خلف قطيعهم خسائر بالغة ... "(25) كما أن الصراع كان محتدما بين القبائل المغربية حول المراعي إلى درجة إن القبائل الجزائرية المجاورة للحدود المغربية كانت تفزع كلما انتشر الأمن بين القبائل المغربية لأنه " كلما

وقف الصراع بين بني يزناسـن وانكـاد تدفـع هـذه الأخيرة ماشـيتها نحـو الجزائـر بحثـا عـن المراعي ، وبما أن الكلأ مفقود كما هو الشـأن بالنسـبة لمراعـي جيراننـا فـإن الرعـاة يتلفـون الزرع وأشجار الزيتون ... "(26) ولكن كان بإمكان انتشار الأمن وخاصـة حينما تكـون السـنة مطيرة أن يؤدي إلى خلق علاقات أخرى ، " ساد الأمن التام بين بني يزناسن وانكـاد (يونيـو 1876) . فانهمك بنو يزناسن بحصد منتوجـهم بجبلـهم : بينمـا توجـد قبيلـة أنكـاد بالشـط رفقـة قطيعها "(27).

تغذي هذه المنـاطق الجنوبيـة جـل أسـواق الجهـة سـواء المغربيـة أو الجزائريـة بالماشـية ومقـابل ذلـك تتبضـع بكـل مـا تحتـاج إليـه مـن المـواد المختلفـة سـواء محليـة أو أجنبيـة ، والمعروضـة في الأسواق .

الأسواق ودورها في انـتشار المنـتجات المستوردة من المناطق المختلفة :

للأسواق دور مهم في انتشار بعـض المنتجـات المسـتوردة مـن منـاطق بعيـدة وتصريـق منتجات المنطقة . قد مكنت الأسواق من التأثير على إنسان المنطقة وذلك بتنويع المـواد التـي يستهلكها ، ودخلت مواد جديدة في لائحة المواد المستهلكة ، وخاصـة تلك التي كـانت تسـتورد عبر مليلية والموانـيء الجزائرية . وبموازاة مع ذلك عمد سكان القبائل إلى الرفع من الإنتـاج الفلاحي والحيواني المخصص للتصدير . ولعل ارتفـاع أرقـام المعـاملات التجاريـة فـي هـذه الفترة خير دليل على ذلك .

لقد أدخلت المبادلات التجارية سواء عبر الأسواق المغربيـة أو الأسـواق الجزائريـة نمـط عيش جديد للمنطقة، فأصبحت مرتبطـة بالخارج ، وهذه التبعية الاقتصـادية بمفهومـها الحـالي هي التي كان يتوخاها المعمر " تعتبر التجـارة مـن العنـاصر الأساسية للاسـتعمار السـلمي ، ويجب تعويد المغربي على استهلاك موادنا ويجب وضعها في متناوله في أحسـن الظـروف ، كما يجب علينا شراء منتجاته بأثمان مشجعة بالنسبة لهم ولنا . بكل اختصـار يجـب السـيطرة على الجانب الأكبر من السوق المغربي"(28)، وأكثر ما كانت تخشـاه فرنسـا فـي المنطقـة هـو تطور العلاقات التجارية بيـن قبـائل المنطقـة والمنطقـة التجاريـة الحـرة التـي أنشـأتها اسبانيا بمليلية . فمنذ دخول فرنسا للجزائر حـاولت بشـتى الوسـائل أن تبسـط نفوذهـا علـى المغـرب، ويظهر ذلك جليا من خلال المعاهدات المبرمة بين المغرب وفرنسا. فقد هدفت من وراء خلق الأسواق المزدوجة الجزائرية - المغربية إلى وضـع حد لهيمنة الأسواق المغربيـة التـي كـانت تبسط نفوذها التجاري إلى داخل الجزائر - إلـى حـدود مدينـة وهران - حيث كـانت تعـرض البضائع الإنجليزية والفرنسية والاسبانية المستوردة عبر ميناء مليلية .

وتعتبر الأسواق من المعايير الأساسية لتحديد القـوة الاقتصـاديـة للمنـاطق التـي تخلـو مـن المراكز الحضرية . وتتحكم في توزيع انتشـار الأسـواق ببـوادي المنطقـة عدة عنـاصر منـها ماهو عسكري - سياسي ، ومنها مـاهو اقتصـادي (أهمية المنتوج ..) ، كمـا للعنصـر البشـري دور في هـذا المجـال مـن خـلال الكثافـة السـكانية ودرجـة الاسـتقرار أو الترحـال ثـم الموقـع والموضـع الجغرافي للقبيلـة (البعـد أو القـرب مـن التخـوم - المحـاور الطرقيـة - المنـاطق الطبغرافية السهلة أو الوعرة).

جدول رقم(3) : توزيع الأسواق بالشمال الشرقي للمغرب خلال القرن التاسع عشر .

إســم القبيلـــة	إسـم الســـوق
لكرارمة	دار الشاوي
الشجع	قصبة العيون
هوارة	هوارة
الزكارة	مستفركي
بني مطهر	بنو مطهر
بني بوزكو	تانشرفي
ا. بختي - أ. اعمر	قبة سيدي علي ساما
ا. الغازي ا. المنكار	أغبال
بني درار	القصبة
ا. علي أوماس	الكدارة
لبصارة	بني موسى
أهل صفرو	العين الكبيرة
ا. منصور	الحيمر
ا. منصور	عجرود
بنو عتيك الدخلاء	تاخوت
بنو وريمش	أربعاء بني وريمش
	سوق الاثنين
	زاوية مولاي الطيب
هوارة (تريفة)	شراعة
لوجادة	وجدة
تاغجيرت	تسانيا

ومن خلال خريطة توزيع الأسواق بالمنطقة نلاحظ أن كثافة الأسواق تتناسب إلى حد كبير مع الكثافة السكانية (29). ففي المناطق ذات الكثافة الضعيفة كالهضاب العليا تقل الأسواق مما سيسمح لأسواق طريق السلطان (30) بالإضافة إلى أسواق أخرى كدبدو وبركنت (عين بني مطهر فيما بعد) ببسط نفوذها التجاري وإشعاعها في اتجاه الجنوب إلى حدود قبيلة أولاد سيدي علي بوشنافة . عرفت المناطق التي تميزت بكثافة سكانية مرتفعة بأسواق من الحجم الكبير بالإضافة إلى الانتشار الواسع لها ...(مثال جبال بني يزناسن التي تحتضن لوحدها عشرة أسواق).

وكانت قبائل المنطقة تتردد على الأسواق الجزائرية كذلك لبيع منتوجها كالحبوب " لقد بلغني بأن بني درار قد أتوا بالحبوب إلى مسيردة الذين تربطهم بهم علاقات تجارية منتظمة "(31)، كما تعتبر الماشية أهم منتوج لقبائل المنطقة. جاء في رسالة مؤرخة بتاريخ 26 أكتوبر 1856 من قائد نمورس السيد بوفور إلى قائد تلمسان " لقد أخبرنا مؤخرا بوجود 19

راس من الأبقار عند لحسابنا أودعها إياها بنو وريمش ، فبعثنا بقائد مسيردة الذي احتجز القطيع في سوق عطية بدون أي عناء وقد بيع في السوق ب 1510 فرنك فرنسي . اطلب منكم أن نستعمل هذه النقوذ لتعويض الأشخاص المنتمين إلينا والذين تضرروا من سرقات بني يزناسن "(32).

لقد بلغت قيمة الصادرات المغربية نحو الجزائر سنة 1904 (33) مبلغ 4861124 فرنك فرنسي ، 62 % من الصادرات مصدره الأبقار والأغنام التي بلغت بالتتابع : الأبقار 1649452 فرنك فرنسي والأغنام 137.642 فرنك فرنسي . وحسب الإحصائيات التي كانت تنشرها مجلة افريقيا الفرنسية تظهر لنا بوضوح أهمية الأغنام في العمليات التجارية بين قبائل المنطقة والأسواق الجزائرية المجاورة ، تقدربأكثرمن100000 راس غنم مبيعات المغاربة في أسواق دائرة تلمسان وخاصة بسوق مغنية ، وتزداد أهمية هذه التجارة كل يوم نظرا لجودة الأغنام المغربية بالمقارنة مع نظيرتها الجزائرية "(34). أما الأبقار التي كانت تباع بالجزائر فمصدرها من مناطق مغربية مختلفة بحيث كانت تأتي من منطقة فاس وبعد أن تعبر واد ملوية كانت تنقل من طرف بني وكيل إلى الجزائر لبيعها مقابل أجر يتفق عليه مسبقا .

ويبدو حسب المعطيات التي جاء بها الكتاب الفرنسيون الذين اهتموا بالمنطقة (على الأقل منذ الدخول الفرنسي للجزائر) أنها لم تعرف عجزا في المواد الغذائية الأساسية بل استفادت من موقعها بالقرب من الوجود الفرنسي بالجزائر ، بحيث عرفت الحركة التجارية رواجا كبيرا وخاصة بعد اشتداد الصراع الفرنسي الإسباني حول السوق الاستهلاكية المغربية . وكانت تعرض السلع المختلفة في الأسواق المغربية إلى درجة أن الجزائريين أصبحوا يتبضعون من الأسواق المغربية من سوق الحيمر ومن أسواق بني يزناسن . فهل يمكن والحالة هذه أن نتحدث عن الأزمة انطلاقا من الوثائق المغربية الرسمية ، أو نتحدث عن الرخاء انطلاقا من كتابات من كانت لهم نوايا استعمارية ؟ وماهي مصلحة الفرنسيين في المبالغة بالحديث عن الإمكانيات الاقتصادية للمنطقة وهم الذين كانوا يخططون للدخول إلى المغرب ؟ ... إن الدراسات الميدانية الدقيقة هي التي تعكس الواقع ، خاصة إذا ماكانت المرحلة المدروسة دقيقة والمجال الجغرافي محدودا .

لقد لاحظنا أن الموقع ساهم إلى حد كبير في بلورة المعطيات الاقتصادية لمنطقة شمال المغرب وفي التخفيف من حالات الخلل الاقتصادي بها في الفترة المدروسة . فهل ساهم الموقع في تجسيد نفس الدور بباقي المناطق الحدودية في نفس الفترة ؟

الهوامش :

1) - يهيء الباحث دكتوراه الدولة في الجغرافيا حول موضوع "علاقات المدن والأرياف في المغرب الشرقي والتحولات المجالية " تحت إشراف الأستاذ الطاك بوطيب .

2) - Boigey Docteur (1911) : " Le massif montagneux des Beni Snassen et ses abords (Maroc))"In revue de géographie page 65.

3) - Joly A.(1912) : " Simples notes géographiques sur les Beni-Znassen, recueillies en 1908"In B.S.G.A.A. 18émé année ;2éme trimestre page 526.

4) نفس المرجع السابق الصفحة 62 Boigey Docteur (1911) .

5) - VICOMTE CH. DE FOUCAULD (1888) : " Reconnaissance du Maroc 1883-1884" p.p. 251-252.

6) - Galinier C.(1917) : " les Beni Mathar de Ras el aïn (Berguent) " p. 151.

7) - Galinier C.(1917) "les Beni Mathar de Ras el aïn(Berguent) " p.152.

8) - تطلق المراسي في العصر الوسيط المغربي في معظم الأحيان على مخازن السلطة ، وقد تسمى كذلك بالأهراء ، وفي الشمال كانت تسمى القلهرة (كلمة اسبانية الأصل) . أما المخازن الخاصة التي كان يمتلكها السكان فتسمى بالاسم المتداول لحد الآن وهو المطمورة.

9) Martin (1894) : « Documents pour servir à l'étude du Nord-Ouest Africain » lille 1894-1897 volume 1, p.257.

10) - وردت الرسالة عند فوانو في :

Voinot L. (1914) : « les actes d'hostilité des émigrés et des marocains surtout des Beni Snassen et les opérations effectuées par les français notamment en 1856 » p. 277.

11) - Voinot L.(1922) : « une phase curieuse des rapports des autorités algériennes avec l'Amalat d'Oujda 1873-1874 » p. 107.

12) - وردت الرسالة عند فوانو في :

Voinot L.(1922): « une phase curieuse des rapports des autorités algériennes avec l'Amalat d'Oujda 1873-1874 » p. 150.

13) - وردت الرسالة عند فوانو في :

Voinot L.(1924) : le début du système des revendication algériennes contre le Maroc (1876-1881) »p.463.

14) - وردت الرسالة عند فوانو في :

Voinot L.(1924) : " le début du système des revendication algériennes contre le Maroc (1876-1881) "p.460.

15) - Voinot L. (1929) : « Quelques inconvénients de l'anarchie des tribus marocaines voisines de l'Algérie 1890-1892 » pp.20-21.

16) - التقرير السنوي لمكتب الشؤون العربية لمغنية سنة 1875 إمضاء شاربونتي .

Voinot . L.(1923) « L'imbroglio marocain et l'entrevue du général Osmont avec le Sultan à Oujda 1874 - 1876 » p : 241.

17) - Martinière H.M.B. de La et Lacroix N. 1894: documents pour servir à l'étude du Nord-Oujda Africain » lille 1894 - 1897 volume 1.

18) - ولإبراز الاختلاف بين العمليتين الإحصائيتين سنعطي مثال لقبيلة بني وكيل ، بالنسبة للعملية الأولى لايشكل قطيع أغنام قبيلة بني وكيل إلا 2,1 % من مجموع أغنام المنطقة وتحتل بذلك الرتبة الثامنة ، بينما في العملية الحسابية الثانية تحتل قبيلة بني وكيل الرتبة الرابعة ب 117 راس غنم لكل خيمة كما يتضح ذلك من خلال الجدول رقم 1 .

19) - حسب دوماخت « DEMAEGHT « voyage d'études commerciales sur la frontière marocaine p. 25. في شهر شتنبر من سنة 1895 بلغ ثمن الراس من البقر 151.25 فرنك فرنسي ، راس من الأغنام 18.375ف.ف ، الراس من الماعز 13.33 ف.ف. ، الجمل 236.66 ف. ف. ، القنطار من القمح 16.81 ف . ف . القنطار من الشعير 9.12 ف . ف .

20) - Galinier C/1917): « les Beni Mathar de Ras el aïn (Berguent) » p.159

21) - Martinière H.M.P. de la et Lacoix N. (1894): « documents pour servir à l'étude du Nord-Ouest Africain » lille 1894 - 1897 volume 1 .

22) - عكاشة برحاب (1989) : " شمال المغرب الشرقي قبل الاحتلال الفرنسي 1873-1907 " منشورات كلية الأداب المحمدية ، ص 127

23) - Lefévre et Nehlil (1910) : « Larégion de Tafrata et les tribus qui l'habitent , notice historique et géographique » p. 223.

24) - وردت الرسالة عند فوانو في :
Voinot L. (1922) : « une phase curieuse des rapports des autorités algériennes avec l'Amalat d'Oujda 1873 - 1874 » p. 127.
25) - Voinot L. (1924) : le début du système des revendication algeriennes contre le Maroc (1876-1881) p : 396.
26) - - Voinot L.(1924) « le début du système des revendication algeriennes contre le Maroc (1876-1881) » p : 397.
27) - Voinot L. (1923) : « L'imbroglio marocain et l'entrevue du générale Osmont avec le Sultan à Oujda 1874 - 1876 »p. 250.
28) - - Bernard A. (1911) : « les confins Algéro-Marocains » p. 278.
29) - نشكر الأستاذ المواذن الذي أمدنا بنتائج عمله حول الكثافة السكانية قبل أن ينشرها .
30) - هي الطريق التي كان يعبرها السلطان عند رحلته لإلى مدينة وجدة قادما من مدينة فاس وكانت تمر عبر عدة مدن من بينها مدينتي تاوريرت و العيون ...
31) - وردت الرسالة عند فوانو في :
VOINOT L. (1914) : « les actes d'hostilité des émigrés et des marocains surtout des Beni Snassen et les opérations effectuées par les français notamment en 1856 »p.301.
32) - وردت الرسالة عند فوانو في :
VOINOT L. (1914) : « les actes d'hostilité des émigrés et des marocains surtout des Beni Snassen et les opérations effectuées par les français notamment en 1856 »p.301.
33) - Bulletin du comité de l'Afrique Française , année 1906 supplément , p. 68, Repris par : Faujas M. (1906) : « la frontière Algéro-Marocaine » p. 136.
34)- Bulletin du comité de l'Afrique Française , année 1895 supplément , p. 25, Repris par : Faujas M. (1906) : « la frontière Algéro-Marocaine » p. 84.

المجاعات المفتعلة **

إيف لاكوست

ترجمة: ذ. محمد حيدة*

راج الحديث كثيرا ، في الأوقات الأخيرة ، عن المجاعة والجفاف بسبب الأحداث الدرامية التي عاشتها إثيوبيا،وما خلفته من أصداء في وسائل الإعلام الأوربية والأمريكية الشمالية. فقد عرضت القنوات التلفزية والصحف أراضي خالية وأشجار مومياثية وأشباح مؤثرة لرجال ونساء جياع ووجوه أطفال صغار محتضرة.

أثارت هذه الصور تعليقات وافرة في الصحف . فقد رأى فيها البعض تغيرا في المناخ واكتساحا حتميا للصحراء ، بينما رأى البعض الآخر أن الأمر لايتعلق فقط بإفريقيا وبعامل المناخ وحده بل أساسا بـ "التوزيع اللامتكافىء" وبمجموع العالم الثالث.

أما منظمات الغوث ومحاربة الجوع ، سواء تعلق الأمر بالمؤسسات غير الحكومية أو الدولية ، كمنظمة الأغذية والزراعة، فتحاول ، وبشدة ،إسماع صوتها والزيادة في دعمها المادي ، لكنها تدخل في مزايدات حقيقية حول عدد الضحايا المصرح بها : 10 ملايين ، 20 مليونا ، 50 مليونا من ضحايا الجوع سنويا!

وبالنظر إلى هذه التقديرات القياسية ، يتحفظ الديموغرافيون بقوة ، ويلاحظون برصانة أن الخمسين مليونا من : موتى الجوع" التي يرجحها البرلماني الإيطالي المتطرف ماركو بانيلا في نداء موقع سنة 1982 من طرف ثلاثين شخصية حاملة لجائزة نوبل ، تمثل في الواقع مجموع الوفيات ، بما في ذلك الهرم والأمراض والحوادث ، والذي قد ينطبق منطقيا على العالم بأسره .

نعرف،بالفعل ، أن العالم الثالث يشهد منذ ثلاثين سنة تزايدا ديموغرافيا سريعا جدا، بسبب التقلص الهائل في نسب الوفايات والارتفاع الشديد لنسب الولادات والخمود التقريبي والشامل للمجاعات والأوبئة العظمى.

---

* أستاذ باحث بكلية الآداب القنيطرة

* - Yves LACOSTE , Des famines qui ne tombent pas du ciel, Hérodote , n° 39 , 1985 , p p : 3 - 5.

علينا أن لانخلط بين المجاعة وسوء التغذية. فبينما تمثل هذه الأخيرة ، ذات العواقب الوخيمة، ظواهر مزمنة ودائمة ، وتشكل مع الأسف جزءا لايتجزء من الحياة اليومية ، تظل المجاعة الحقيقية حدثا دراميا ذا اتساع إقليمي أو وطني. فهي تثير مظاهر الرعب وتترسخ بوساوسها في الذاكرة الجماعية. وعليه ، تتميز المجاعة، بالمفهوم الدقيق للكلمة ، بتصاعد مهول وعنيف لعدد الوفيات في إقليم ما،وأيضا بكونها ناتجة وعلى نحو مباشر عن عدم الإقتتات فعليا لأيام عديدة. علينا كذلك التمييز بين المجاعة والقحط . فهذا الأخير يمثل فترة خصاص حادة ، غالبا ماتكون موسمية ، خصوصا في مرحلة "الالتحام" ، وهو بذلك لايتسبب في مذبحة جماعية ، ولكن في الزيادة من خطورة سوء التغذية.

إن المجاعة الحقيقية ، المجاعة ـ المذبحة ، التي تعصف بحياة الآلاف ، بل عشرات الآلاف ، وأحيانا الملايين ، كمجاعة البنغال سنة 1943 التي خلفت ، في ظرف بضعة أسابيع أكثر من ثلاثة ملايين ضحية ، لم تمثل ، حتى في الماضي ، سوى كارثة استثنائية نسبيا ، يجدر بالمرء وضعها ، وبدقة ، في إطارها الزمني والمكاني . فهي تقع في مجالات جغرافية محددة، وفي أوقات تتفاعل فيها ، ظرفيا أو مصادفة ، عوامل حاسمة ذات طبيعة مناخية وأيضا سياسية. فمجاعة البنغال سنة 1943 وتلك التي حصلت في الفيتنام سنة 1945 ، نتجتا أساسا عن مضاعفات الحرب العالمية الثانية. وهي سياسية أيضا. فمجاعة الكامبودج مثلا كان قد تسبب فيها الخمير الحمر.

وكما تدل على ذلك بوضوح مقالات جون غالي ومشيل فوشير ، لم تشمل مجاعة إثيوبيا سنة 1984 - 1985 البلاد كلها بل بعض المناطق فقط ، تلك التي تأثرت في السابق بمجاعة 1975 ، والتي تعود مسبباتها إلى عاملي المناخ والسياسة معا .

لايمكن اعتبار مجاعتي إثيوبيا والساحل كنماذج على مجاعة ذات مدى كوني ، بل ، على العكس من ذلك كحالات هي اليوم استثنائية نسبيا. فعلا ، لقد خمدت ، في الوقت الراهن المجاعة الحقيقية ، المجاعة ـ المذبحة ، في أغلب بلدان العالم الثالث، على الرغم من الوجود القوي لسوء التغذية ، وذلك بفعل حذر أجهزة الدولة التي أصبحت تخشى العواقب السياسية التي قد تنتج عن هذه الكوارث.

وعليه ، تمثل مجاعتا إثيوبيا والساحل فضيحة ، لأن تفاديها كان ممكنا. فالمجاعة لاتسقط من السماء فجأة. فمن الممكن التنبؤ بها عدة شهور سلفا ، بالوقوف ، ولو عبر المراقبة الجوية ، على استحالة المحصول الزراعي المقبل ، نظرا لانعدام التساقطات في هذا الإقليم أو ذاك. وبذلك تبقى للحكومات إمكانية تنظيم المساعدات لأسابيع عديدة. وهكذا لايمكن تفسير وقوع الكارثة إلا بنوع من التهاون المقصود ، لأن المجاعة أصبحت اليوم وسيلة للتخلص بطريقة مستترة من بعض الساكنات " المشاغبة"، كرعاة الساحل ، أو القضاء على بعض حركات التمرد.

إن إثارة مايسمى بـ «المجاعة الكونية» والحديث عن أسباب عامة كالتزايد الديموغرافي أو التوزيع اللامتكافيء ، يخفي مسؤولية القادة الذين ساهموا في وقوع المجاعة ببلدانهم. بل

يجدر بنا التأكيد اليوم على إمكانية القضاء على المجاعات ، وأيضا الأوبئة ، في كل أرجاء العالم الثالث.

فالهند مثلا التي كانت تعيش في القرن 19 وبدايات الـ 20 تحت تهديد الجوع ، لم تشهد منذ الاستقلال مجاعة ـ مذبحة على الرغم من الانفجار الديموغرافي الذي رفع ساكنتها من 300 إلى 750 مليون نسمة. فقد أوضحت دراسة جون راسين الاستراتيجيات التي اتخذتها الحكومة الهندية لتجنب حدوث المجاعة ورهاناتها السياسية.

في إثيوبيا تزعم الحكومة أنها تقيم هي أيضا خطة جيو سياسية لمواجهة الجوع ،وذلك بنقلها للساكنات، مثل التيجري والوولو ، من المناطق الشمالية نحو الجنوب الأكثر رطوبة والأقل كثافة. وهو مشروع كان من المفروض أن يتم تدريجيا ، على مدى عقود من الزمن . والحال ، يعد برنامج " إعداد التراب" هذا ، وما يطرحه من مشاكل تقنية وسياسية ، عملية إجرامية ، لأن أجهزة الدولة قامت بإبعاد الأهالي المتضررين أصلا من الجوع والحرب الأهلية عن قراهم بمئات الكيلومترات ، لأجل إحكام مراقبتهم . هكذا تكون المجاعة ذريعة للتهجير.

الأندلس مجتمع فيودالي *

بدرو شالميطا
ترجمة : ذ.محمد فتحة**

تمهيد :

قمنا بترجمة هذا العمل لسببين اثنين :

ـ التوظيف الجيد من قبل الدارس لأدوات التحليل الماركسي ، وهو أمركفيل بإغناء القدرات المنهاجية للباحثين ذوي الاهتمامات المماثلة .

ـ يمثل هذا العمل ، بالنظر إلى نتائجه ، قدوة حسنة ، لفئة من الباحثين ، محدودة العدد ، لازالت منبهرة بأعمال مدرسة لم تتحرر من أغلال الدغمائية والتصورات الجاهزة.

إلى عهد قريب لم يتساءل أحد ، عما إذا كانت الأندلس قد انتمت إلى العالم الفيودالي . ابتداء من 1968 - 1970 تاريخ جمع المعطيات حول مختلف أشكال الإقطاعات الموجودة بإسبانيا الإسلامية ، اقترحت تصنيفا لها وتابعت تطوراتها (1) وقد أعقب ذلك محاولة لتحديد الكيفية التي يمكنني بها مقاربة إشكالية وجود فيودالية بالأندلس .

وقد أثار ذلك لدينا عدة مسائل تستحق في الواقع بحثا متعمقا نتمكن بواسطته من تقديم إجابات مبنية على المعطيات التاريخية وليس على الأحكام المسبقة التي تنطلق من القناعات الإيديولوجية أو تقوم على أساس الحدس(2).

للقيام بذلك ، انطلقنا من التعريف الذي اقترحه ك. كاهن (3) لمصطلح الفيودالية. وفي سنة 1972 أثيرت المسألة من جديد من زاوية أخرى ، هل هناك تطابق مع " نمط الإنتاج الفيودالي" الذي يمكن تسميته بشكل أكثر دقة بنمط الإنتاج الإقطاعي **(Domaniel) (4) .

في كل هذه الحالات كانت المقاربات متشابهة . وكان الهدف هو معرفة ما إذا كانت الوقائع والمعطيات المؤسساتية (إقطاع ـ إنزال ـ سجل ـ استضاع ... الخ) والتي كان لها طابع فيودالي ، تسمح بتطابق أكبر من مظاهر الاختلاف،حينما تتم مقارنتها مع نموذج الفيودالية بأوربا. وبذلك انتهيت إلى القناعة التالية ، وهي أن هذه التشابهات لاتعني تماثلا بنيويا ، لأن الأمر يتعلق بعناصر مندمجة داخل أنظمة اجتماعية مختلفة. ولهذا يمكن الكلام في حالة الأندلس، عن بنيات فيودالية أو فيودالوية ، أو ماقبل فيودالية أو شبيهة بالفيودالية ، لكننا لانجد بالأندلس العناصر الأربعة الجوهرية التالية :

ـ صنف معين من الإنتاج الزراعي المعتمد على الضيعة .

ـ علاقات تبعية بين شخص وآخر .

ـ تشتت السلطة .

** أستاذ باحث بكلية الآداب ـ عين الشق ـ الدار البيضاء .

ـ أرستقراطية عسكرية قوية .
علاوة على غياب البنية الفوقية والإيديولوجية المميزة للمجتمع الفيودالي . ولهذا فإنه من غير الصائب أن نتحدث عن الفيودالية بالأندلس (5).
إن هذه المقاربات لم توضح شيئا يذكر . وتعبر عن منطلقات متحيزة ، لأنها تفترض بشكل ضمني شمولية نموذج التشكيلة الأوربية ، في حين أن هذا الأمر كان استثنائيا من الناحية التاريخية .
لقد كان الباحثون يقومون بجرد للتشابهات الموجودة في مجتمع ما ، مع "نموذج" بدل الانطلاق من خصوصيات المجتمع المدروس . وبدون شعور كان يتم تطبيق تصور معين يقوم على أساس تسلسل وتناسل مراحل المشاعية البدائية والعبودية والفيودالية والرأسمالية والاشتراكية . وبما أنه كان من الضروري تحديد موقع الأندلس ضمن هذا التطور التاريخي الضروري ، فقد وقع الاختيار على هذه المرحلة الوسيطة .
إن استعمال مصادر تاريخية جديدة ، وخصوصا منها المصادر الفقهية الأندلسية . وإتمام فحص المعطيات المتعلقة بالإقطاعات العقارية(6) وفهم أعمال كـ فيتفوكل (7) وسمير أمين (8) وببير غيشار (9)، يسمح بطرح الموضوع من جديد وبشكل مخالف لما سبق ، بحيث سوف نعمل على عزل خصائص المجتمع الأندلسي وسنقوم بوصف موضوعي للسمات الخاصة التي تؤكد اختلاف البنيات الأندلسية . وبهذا النهج فإن الإشكالية تتغير ، ونظرتنا للموضوع تتعمق أكثر. لأن توفر معطى مشترك لايشكل بالضرورة نفس الدلالة بالنسبة لمجتمعات مختلفة .
إن المنحى الأول خطير لأنه يشوه الحقيقة التي يعمل على ترجمتها . وهذه حالة ر- ي- بورنس(10) الذي يرى في إجبار مسلمي فالنس على حمل الماء والزرع وإعطاء دجاجة أو دجاجتين لسيد المنطقة خلال أعياد الميلاد ، استمرارا للسخرة الإسلامية ، واعتبرها حججا على عادات قديمة . أي أن الأندلس كانت خلال ق XIIم مجتمعا فيوداليا.وبعكس ذلك فإن بـ- كيشار يؤكد في مقال جديد لـه وعن صواب (11)،أن السخرة الإسلامية كانت"واجباعموميا تفرضها السلطة المركزية أو الجماعة...ولم تكن لها قيمة اقتصادية ..." وأنها تحولت في حدود 1260م إلى حق من حقوق السيد الفيودالي ، لم تتغير من حيث الشكل ، ولكنها أصبح لها مدلول مختلف من حيث الجوهر.
وفي الحالة المذكورة فقد يتعلق الأمر بتفسير يناقش ، لأننا نعرف أصل هذه الكلمة. ذلك أنني أشتغل حاليا في عقد عدلي أندلسي يرجع إلى القرن XIم (12) يبين أن من واجبات الفلاح الشريك في عقود المزارعة، نحوصاحب الأرض الهديةوالحمولة والانتقال ،وهي واجبات سنوية تستحق مع مطلع شهرغشت. ومفادها أن على المزارع أن ينقل على دوابه إلى منزل صاحب الأرض أعدادا مجهولة من أمداد القمح وأن يطحنها في رحى معينة ، وأن يقدم له أضحية العيد ، وكبشا آخر في عيد الفطر وخروفا صغيرا مع فاتح يناير ، وعددا من الدجاج. يتعلق الأمر هنا ببعض المظاهر الخارجية للملكية العقارية . فصاحب الأرض يعتني بإبراز حقوقه على الأرض التي أكراها مؤقتا لغيره من الفلاحين ***.
أما الالتزامات التي نجدها في الفترة المسيحية (نقل القمح وإهداء عدد من الدجاج...الخ) فبالرغم من شبهها بما أوردناه ، فإنها تمثل في الحقيقة تحولا عنها. فمن مجرد التزام للمزارع

نحوصاحب الأرض،فقد تحولت إلىحق وسخرة ملزمين لكل المسلمين ـ ملاكين كانوا أم لا ـ تجاه السيد المسيحي الذي يتحكم في الموقع .

لايمكن الحديث عن أي تشابه مع نمط الإنتاج الفيودالي ، إلا بعد وصف وتحليل الخصائص المميزة للمجتمع المدروس . وفي هذا المعنى ، فإننا نتوصل وبدون أن نكون قد بحثنا في ذلك ، إلى الجواب عن السؤال الأصلي : هل الأندلس مجتمع فيودالي ؟ وإذا كان الجواب نعم أي صنف من الفيودالية ؟

لن نقوم إذن بوصف ولا بتحليل أشكال مختلفة من الضياع ولا تنظيم الزبونية ، ولا تضامنات التبعية الفيودالية ولاتراتبيتها القانونية (13) .

لكننا سنحاول بخلاف ذلك ، أن نحدد نمط الإنتاج المهيمن في المجتمع "العربي الإسباني " وعلاقته مع مختلف أنماط الإنتاج التابعة . ذلك أن علاقة أنماط الإنتاج الغالبة بأنماط الإنتاج التابعة ، تؤثر في التشكيلة الاجتماعية التي ينجم عنها بدورها علاقات إنتاج تسمح بابتزاز الفائض ، علما بأن علاقات الإنتاج تعتبر في حد ذاتها علاقات اجتماعية يحددها تنظيم الإنتاج .

إن تحليل التشكيلة الاجتماعية ، يقوم أساسا على الطريقة التي يتحقق بها الفائض الذي يحدد طبيعة التشكيلة ، وعلى الانتقال المحتمل لجزء من هذا الفائض نحو أو انطلاقا من تشكيلات أخرى ، والتوزيع الداخلي لهذا الفائض بين الجهات المعنية .

وفيما يعنينا ، يجب أن نهتم بدراسة الدور الذي لعبته التجارة الداخلية والخارجية والبيروقراطية التي تسير أمور الدولة **** وعلاقات المدن بالبوادي ، وان نحلل أهمية الظاهرة الحضرية ووجود مدن تجارية ، وأصناف الاحتكارات في مجال التجارة وحضور يد عاملة حرة ، وطبقة ـ دولة دينية ـ بيروقراطية(+) ، وتفضيل الإيرادات المالية وثروة المجتمع ، والحضور النسبي للتشريعات والقوانين . كل هذا في مواجهة الفقر والعنف ورداءة المركزة السياسية والإدارية والاقتصادية واهمية التنقل ـ التوزيع الغير التجاري . والتنوع القانوني للعالم الفيودالي الاسباني (14) .

نوع التشكيلة الاجتماعية بالأندلس :

نسبت الأندلس مابين القرنين الثامن والسادس عشر إلى مجتمعات التشكيلات الماقبل ـ رأسمالية ، التي تقوم على أساس استغلال المجتمع (سواء من طرف مجموعة عليا ، أو من طرف جماعة من الأفراد) والتي انتشرت كثيرا في الزمان والمكان (15).

لقد كانت الأندلس مجتمعا فلاحيا ، وكانت أغلب عائداتها تأتي من عمل الأرض وتمثل أيضا نظاما ترتب عنه فائض في الإنتاج (16) لأن الإنتاج كان يغطي ، بزيادة الاستهلاك الضروري لاستمرار سيرورة قوة العمل / بقاء .كان هذا الفائض يحول لصالح مجموعة عليا مسيطرة ، لأن تملك وتحويل ما يحتاجه الناس لعيشهم ، كان يتحقق بواسطة ضرائب مختلفة (قامت المجتمعات العربية الإسلامية على أساس نظام جبائي مركب ومركزي). وانطلاقا من ذلك فإنه يمكن تصنيف الأندلس ، ضمن التشكيلات الجبائية . ولعله من المفيد التذكير بالنظام المالي الإسلامي التقليدي ، فهو يقوم على ما يلي :

ـ الأعشار على المحاصيل والماشية بالنسبة للمسلمين .

- الجزية والخراج على غير المسلمين(++) (17) .
طبق هذا النظام بالأندلس . وبما أن اغلب مداخيل الدولة كانت تأتي من هذا المصدر (18) فإن نمط الإنتاج المهيمن كان جبائيا .
يوجد بالأندلس أيضا أعداد مهمة من العبيد . لكن هذا ليس كافيا للحد من تشكيلة تقوم على العبودية. ذلك أن دور العبيد في الإنتاج كان دائما ضعيفا ، فهم يسخرون في الأعمال المنزلية وفي الحرس الخاص بالسلاطين ، في حين أن غالبية النشاط الفلاحي كانت تتم على يد رجال أحرار.
يوجد بالأندلس أيضا ، حضور مهم للتجارة بنوعيها الداخلي والخارجي . إن وجود الأسواق وانتشارها يعني ، ولو بشكل نسبي ، وجود اقتصاد مرتبط بالسوق(19).ومن المعلوم أن انتقال هذا الفائض الأولي كان يترتب عنه بدوره فيوض ثانوية لها شبكتها الخاصة ، وفي كلا الحالتين وسواء تعلق الأمربتجارة الداخل أو الخارج ، فإن الدولة تستفيد من ناحية الجبايات ، وقد تحدث عنها ابن حوقل باسم المراصد والجوالي والرسوم على البيوع ... الخ (20) وقد أثارت هذه الضرائب وانعكاساتها على الأثمان وعلى الوضعية الاقتصادية ردود فعل من لدن الفقهاء وغيرهم (21).
وبالنظر إلى الأهمية النسبية ،لهذا القطاع التجاري ،في مداخيل الدولة بالأندلس،(حوالي15%)(22) فإنه يمكن أن نعتبرها من ضمن التشكيلات الجبائية - التجارية . وهذا لايعتبر غير عادي ما دامت المجتمعات التاريخية تبدو كنتيجة لعدة مكونات ، وفي الحالة التي تعنينا يحتمل أن يتعلق الأمر بالعناصر التالية:
أ - طغيان نمط إنتاج قائم على الجبايات .
ب - تأثيرات تجارية محدودة .
ج - علاقات تبادل تجاري مع الخارج .
وهذا يعني الاعتراف بوجود عوامل ومظاهر متعددة ، يمكن لتطورها وأهميتها (23) ولو بشكل نسبي ، داخل البنيات الأندلسية ، أن ترشدنا في محاولتنا ، للتعريف بالتشكيلة الاجتماعية بالأندلس وتتبعها وتأطيرها .

مجتمع جبائي ممركز تطغى عليه الأنشطة الزراعية :

تعتبر الأندلس مجتمعا زراعيا بالأساس ، بدليل استمرار أداء بعض الوظائف عينا إلى وقت متأخر ، إلى جانب أخرى كانت الدولة تفضل تحصيلها نقدا . إن هذه الضرائب كانت تسمح بتوفير فائض معتبر ، وبمداخيل هامة ومتزايدة 600 ألف دينار في السنة في عهد الحكم الأول (24) .مليون دينار في عهد عبد الرحمن الثاني (25) .548 ألف دينار في عهد الناصر (26) تضاف إليها 765 ألف دينار زكاة السوق .4 مليون دينار في عهد المنصور (27).
لقد أورد ابن حوقل (28) عدة مفاهيم جبائية،كحقوق السكة ، وصدقات البلد وجباياته وخراجاته وأعشاره والمراصد والجوالي والحقوق الجمركية على الواردات والصادرات ، والرسوم على البيوع داخل الأسواق.
إننا بالفعل أمام فائض هائل ، سوف يمتد على طول عدة قرون ، وسيسمح بظهور نظام تحويل إجباري إلى مجتمع آخر خارجي ، ويتعلق الأمر بذلك الاقتطاع الدائم بواسطة الغنائم واستغلال تلك الطبقة الدنيا من الناس ، وهما أسس سياسة وثراء وسلطة طبقة السادة

المحاربين بالمال المسيحي (29) . التي اعتبرها ب بوناسيي (30) محركا للنهضة الاقتصادية الكطلانية للقرنين العاشر والحادي عشر . إنها ثروات ترتبت عنها بعض مظاهر الجشع وانتهت إلى زعزعة توازن المجتمع ودفعت به إلى حافة الفيودالية ... ولقد كان لهذه التجاوزات تأثير آخر ، وهو تفقير وزعزعة الأندلس خلال حكم ملوك الطوائف .

إن الدولة الجابية لهذه الضرائب ، تمثل الجهاز الأعلى الذي ينظم ويراقب التوزيع الداخلي لفائض الإنتاج. ومن هذه الناحية فإن عدد ونفوذ هذه المجموعات ، وأهمية الكميات التي يحصلون عليها كانت تفصح عن وزنهم داخل التشكيلة الاجتماعية التي يمكن تحديد مفهومها انطلاقا من حضور هذه المجموعات ، ومن أهميتها النسبية .وبالنسبة للأندلس فإننا نجد أنفسنا أمام المجموعات التالية التي كانت تتمتع بنفوذكبير .

أ ـ أسرة حاكمة تهيكل البلاد وتسود داخلها .

ب ـ بيروقراطية تسهر على تسيير الدولة ، وتتقاضى أجورها من قبلها ، وهي تتشكل من عدة فروع قضائية ومدنية وإدارية مالية .

ج ـ رجال الدين(+++)وهي الفئة التي ينتمي إليها أغلب المشتغلين في الجهاز الإداري، إضافة إلى الأئمة والخطباء.

د ـ تنظيمات عسكرية مركبة تشمل المتطوعة والجنود المحترفين والمرتزقة والقواد والإدارة . وهي تنظيمات كانت مسؤولة عن استهلاك ثلث مداخيل الدولة سواء في ظل الخلافة أو في ظل الإمارة (31).

المدينــــة :

يتعلق الأمر أيضا بتشكيلة اجتماعية تعكس حضارة مدنية غنية . إنه مجتمع حضري بالمعنى الكامل للكلمة ، سواء من ناحية العدد أو الامتداد والانتشار الجغرافي أو من ناحية الكثافة السكانية ، واحتكار الإنتاج الحرفي ، وتمركز الأنشطة التجارية (بناء مدن تجارية كالمرية). علاوة على كونها مراكز للحكم وللحياة الثقافية والإيديولوجية (32). ينجم عن كل هذا بنية اجتماعية خاصة متماسكة وأحادية الشكل ، وهذا بخلاف البنية المسيحية حيث توجد هيمنة واضحة للبادية وحيث تبرز الاختلافات بين المناطق .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن التشكيلة الاجتماعية العربية الإسلامية وبالنظر للأهمية التي تبوأتها داخلها الأنشطة الحرفية والتجارية ، قد شكلت صنفا مناقضا للفيودالية الغربية ، ولربما غير قابل للاندماج فيها .

وفي هذا المعنى فإنه يجب توضيح معطى أساسيا ، وهو الطابع الحضري المحض لاستقرار المؤسسات السياسية والإديولوجية العربية الإسلامية . فمن المعروف أن البنية الفرقية (ماهو إيديولوجي) تفرض نفسها في نهاية المطاف على البنية التحتية (ماهو اقتصادي) فلا أحد يقبل أو يخضع لهيمنة ما ، إذا لم تكن قد قدمت إليه مسبقا كشيء ضروري للحفاظ على النظام الاجتماعي و"الطبيعي" واستمراريته . ويترتب عن هذا أن بعض التجاوزات والانحرافات عن هذا النظام سوف تحدث لدى دافعي الضرائب حركات تصحيحية لإقامة حكم عادل . إن هذه الإيديولوجيا الإصلاحية تمثل أحد التفسيرات الجزئية لمفهوم الفتنة . ونجدها بشكل واضح في الحركة المساندة للمرابطين ، كما تظهر بعض آثارها في عهد الطوائف الثاني ماقبل الموحدين ، وفي عهد الطوائف الثالث ... الخ .

في مقابل الطابع الحضري للتشكيلات الإسلامية بالأندلس ، نجد الطابع الريفي للتشكيلات المسيحية الذي يتميز بقصور وقلاع السادة الفيوداليين . وبنفس الكيفية وبسبب عوامل اقتصادية وسياسية معقدة فإن تنقل السادة وحاشيتهم يتعارض مع " المدينة - القصر " بالأندلس .

التجـــارة :

تتميز المجتمعات الماقبل - رأسمالية (تحدث م. رودنسون عن إقطاع رأسمالوي في الحضارة العربية الإسلامية) بكونها تدمج اقتصادات اقتيات ، كما أن التحويلات لاتهم سوى الفائض ، وتتم بواسطة حركة غير ميركانتيلية (نظام الضرائب) أو عن طريق المبادلات التجارية . وبما أن الأندلس وبخلاف الممالك المسيحية تبدو مندمجة في اقتصاد السوق ، فإنه من الضروري تحليل مختلف مظاهر انتقال هذا الفائض الأولي ، وقد كان لنا في هذا الصدد اتجاهان .

أ - إعادة التوزيع الداخلي لجزء من الفائض .

ب - تحويله من ، أو إلى مجتمعات أخرى .

وفيما يخص إعادة التوزيع يجب اعتبار :

1 - الأجور التي توفرها الدولة لقطاعات مهمة (الجيش - الجهاز الإداري - جهاز الدولة - العلماء ... الخ).

2 - الصلات والهدايا وكل المصاريف المرتبطة بأجواء القصور (34).

إن هذه التحويلات تعني أنه يجب حل المسألة التالية ، وهي هل كانت الأندلس تتمتع باكتفاء ذاتي، وتعيش من فائض إنتاجها ، أم أنها كانت بالعكس تشكيلة اجتماعية تعتمد على عائدات من الخارج . بالنظر إلى المعطيات المتوفرة ، فإن الظروف الطبيعية للبلاد ، أي الإنتاجية الفلاحية ، كانت جيدة وكان بإمكان الدولة أن تحصل منها فائضا جبائيا معتبرا . فمختلف المؤلفين وعلى الخصوص الجغرافيين منهم كانوا يقدمون الأندلس على أنها بلد غني لنذكر أيضا بقيمة الضرائب المستخلصة خلال القرن العاشر الميلادي ، وفي مختلف ممالك الطوائف التي كانت بحكم موقعها الجغرافي لاتستفيد من عائدات التجارة .

إن إعادة توزيع هذا الفائض من قبل الدولة على خدامها ، والرخاء الذي كانت تعيش فيه مختلف المجموعات التي تدور في فلكها ، قد أسفر عن تطور الأسواق والتجارة الخارجية .

إن وجود واهمية الأسواق بالمدن الأندلسية شيئان معروفان ، وأشار إليهما كل الجغرافيين وأكدها وجود خطة "صاحب السوق" المكلف بمراقبة الأسواق وتحصيل حقوقها (35). وفيما يخص مسألة الصادرات والواردات ، فنحن نتوفر على عدة إفادات بشأن منتجات الشرق الأقصى وحوض المتوسط وبلاد السودان وأوربا ، التي كانت تصل إلى غاية الأندلس . وكانت هذه الأخيرة تصدر بدورها مواد تصل إلى غاية الهند والصين كالخزف والأثواب وتين مالقة ...

ماهي أهمية هذه التجارة في اقتصاد الأندلس ؟ وهل كان للتجارة دور فيما عرفته البلاد من رخاء ؟ بمعنى آخر هل تعتبر الأندلس تشكيلة جبائية ميركانتلية فعلية ؟ وبدون أن نقلل من شأن المبادلات الخارجية خصوصا مع شمال افريقية والممالك المسيحية ، فإنه لايبدو أن هذه التحويلات كانت جوهرية ولايظهر أن المجتمع الأندلسي قد اعتمد بالأساس على مراقبة

محاور التجارة مع بلدان بعيدة . علاوة على أن هذه الصفقات كانت تهتم ببضائع رفيعة ونادرة لاتؤخذ كلفة الإنتاج فيها بعين الاعتبار (بمعنى أنه لاتعتبر فيها إلا قيمتها الذاتية) فالاحتكارات التي تنبني على ذلك تبقى هشة . إن الأمر يتعلق هنا بسيرورة اقتصادية وسياسية حللها ابن خلدون بشكل واضح (36) فالرسوم الجمركية المفروضة على هذا الصنف من التجارة يفترض أن تمثل في التشكيلة الاجتماعية القائمة على الضرائب والتجارة ، أهم مداخيل الدولة . ومعلوم أن التعريفة المفروضة على هذه البضائع تمثل 10% من قيمتها ، وأن حجمها حسب ما نتوفر عليه من معلومات لايتجاوز 15% من المداخيل الإجمالية . يتضح إذن أن هذه التجارة البعيدة لاتفسر وحدها الرخاء الدائم بالأندلس ، ويتعين البحث عن ذلك في حجم الإنتاج الداخلي .

الاختلافات بين الأندلس واسبانيا المسيحية :

إن ما سبق يبين خضوع الأنشطة التجارية الداخلية والخارجية لمراقبة ولضرائب الدولة بالأندلس . وهذا يعني أن هناك اختلافا عميقا مع المجتمع الفيودالي المسيحي ، الذي لم يتمكن من الهيمنة على التجار البرجوازيين المقتنعين بضرورة الحفاظ على استقلاليتهم والذين يتمتعون فعلا بحرية عمل تكاد تكون كاملة . إن هذا الواقع يمثل تناقضا آخر(37). إن الطابع الحضري متقدم بالأندلس ، ويعكس حضورا قويا للدولة في حين أن النوى الحضرية القليلة بالمنطقة المسيحية « Bourg » كانت حرة ومعفاة من الجبايات ، وهذه خصوصية كبرى طبعتها وشكلت جاذبيتها الأساسية .

تداخلت عدة عوامل اقتصادية واجتماعية وسياسية (38) بالأندلس ، وسمحت بتلطيف ، بل وإلغاء تلك التجاوزات التي كانت تستهدف جمهور الفلاحين . وبالمقابل فإن النظام الفيودالي كان يزيد باستمرار من ضغوطه على الفلاحين .وأسفر ذلك عن إخضاعهم واستغلالهم بشكل ممنهج ، فتكاثرت العادات القبيحة تجاههم ، بشكل مناسب لتطور النظام الفيودالي نفسه .

يجب التذكير أيضا بالغياب الشبه التام ، أو على الأقل بالنقص الحاصل في اليد العاملة الحرة بالبلاد المسيحية ، وذلك على العكس مما كان عليه الأمر بالأندلس ، الشيء الذي يترجم عمليا بتزايد عقود الكراء والمزارعة والمغارسة وأنواع الشركات الأخرى. وهي عقود حفظت في كتب الوثائق(*) ولعل أهم ماترتب عن هذا الوضع هو وجود "مجموعة - طبقة مهنية " هي فئة العلماء(**) فبإزاء عالم حرب يفكر ويعيش بمنطق الغنيمة ، برزت بداخله طبقة عسكرية محترفة لها تراتبيتها ونبالتها ووعي طبقي فعلي ، فإن التشكيلة الاجتماعية بالأندلس وإن كانت تخصص ثلث فائضها للجند ، فإنها لم تتوفر أبدا على طبقة عسكرية بنفس المواصفات والفعالية (لعل هذا مايفسر هزيمتها في نهاية الأمر). يمكن اعتبار الأندلس بمثابة تشكيلة اجتماعية لم تتمكن من بلورة إيديلوجية خاصة بهذه الطبقة المحاربة ، ففي مواجهة مناخ عنف وقوة : مناخ سياسة الأمر الواقع ، كانت الأندلس تمثل مجتمع قانون ، تنظم الدولة قضاءه بخلاف ما كان يجري بالبلاد المسيحية حيث تحل الخصومات بواسطة المبارزات وعن طريق حكم الله (***) .

ولهذا السبب فإن الأندلس لم تعرف أبدا نفس أوضاع العنف التي هيمنت على المجتمع المسيحي ، الذي عمل على احتوائها ، عن طريق تأسيس ماسمي "بسلم الله " والتي أسفرت عن "هدنة الله " لاحقا .

وفيما يخص العلاقات المدنية، فالمبدأ بالأندلس هو أن "الأصل الحرية" ،فالناس أحرار وهناك علاقة مباشرة بين الفرد والدولة ، في حين أنه من النادر أن نجد أفرادا يتمتعون بحرية شخصية كاملة في المجال المسيحي . إنهم ليسوا عبيدا ، وإنما أقنانا تابعين لسيد أو لأرض ، وحتى وسط طبقة الأسياد فإن الملكية ترتبط بنسق من الواجبات والالتزامات تجاه كبيرهم الذي هو الملك .

يجب التذكير أيضا بانعدام التعامل النقدي واللجوء إلى المقايضة والتقديرات والمداخيل العينية باسبانيا المسيحية . وبالمقابل فقد انتشرت النقود وسادت الأداءات بالدينار والدرهم ، وأنشئت دار السكة التي تصدر مقادير مهمة من النقود تقدر حقوق الخليفة الناصر عليها ب200 ألف دينار سنويا (39) .

كان المنظر الفلاحي مختلفا بدوره ، زراعة الحبوب والكسب بالشمال ، في مقابل الزراعات المسقية بالجنوب.وبصدد الري فإنه لايجب التفكير فقط،في الأعمال الكبرى ذات المنفعة العمومية (سدود قنوات...) بل بالخصوص في مجموع المجهودات الفردية الدائمة من أجل إعداد الآبار والنواعير ... إنه تنوع في المناظر يكشف عن نوع من الحدود مابين نمط إنتاج جبائي ذي توجه سقوي ، ونمط إنتاج إقطاعي (+) برز وتطور بالغرب المسيحي ، ويتميز بضعف اعتنائه وحفاظه على التوازنات الطبيعية .

إن التشكيلات الاجتماعية المتقدمة ، القائمة على الجباية حاولت احتواء تقدم قواها الإنتاجية . وقد تسبب ذلك في خلق توازن متجدد ، حال دون ظهور أو تطور تشكيلات مخالفة وهذا ما يفسر استمرار نفس البنى. إن هذه الإستمرارية توحي للملاحظ الغير المدقق بأن الأمور جامدة .

إن نمط الإنتاج "الإقطاعي - فيودالي " وهو من تنوعات نمط الإنتاج الجبائي (لأن مجموعات من الأفراد أصبحت تنوب وتعوض الدولة في صلاحياتها) أسفر بدوره ، بسبب عدم كماله ، عن توترات فرضت تكييفه باستمرار . ولهذا فهو يبدو أكثر مرونة ودخل في سيرورة تطور مستمرة . وفي اسبانيا التي كانت تتواجه داخلها التشكيلات المذكورة آنفا ، لربما كان ذلك سبب سيادة المجتمع الذي يتوفر على أكبر قدر من الخصائص الفيودالية بمعنى أن هذه المعطيات تفسر انتصار البنيات الفيودالية على البنيات الغير الفيودالية .

خلاصة :

ماذا يبقى إذن من أطروحة وجود فيودالية بالأندلس ؟ لنذكر بقولة ر.بوتروش :" لازلنا نبحث بدون توفيق عن فيودالية في طريق التكوين داخل اسبانيا خلال القرن السابع.م ، ليس فقط خلال عهد الخلافة الأموية ، وإنما على عهد ممالك الطوائف ، وفي قلب الأراضي التي خضعت خلال نهاية القرن XI م لسيادة المرابطين" (40). لقد أشرنا سابقا (41) إلى أن مختلف الإقطاعات المعروفة بالأندلس لاتسمح بأن نستنتج وجود فيودالية أندلسية. فالمعطيات المتوفرة بشأن "السخرة" بالأندلس،والتي اعتبرت دليلا على استغلال الفلاحين (42) أكدت الخلاصات السابقة ، كما أن الدراسات الأركيولوجية بحصون شرق الأندلس التي أنجزها بزانا وكيشار(43) تبين أنه بعد حروب الاسترداد حصل تقليص في مسورة الحصون الإسلامية حينما أصبحت قصورا محصنة يسكنها السادة المسيحيون .

إن الدراسات الجزئية السابقة ، مضافة إلى التحليل الشامل للتشكيلة الاجتماعية بالأندلس تؤدي كلها في حدود معرفتنا الحالية إلى نفس الخلاصة : غياب آثار جديرة بالاعتبار عن النظام الفيودالي . فالأندلس لاتشكل مجتمعا إقطاعيا فيرداليا وإنما يجب تصنيفها ضمن التشكيلات الاجتماعية الجبائية المتقدمة .

الهوامش :

* - ضمن كتاب Le cuisinier et le philosophe hommage à M. Rodinson , Paris 1982.

** - أنظر لاحقا الاعتبارات التي تحكمت في استعمال كلمة "إقطاعية " بدل "خومانيال" .

*** - يبدو أن الأمر قد التبس على صاحب الدراسة ، لأنه في مجال الزراعة ليس هناك كراء للأرض وإنما هي شركة يحدد فيها نصيب المزارع حسب أعراف الجماعة .

**** - نفضل الاصطلاح التقليدي "الجهاز المخزني " أو الجهاز الإداري ، لأن لفظة بيروقراطية توحي الآن بمعنى آخر ، لانعتقد بالرغم من تجاوزات وجور الحكام ، في دقة استعماله بالنسبة لأوضاع الغرب الإسلامي خلال الفترة المدروسة .

(+) - يتعلق الأمر هنا ، مرة أخرى ، باختزالات ذات طبيعة مفاهيمية ، يصعب تتبعها من زاوية تاريخية محققة. ذلك أن مفهوم الطبقة يرتبط بمرجعية مادية تاريخية ، لازالت الأبحاث المعاصرة في تاريخ العرب والمسلمين لم توفها حقها من التمحيص . لذا فإننا نفضل ترجمته بـ"العصبية الحاكمة التي تهدف إرساء مشروعيتها على أسس دينية ".

(+ +) - التبس الأمر على المؤلف في مسألة الخراج ، لأنه من المعلوم أن الخراج يبقى مفروضا على الأرض التي فتحت عنوة حتى وإن أسلم أهلها.وزيادة على ذلك فإن الأندلس وغيرها من بلاد الغرب الإسلامي خضعت لضرائب أخرى ناقش الفقهاء باستمرار مدى شرعيتها كالقبالات والمكوس والمعونة ... الخ .

(+ + +) - ربما كان من الأنسب أن يستعمل المؤلف تعبير الفقهاء ، لأن اصطلاح رجال الدين يفيد بهيئة وتنظيم يخصان المجال المسيحي.

(*) - يبدو أن الأمر قد التبس على المؤلفن فمن المعلوم أن كتب الوثائق ليست مجاميع لهذه العقود، وإنما هي نماذج موحدة الصيغة لمختلف العقود ، كتبت من أجل إرشاد الموثقين والعدول.

(**) - لسنا في حاجة للتذكير بسوء تقدير المؤلف في هذا الصدد لأن الفقهاء بالغرب الإسلامي لا يشكلون طبقة مهنية . فهم لايشكلون فئة متجانسة من حيث أوضاعها الاجتماعية وأكثر من هذا ، فإن إيديولوجياتهم مختلفة واختياراتهم السياسة متنوعة .

(***) - "حكم الله " هو أن يختار المتخاصمان بطلين يمثلانهما في مبارزة ، منطلقين من مبدأ أن الله ينصر الصادق منهما دائما.

(+) - ترجمنا مفهوم mode de production domanial بنمط الإنتاج الإقطاعي ليس في دلالاته الإسلامية ، وإنما بما اصطلح عليه العرب منذ مدة عند حديثهم عن فائض القيمة والعلاقات الإنتاجية المترتبة عن التملك الاحتكاري للأراضي الفلاحية ، وإن كان هذا لايرفع الإلتباس الأصلي الناجم عن هذا الاستعمال

1) - -P. chalmeta : « Concession tenitoriales en al-Andalus » Cuadernos de Historia (Hispania), VI - 1975 -1-90 .

2) - P. Chalmeta : "Fendalismo en al Andalus? " in Orietalia Hispania. F.M. Pareja 1-168-94.

3)- C. Cahen : « Rifléxions sur l'usage du mot féndalité J.E.SHO, III, 1960-2-20.

4) - P. Chalmeta : " le problème de la féndalité de l'Europe chrétienne ,le cas deL'Espagne musulmane in II Coloquio Hispana - Tunecino, Madrid 1973 - 91 - 115.

5) - P. Chalmeta : « Fendalismo en al Andalus ? » p. 194.

6) - Cf. n°1 2e parties en cours d'impression.

7) - K. Wittfogel, le despotisme oriental. Etude Comparative du pouvoir total.Paris1964.

8) - S.Amin. Sobre el desarrollo designal de les formaciones sociales, Barcelona, 1975.

9) - P. Guichard, Structures sociales « orientales » et occidentales » dans l'Espagne musulmane, Paris 1977.
10) - R.I. Burns, Médiéval Colonialism. Portcrusade exploitation of Islamic volencia. Princeton 1975 pp 166-168.
11) - P. Guichard : le problème de la Sofra dans le royaume de Valence auXIIIe S.Auràq II 1971 p.p. 64-71.
12) - Ibn el Attar, dans ses el wataiq al majinu a. pp 3 - 4.
13) - Cf. notes 1-2-4.
14) - قد يكون مفيدا ، أن أوضح أنه بالرغم من كوني مؤرخا ، فانا لا أدعي الاختصاص في موضوع الفيودالية الشديد التعقيد . ولهذا فقد رجعت بالنسبة لأوربا ، إلى عدد من الدراسة المتخصصة ، وقد يكون من قبيل التسرع أيضا ، القول بأن القرون الثمانية من التاريخ الأندلسي كانت عبارة عن فترة ركود ، لكن طبيعة هذه الدراسات لاتسمح بالتعمق في ذلك .
15) - M. Rodinson . Islam et Capitalisme p. 81.
16) - Cf. infra.
17) - Cf. Sub Verbo in E I2 .
18) - Cf. infra.
19) - P. chalmeta, El « Senor del mercado » en Espana Madrid, 1973: « Markets » in the Islamic City Paris 1980, »les fonctions de l'agora-farum dans la cité musulman » in collogue Casa- Velazquez Madrid 1982.
20) - Ibn Hawqal, Surat al ard I - 112. P. Chalmeta facteurs de la formation des prix dans l'Islam médiéval Congrés Histoire du Maghreb - Tunis 1973.
21) - Cf infra.
22) - Bayan II - 231 analectes P. 251.
23) - Cf infra
24) - al Bakri in L. Provençal la péninsule Ibérique P.251.
25) - Mugrib I-46.
26) - Bayan II - 231 - Anolectes I 130.
27) - A ' mal 114 - 5
28) - Surat I - 112.
29) - H. grassitti « Para la historia del botin y de las panias en Léon y Castilla » CH.E.1964.
30) - P. Bonnassie , la catalogue, du milieu du Xe S à la fin du XIe S Toulouse 1975-6.
31) - Ibar, IV, 133 Bayan II - 231 - 2.
32) - Cf. L. Tosse Balbas , Cindades hispano- musulmanes Madrid - 1971.
33) - M. Rodinson , op , cit p : 45-73.
34) - Cf. Supra et fendalisme en al Andalus p. 187 -8.
35) - Cf. les ouvrages cités note -19 .
36) - Cf. les idées économiques...
37) - Cf. Supra .
38) -Cf. fendalisme ...? le problème de la féodalité.
39) - Surat I - 112.
40) - R. Boutruche, Seugneurie et féodalité I- 238.
41) - Cf. Supra.
42) - Cf. « Recherches sur les habitats musulman du le vant Espagnol » et « le problème du L'existenc de structure de type féodal dans la socièté d'al andalus

إشكالية المصادر المتعلقة بتاريخ مدينة فاس قبل العصر المريني وما بعده

ذ. العربي اكنينح*

لا نتوفر عن تاريخ مدينة فاس قبل العصر المريني ، سوى على إشارات قليلة ومتضاربة وردت في مصادر جغرافية متأخرة ، فقد تم تأسيس فاس على يد إدريس الأول وليس إدريس الثاني كما هو شائع - في نهاية القرن الثاني للهجرة / 8م - إلا أن الإشارات التي وصلتنا عن هذا الحدث قد تم تدوينها ، على مراحل في عصور لاحقة ، فقد ورد الحديث عن فاس ، لأول مرة في التاريخ ، حسب ما نعلم في القرن الثالث الهجري / 9م ، على لسان بعض الجغرافيين المشارقة الذين اكتفوا بالتنصيص على كون فاس في ذلك الوقت كانت عاصمة الأدارسة وتنقسم إلى عدوتين متناحرتين : عدوة الأندلس وعدوة القرويين (1).

وفي القرن الرابع الهجري / 10م ورد كلام آخر عن مدينة فاس بقلم أبي بكر أحمد بن محمد الرازي المتوفى سند 344هـ / 955م ، في كتابه "وصف الأندلس"(2) ، وهو حديث مقتضب جدا لايتعدى بضعة أسطر ،تشير إلى تاريخ وصول إدريس الأول إلى وليلي وبنائه لمدينة فاس(3). وفي نفس القرن (4هـ/ 10م)، وصلتنا عن فاس أيضا ، إشارات أخرى على لسان الجغرافي المشرقي ابن حوقل ، في سياق وصفه لإفريقيا الشمالية ، من كتابه المسالك والممالك (4). وفي القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، زودنا أبو عبيد البكري في هذه المرة ، بمعلومات مفصلة شيئا ما ، عن مدينة فاس وأورد أخبارا مفيدة عن تاريخ الأدارسة بصفة عامة ، استقاها من عدد من المصادر الأموية المفقودة ، ومن عدد من الرواة السابقين لعصره (5). وفي عهد الموحدين (القرن 6هـ / 12م) ، أورد الشريف الإدريسي المتوفى سنة 560هـ ، وصفا آخر لفاس في كتابه نزهة المشتاق، غير أنه مفرط في القصر ، ولايفيد كثيرا في التعرف على ملامح هذه المدينة من الناحية العمرانية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والسياسية (6) وباستثناء هذه الأوصاف الجغرافية القليلة والهزيلة ، والقطع النقدية التي استغلها لفي بروفنصال عند تنقيبه عن تاريخ تأسيس مدينة فاس (7)، لم تتحدث المصادر التاريخية عن الأدارسة وعاصمتهم فاس ، بصورة مفصلة ، إلا ابتداء من أواسط عهد بني سنة 170هـ / 786م ، وهذا كاف لإضفاء ظلال قاتمة

• أستاذ باحث بالمدرسة العليا للأساتذة - فاس - .

من الغموض و الشكوك حول تاريخ مدينة فاس و الأدارسة بصفة عامة ، في مرين ،أي بعد مرور أكثر من خمسة قرون على تاريخ وصول إدريس الأول إلى المغرب القرون السابقة للمرينيين ، فصاحب الأنيس المطرب الذي أرخ لأول مرة بتفصيل لمدينة فاس ، نقل معلوماته عنها عن مجموعة من الرواة و المؤلفين لم يذكر أسماءهم ولم ينسب إليهم كلامهم في كثيرمن الأحيان. وقد برر ذلك في مقدمة كتابه بقوله : " فألفت هذا المجموع المقتضب ، انتقيت جواهره من كتب التاريخ المعتمد على صحتها ، و المرجوع إليها ، سوى مارويته عن أشياخ التاريخ ، و الحفاظ ، و الكتاب ، وقيدته عن الرواة الثقات الأنجاب ، وحذفت فيه الإسناد خيفة الإكثار و الامتداد ..."(8).

ويتجلى من هذا الكلام أيضا ، أن علي بن أبي زرع الفاسي ، قد استقى جملة أخباره عن فاس و الأدارسة ، بالإضافة إلى كتب التاريخ التي زعم أنه رجع إليها ، من سلسلة من الحفاظ و الرواة ، وعن هؤلاء نقل على ما يبدو الكثير من الأساطير و الخرافات التي لاتصمد أمام المنطق و النقد الحديث ، فوصلنا مؤلفه مليئا بالأخطاء التاريخية و الجغرافية و الروايات الكاذبة و المختلقة(9) . وبعد مؤلف ابن أبي زرع ظهر كتاب جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس لأبي الحسن علي الجزنائي (10) خصص الباب الأول منه لذكر من أسس هذه المدينة من الأدارسة الحسنيين وما جاء من الثناء عليها وعلى سكانها وعلمائها. وأفرد الباب الثاني لذكر من أدارها بالأسوار ، وزاد فيها الزيادات وذكر جامعيها العتيقين الأندلس و القرويين، وقد اعتمد في تأليف كتابه المذكور على عدد من المؤلفات المؤرخة بفاس، و المغرب ، و الأندلس و المترجمة لرجالاتها ، غير أنه عند مقارنة فحوى هذا الكتاب بما جاء في روض القرطاس ، نلاحظ أن أبا الحسن علي الجزنائي قد نقل حرفيا الكثير من الفقرات عن ابن أبي زرع وغيره من المؤلفين السابقين ، أمثال أبي عبيد البكري ، وعبد الملك الوراق ، وأبي القاسم بن جنون ، وغيرهم ، بل أكثر من ذلك، نجد أن إحالات جني زهرة الآس ، تكاد تتطابق حرفيا مع ما ورد في روض القرطاس ، مع فرق أساسي يتمثل في كون ابن أبي زرع لم يذكر المصادر التي نقل عنها إلا نادرا ، بينما حرص أبو الحسن علي الجزنائي ، حسب زعمه ، على أن يكون أمينا مع نفسه، ونسب كل ما كتب إلى المؤلفات التي أخذ عنها ، إلا ما رآه رأي العين ، مما لا يحتاج فيه إلى أحد. وقد أشار إلى ذلك في نهاية كتابه قائلا :"وهنا انتهى القول فيما قيدته، واختصرته ، والله سبحانه ينفع بما نويته وقصدته، مع أني لست من أهل التأليف ، ولا من أولي المعرفة بالتصنيف ، فمن نقل ماق اله النـاس، فما عليه في نقله من بأس..."(11).

وعن جني زهرة الآس، وروض القرطاس ، نهلت معظم الحوليات التاريخية، وكتب التراجم ، والمناقب والأنساب المتأخرة أخبارها ، ومعلوماتها ، عن تاريخ فاس و الأدارسة قبل عهد بني مرين. فأحمد بن القاضي صاحب جذوة الاقتباس(ق 16) ، على سبيل المثال لا الحصر ، نقل أغلب فصوله ، من جنى زهرة الآس دون أن ينسبها إلى صاحبها الحقيقي ، موهما الناس أنها من إنشائه(12). وعندما ترجم صاحب سلوة الأنفاس_لإدريس الأول و الثاني اعتمد على ابن أبي زرع، ونقل الكثير من الفقرات التي تتحدث عن فضل فاس ومناقب الشرفاء الأدارسة(13) وفي هذا الصدد، يحق للمرء أن يتساءل هنا ، لماذا تأخر الاهتمام بالتأريخ للأدارسة ، وبالتالي لمدينة فاس ، إلى عصور متأخرة جدا ؟ ولماذا اهتمت

الأسطوغرافية المرينية بصفة خاصة بالتنقيب عن ماضي الدولة الإدريسية وحاضرة فاس ، وبالضبط ابتداء من أواسط القرن الرابع عشر الميلادي / الثامن الهجري ؟ ولماذا حظي الأدارسة باهتمام كتب التراجم والمناقب ، والأنساب المتأخرة التي رفعت كلا من إدريس الأول والثاني إلى مرتبة الأولياء والأقطاب ، وأضفت عليهما دلالات خاصة ؟

إن الإجابة على هذه الأسئلة تستدعي هنا استحضار جملة من الملابسات السياسية والثقافية والدينية ، والمذهبية التي ميزت تاريخ المغرب وطبعته عبر مختلف العصور والتي تم في إطارها جمع أخبار الأدارسة ، والتأريخ لمدينة فاس ومؤسساتها الدينية والثقافية.

من المعلوم أن تدوين التاريخ عند العرب والمسلمين في الشرق الإسلامي ، لم يبدأ إلا مع أواسط القرن الثاني للهجرة ، تاريخ وصول إدريس الأول إلى المغرب.وقد انصب اهتمام المؤرخين الأوائل في البداية ، على تدوين تراث النبي في المرحلتين المكية والمدنية (حروبه أفعاله ، أقواله ، الظروف التي قيلت فيها الخ...)، فيما كان يعرف بكتب المغازي والسير (جمع سيرة)، كما اعتنوا بعد ذلك بالتنقيب عن ماضي القبائل العربية ، وجمع أخبارها وغزواتها وملاحمها ، وتدوين أشعارها ومناظراتها ، فيما كان يسمى أيضا بالأيام ، ولم يشرع في المشرق الإسلامي في التأريخ للأمة الإسلامية ، بصورة شمولية ، إلا مع عهد الطبري (225هـ - 307هـ) ، في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، في كتابه ، تاريخ الرسل والملوك (14) ، وعند تتبع تواريخ ظهور المؤلفات التاريخية إلى الوجود ، نلاحظ أن المصادر الشرقية ، وخاصة المصرية منها ، لم تتحدث عن المغرب والأندلس بصفة عامة ، إلا في القرن الثالث للهجرة / 9م (15)، ولم تبدأ حركة تدوين التاريخ عند العرب في الأندلس ، إلا في القرن الرابع الهجري (16). وقد تأخر اهتمام المغاربة بتدوين البعض من تاريخهم إلى عهد الموحدين(ق 6هـ / 12م) ، حيث وردت إشارات في المصادر المرينية في مرحلة لاحقة ، إلى مؤلفات تعرض لتاريخ المغرب وفاس والأندلس ، عاش أصحابها في القرن السادس الهجري (17).

وإلى جانب هذه الملابسات التاريخية ، نلاحظ أيضا أن تدوين تاريخ الأمة الإسلامية بصفة عامة ، في العصور الوسطى وما بعدها ، كان يتم عادة تحت رعاية السلطة السياسية القائمة ، إن لم نقل بإيعاز وتشجيع منها ، ففي الشرق الإسلامي ، كان من الطبيعي أن تعزف المصادر الأولى عن التأريخ للأدارسة والإمارات المغربية التي خرجت منذ انتفاضة البربر في القرن الثاني للهجرة، عن نطاق سلطة بغداد ، وأصبحت منذ ذلك الحين تناصب خلفاء بني العباس العداء ، وتنافسهم على الخلافة . أما في المغرب ، فقد تأخر الاهتمام بالتنقيب عن تاريخ الأدارسة و منجزاتهم العمرانية ، والدينية ، والسياسية إلى أواسط القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي . فالمرابطون والموحدون لم يكونوا يستطيبون سماع ذكر أخبار بني إدريس ، منذ إجهاز موسى ابن أبي العافية (313 - 341هـ / 952-925 م) على دولتهم في القرن الرابع للهجرة. إلا أنه مع مجيء بني مرين، بدأت المصادر التاريخية، وتحت رعاية السلطة المرينية، وبتشجيع منها وبدون شك ، تتحدث لأول مرة ، بوقار وتفصيل ، عن الأسرة الإدريسية وعاصمة ملوكها فاس، فصاحب الأنيس المطرب الذي أرخ للمغرب ولمدينة فاس بصفة خاصة ، من بداية الدولة الإدريسية الحسنية إلى سنة 726هـ أهدى كتابه إلى السلطان أبي سعيد عثمان المريني (719هـ / 731هـ) (18). ويتبين من مقدمة

هذا الكتاب ، أن ابن أبي زرع قد وضع مؤلفه لتمجيد الدولة المرينية ، ولإرضاء السلطان المذكور ونزولا عند رغبته. وهذا ما يستفاد من سياق نفس المقدمة ، وبصفة خاصة من الفقرة التي نص فيها على ذلك صراحة بقوله :"فاستخرت الله تعالى في تأليفه، و استعنته ، في تقييدة ، فسهل الله تعالى ما أردته من ذلك ويسره بفضله وبركات مولانا أمير المومنين الظاهرة الجاهرة "(19) . وبعد ابن أبي زرع، ألف علي الجزنائي كتابه تحت عنوان : جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، وأهداه إلى الوزير عمر الياباني المريني. وقد وضع هذا الكتاب بتكليف من هذا الوزير وبإيعاز منه. وهذا ما يتجلى بوضوح أيضا من مقدمة نفس الكتاب ، حيث نص على ذلك صراحة بقوله :"...وبعد ، فإنه لما كان من شيم سيدنا الوزير السعيد ... تعرف تواريخ الدول ، وأخبار الصدور الأول، أردت أن أطالع وزارته السنية، وسياسته اليابانية(20) الحفصية ... بكتاب مختصر يشتمل على ذكر من أسس مدينة فاس كلأها الله تعالى من الأدارسة الحسنيين وبناء جامعي القرويين والأندلسيين ، يكون تذكرة لمن تقدم له في ذلك سلوك وتبصرة لمن أقيم في خدمة الوزراء والملوك..."(21). وعن ابن أبي زرع ، وعلي الجزنائي وغيرهما من "مؤرخي" العهد المريني ، نقلت المصادر المتأخرة التي أرخت فيما بعد لفاس والأدارسة ، وبسبب ارتباط التأليف التاريخي بالسلطان السياسي ، كان من الطبيعي أن تخدم المؤلفات الجديدة إيديولوجية الدولة القائمة وتعبر عن توجهاتها السياسية والمذهبية، وأن يسخر مؤرخو البلاط المريني التاريخ للدفاع عن منظومة فكرية وسياسية قائمة، فالمرينيون كما هو معلوم، بسبب تبنيهم للمذهب المالكي السني ، وإقراره مذهبا رسميا للدولة، وفي إطار تصاعد تيار المد الصوفي القائم على تقديس آل البيت ، وتزايد نفوذ رجاله في هذه الفترة بالذات ، وجدوا انفسهم مضطرين إلى البحث عن دعم سياسي ، ومذهبي لتثبيت ركائز نظام حكمهم الذي لم يقم ، كما هو معروف ، على أساس دعوة دينية خاصة ، فلجأوا إلى تكريم آل البيت واحتضانهم ، وخصوهم بامتيازات هامة. وفي هذا الإطار ، حظي الشرفاء الأدارسة برعاية كبيرة من طرف ملوك بني مرين ، وأصبحوا منذ هذا التاريخ ، يحتلون مكانة خاصة وسط المجتمع على الصعيدين الرسمي والشعبي . وفي هذا السياق التاريخي ، كان من الطبيعي أيضا أن يخضع التأليف التاريخي للمنظومة الفكرية السائدة ، ويصاغ تاريخ الأدارسة صياغة جديدة موجهة بصورة تخدم الاتجاه الإيديولوجي والسياسي العام الذي كانت تسير فيه الدولة . فعند تجميع الإشارات التاريخية الواردة في المصادر المرينية ، والمصادر ما قبل المرينية ومقارنتها فيما بينها ، نجد تضاربا كبيرا فيما يتعلق بحقيقة الدعوة الإدريسية ، فقد انتقل الأدارسة مثلا من قرامطة متطرفة ، كما يستفاد من كلام المقدسي(22) (القرن الرابع الهجري / 10م) ،إلى شيعة زيدية على لسان البكري (23) (القرن الخامس الهجري / 11م) ، ومن فاطميين على لسان الإسطخري (24)(فارسي توفي 340هـ / 951م) ، إلى مالكيين وسنيين وآل البيت ، في الأسطغرافية المرينية وما بعدها (25) ، فعندما تحدث ابن أبي زرع عن تأسيس إدريس بن إدريس لمدينة فاس ذكر أن هذا الأخير ، لما شرع في بنائها ، رفع يده إلى السماء وقال :" اللهم اجعلها دار علم وفقه يتلا (كذا) بها كتابك ، وتقام بها حدودك ، واجعل أهلها متمسكين بالسنة والجماعة ما أبقيتها...)(26). ثم أورد بعد ذلك حديثا منسوبا إلى الرسول عليه السلام، لاشك أنه موضوع ، يقول :"ستكون مدينة تسما (كذا) فاس ، أهلها أقوم أهل المغرب قبلة ،

وأكثرهم صلاة ، أهلها على السنة والجماعة ، ومنهاج الحق ، لايزالون متمسكين به ، لا يضرهم من خالفهم ، يدفع الله عنهم ما يكرهون إلى يوم القيامة ..."(27).

وفي نفس الاتجاه ، أظهر علي الجزنائي تشيعا واضحا نحو الشرفاء الأدارسة ، ورفع في هذا الصدد ، إدريس الأول والثاني إلى مرتبة الأولياء ، وأكد على غرار ابن أبي زرع على سنية مذهبهم الديني ، كما أكد على قدسيتهم ، وفضائلهم على بلاد المغرب ، وإسلام أهلها قاطبة على أيديهم "(28). وبالإضافة إلى هذا ، نلاحظ أيضا عند مقارنة عدد من النصوص التاريخية، أن لهجة المصادر قد تغيرت كثيرا عبر تعاقب الحقب ، عند تأريخها للأدارسة ، في الفترة ماقبل المرينية وما بعد المرينية. فأبو عبيد البكري على سبيل المثال ، يكتفي عند حديثه عن إدريس الأول ، بذكر إسمه مجردا من أي تقديس أو تفخيم (إدريس بن عبد الله)(29)، في حين نجد صاحب الأنيس المطرب يصفه في كل مرة بالإمام إدريس بن عبد الله (30). وبعد ابن أبي زرع ارتفع إلى مرتبة ولي الله وابن رسول الله على لسان أبي الحسن علي الجزنائي ، صاحب جني زهرة الآس (31). وفي القرن الحادي عشر الهجري / 17م ، أضاف الحلبي عبارة أخرى بوصفه بالدر السني تارة ، والدر النفيس تارة أخرى(32). وفي مرحلة متأخرة جدا ، انتقل إدريس الأول إلى درجة "القطب الأشهر ، مولانا إدريس الأكبر الحجازي ، المغربي ، الزرهوني (33)، كما ورد على لسان صاحب سلوة الأنفاس_. فكيف يمكن تفسير هذا التدرج والتضارب في لهجة المصادر ؟

لقد احتل الأدارسة والشرفاء بصفة عامة ، منذ عهد بني مرين ، كما أسلفنا ، مكانة هامة وسط المجتمع المغربي ، وأصبحوا منذ ذلك الحين ، يشكلون فئة اجتماعية على حدة ، تستمد مشروعيتها الدينية والسياسية والاجتماعية ، من نسبها الشريف وأحقيتها في تولي الإمامة وأخذ نصيبها من بيت مال المسلمين (ذوو القربى)(34). وقد ازداد نفوذ هذه الفئة مع تصاعد المد الصوفي القائم أساسا على تقديس آل البيت والتبرك بهم. وفي هذا الإطار ، كان من الطبيعي ابتداء من عهد بني مرين أن يحيط كل الذين ترجموا للأدارسة وهم في أغلبهم من الشرفاء أو من العوام الفاسيين المتشيعين لهم ، بهالات ودلالات خاصة، لأن استحضار الماضي في الحاضر مفيد ، ويمكن توظيفه لتحقيق مآرب شتى.

الهوامش :

1) - Blachère (R) , Fès chez les géographies arabes du moyen âge. in Hespéris, TomeXVIII, 1er trimestre 1934, fascule1 , p p : 41 - 48 .

2) - أبو بكر أحمد بن محمد الرازي ، ويعرف أيضا بابن لقيط ،(ت : 344هـ / 955م) ، وصف الأندلس ، وهو كتاب مفقود للأسف ، ولكن لحسن الحظ ، انه ترجم إلى اللغة البرتغالية في القرن 7هـ / 13م ، بواسطة أحد القساوسة البرتغال إسمه خيل بيرث Perz Inil . وعن هذه الترجمة، نقل إلى اللغة الإسبانية بعنوان Cronica , delmoro, Rasis، وعن كتاب الرازي المذكور ، نقل كثير من المؤرخين الأندلسيين المتأخرين أمثال البكري. وقد أشار لفي بروفنصال أيضا إلى هذا "المؤرخ" عند حديثه عن تأسيس مدينة فاس في مقالة له ، صدرت في سنة 1938 بعنوان : La Fondation de fès , dans Annales de l'Institut d'Etudes orientales, Tome IV? Alger 1938 , p p : 23 - 52. ، أنظر أيضا حول أبي أحمد بن محمد الرازي ، كتاب الدكتور أحمد مختار العبادي ، في تاريخ المغرب والأندلس ، دار النهضة العربية ، بيروت 1978 ، ص : 377.

3) - أنظر فحوى هذا النص أيضا في :

Jean Brignon et autres , Histoire du Maroc, Paris 6 ème. Hatier , 1967 , P : 71.

4) - مرجع الإحالة رقم 1 ، ص : 42.

5) - البكري ، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز المتوفى سنة 487هـ ، المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب ، الجزائر 1857 ، ص : 115 - 134.

6) - الإدريسي الشريف أبو عبد الله محمد بن محمد . نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، جزآن ، بيروت ، لبنان 1979 ، الطبعة الأولى ، الجزء الأول ، ص : 242 - 243 .

7) - Lévi - Provençal , La Fondation de fès , dans Annales de l'Institut d'Etudes orientales Tome IV, Alger, 1938 , p p : 23 - 52.

8) - الفاسي ، علي ابن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ، الرباط 1972 ، ص : 14 .

9) - أنظر تصحيحات ، وتعاليق عبد الوهاب بن منصور ، في هوامش كتاب روض القرطاس ، في المصدر الآنف الذكر ، ثم النقد الذي وجهه لنفس المؤلف ، الدكتور أحمد مختار العبادي في كتابه في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية بيروت 1978. ص : 247 - 248 - 249 ، حيث دعم نقده ، باستشهاد على افتراءات علي ابن أبي زرع التاريخية ، بفقرة وردت في كتاب ابن مرزوق المسند الصحيح في مآثر أبي الحسن ، مثلا ، حيث يقول ابن مرزوق :"فبنو مرين أعزهم الله ، اعلام زناتة ورؤساؤها، وكبار قبائلها، وعظماؤها ، وقد وقفت قديما على رفع نسبهم إلى زناتة وقرأت بين يدي المولى المرحوم (أبو الحسن المريني) ، ما كتبه ابن أبي زرع في ذلك ، ومنهم سمعت قدس الله روحهم أن كثيرا من أخبار ابن أبي زرع أنكرها والدهم المرحوم المولى أبو سعيد عثمان ، وأكد به فيما أدركه ، مما حكاه على خلاف ماوقع عليه" ص : 248 - 249.

10) - الجزنائي ، أبو الحسن علي ، جنى زهرة الآس ، في بناء مدينة فاس. تحقيق عبد الوهاب بن منصور ، المطبعة الملكية ، الرباط ، 1967 .

11) - نفس المصدر ، ص : 98.

12) - ابن القاضي أحمد : جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس ، الرباط 1973.

13) - الكتاني محمد بن جعفر : سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس ، 3 أجزاء ، طبعت على المطبعة الحجرية بفاس سنة 1899.

14) - أنظر حول هذا الموضوع : كتاب علي أومليل : الخطاب التاريخي ، دراسة لمنهجية ابن خلدون ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط ، بدون تاريخ ، ص :13 وما يليها .

15) - أنظر في هذا الصدد ، كتاب الدكتور أحمد مختار العبادي ، في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية ، بيروت1978 ، ص : 311 وما يليها ، حيث يذهب صاحبه ، إلى أن أول كتاب عربي وصل إلينا عن تاريخ المغرب والأندلس ، كتبه المؤرخ المصري عبد الرحمان ابن عبد الحكم ، في القرن الثالث الهجري ، تحت عنوان : فتوح مصر والمغرب والأندلس (ص: 312).

16) - نفس المرجع ، ص : 314 وما يليها .

17) - أنظر في هذا الصدد ، مقدمة عبد الوهاب بن منصور ، لـ جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، مصدر الإحالة رقم 10، ص . أ - ب .

18) - مصدر الإحالة رقم 8 ، ص : 12 - 13.

19) - نفس المصدر ، ص : 13 - 14.

20) - اليابانية : نسبة إلى بني يابان بن كرماط بن مرين ، إحدى قبائل بني مرين .

21) - جنى زهرة الآس ، مصدر الإحالة رقم 10 ، ص : 1 - 2.

22) - الإحالة رقم 3 ، ص : 68 - 69.

23) - البكري ، مصدر الإحالة رقم 5 ، ص : 120.

24) - أنظر مرجع الإحالة رقم 3 ، ص : 68 - 69.

25) - أنظر حول هذا الموضوع أيضا بحث عبد الأحد السبتي "أخبار المناقب ومناقب الأخبار " في "التاريخ وأدب المناقب" ، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي ، الرباط 1988 ، ص : 104.

26) - ابن أبي زرع ، مصدر الإحالة رقم 8 ، ص : 36.

27) - نفس المصدر ، ص : 37.

28) - مصدر الإحالة رقم 10 ، ص : 4 - 5 - 13 - 20 .

29) - البكري ، مصدر الإحالة رقم 5 ، ص : 115 - 118 مثلا.

30) - ابن أبي زرع ، مصدر الإحالة رقم 8.

31) - زهرة الآس ، مصدر الإحالة رقم 10 ، ص : 4 - 9 مثلا.

32) - الحلبي أحمد ، الدر النفيس في مناقب الإمام إدريس بن إدريس . مطبوع على المطبعة الحجرية بفاس ، سنة 1300هـ / 1883 و1314هـ/ 1897.

33) - الكتاني ، مصدر الإحالة رقم 13 ، الجزء الأول ، ص : 69.

34) - أنظر حول هذا الموضوع : القبلي محمد مساهمة في تاريخ التمهيد لظهور دولة السعديين ، في كتابه : مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء 1987 ، ص : 79 وما يليها .

الأزمة الفلاحية في المغرب 1944 - 1945
وانعكاساتها الاقتصادية والاجتماعية

Jacques NOUVEL
تعريب: ذ. أمينة بريدعــة *

كان إنتاج سنة 1945 ، بعد سنة فلاحية كارثية سببا في أزمة داخلية وبداية مجاعة غير مسبوقة منذ فرض الحماية. فقد سمحت سنوات استثنائية جيدة بتساقطات مطرية كافية ومنتظمة بانتقال المساحة المزروعة إلى 4.332.000 هكتار في السنة الفلاحية 1941 - 1942 ، رغم المعوقات التي تتسبب فيها الحرب (متجاوزة بذلك 650.000 هكتار معدل سنوات ماقبل الحرب).

جفــــاف 1945:

لكن هذا الرقم تقلص في السنوات اللاحقة مع الاستنفار المكثف للأطر الأوربية ونقص المنتجات (وبالخصوص القطنيات ، مزيلة بذلك أحد محفزات العمل عند الفلاحين) وخاصة مع تساقطات مطرية غير منتظمة تلتها محاصيل تقل شيئا فشيئا ، ولهذا في سنة 45 - 1944 لم يزرع من الأراضي سوى 2.800.000 هكتار. ورغم بعض الاضطرابات الجوية في نهاية شتنبر لم تنزل ولو قطرة واحدة من الماء إلا في نهاية دجنبر. ولم يعد بإمكان الفلاح القيام بعمليات الحرث والزرع إلا في جزء من شهر يناير وبحيوانات جر في حالة سيئة. وأصبح عاجزا ، من الناحية المادية، على زرع ما كان يزرعه في السنوات الماضية، وزادت وضعيته ، للأسف ، خطورة ، حيث أنه مع شهر يناير بدأت فترة من الجفاف لم يسبق لها مثيل منذ توقيع الحماية ، ذلك أنه لم تسقط قطرة ماء خلال ثمانية أشهر، باستثناء بعض الزخات، هنا وهناك، واصفرت مزروعات الحبوب التي تشكل قاعدة الحياة الفلاحية بالمغرب، قبل نضجها، وضاع 50% من القطيع وانخفض مستوى العيون والفرشات المائية، ولم يقدر محصول المغرب سوى بحوالي 2400 قنطار أي

---

* أستاذة باحثة من الرباط .

بمردود متوسط في حدود قنطار في الهكتار ، مما يعني غيابا تاما للمحصول في جزء كبير من المغرب . أما المزارعون الأوربيون فرغم قلة عدد مازرعوه من هكتارات فإن المحصول كان أقل سوءا وسجل 1.128.000 قنطار.

فالأوربي الذي يمارس الزراعة الجافة بمعداته ووسائله لقلب الأرض يحمي نفسه ضد التقلبات المطرية أكثر من الفلاح الذي يعتمد على وسائل عتيقة. وقد أصابت هذه الكارثة الفلاحية المغرب، في وقت أثرت فيه الحرب على النقل والمبادلات ، بل الأخطر من ذلك أن البلاد لم تعد تتوفر على احتياطات ، حيث أن المصادرات على ضعفها ، وكذا التسويق المكثف، قد استنزفت الاحتياطات التقليدية للقبائل.

مكافحة الجوع :

منذ صيف 1945 ، أصبحت الضرورة ملحة لتموين السكان، ولم تعد المسألة مجرد تهديدات لمجاعات تتوطن في الجنوب كما هو الحال في سنة 1937 بل إن الأمر يتعلق بكارثة من شأنها نشر المجاعة في كل البلاد.

وإذا كان يبدو صحيحا تقدير استهلاك المغاربة من الحبوب بـ21 مليون قنطار ، كغذاء أساسي، ندرك كم هي كبيرة جدا مهمة الحكومة، وفي هذا الصدد فالدول ذات العملات القوية هي وحدها القادرة على تزويدنا بواردات ضخمة مثل الولايات المتحدة الأمريكية وكندا والأرجنتين، وبما أن المغرب لم تكن له عملات فقد كان على فرنسا وهي تواجه نفس المشاكل في الجزائر وتونس، أن تبذل مجهودا كبيرا وتقتطع من احتياطاتها من الذهب ومن القروض الفرنسية في الخارج . ولم يكن هناك تقصير داخل المغرب، فالموانىء وعلى الخصوص الدار البيضاء اكتسحت برواج تجاري لم تكن مهيأة له ، وكان يجب فيما بعد توزيع هذه الحبوب نحو جهات نائية من البلاد، بسكك حديدية نال منها البلى وعدد محدود من الشاحنات المنهوكة بفعل الحرب، وهي ما زالت في أولى مراحل تجديدها. وإذا أخذنا الوسائل بعين الاعتبار ، يمكن القول أن التنظيم كان ملفتا للنظر ، ولم نصل مع ذلك لضمان سوى حصة 300 غ للفرد الواحد يوميا وهو رقم هزيل بالطبع إذا وضعنا في اعتبارنا أن الحبوب تشكل أساس تغذية جزء من السكان، كما أن المال أيضا قليل عند الكثيرين، وبلغت الأشغال الكبرى كذلك أقصى حد لها. في المناطق الأكثر تضررا كانت الورشات التي يقال عنها ورشات "إحسان" "de charité" قد فتحت لتحقيق أشغال مفيدة، لكنها ثانوية من حيث الاستعجالية.

إن العناصر الأكثر تضررا من سكان البوادي تدفقت نحو المدن التي كانت توزع فيها الحريرة الشعبية على نطاق واسع، ولتوقيف هذه الهجرة المؤلمة اجتماعيا ، والخطيرة بالنسبة للجميع ، وما يصحب البؤس دائما من أوبئة ، فقد كان توزيع الحريرة والحبوب يتم مجانا في أسواق البلاد.

رغم كل شيء تتدخل الأوبئة، ويصل البؤس مداه الأقصى، وترتفع الوفيات في بعض المناطق، ولكن ، يمكن القول أنه لولا هذا الجهد الكبير من طرف فرنسا والحكومة لارتفع عدد الأموات إلى مئات الآلاف ، ولكانت ستكون هناك مجاعة لا سابقة بها . من جهة أخرى

فالأمر لايعني فقط الحيلولة دون موت الناس من الجوع لكن تهييئهم للرجوع إلى الحياة العادية وحتى يتمكن الفلاحون من زرع بذورهم لسنة 1945 - 1946 رغم أن أغلبيتهم أكلت آخر حبة.

كان يجب كذلك إيجاد بذور لشرائها ضمن عدد متنوع له حظ التكيف مع المغرب، وتمويل مشترياتها وتقديمها بعد ذلك للمزارعين (هكذا يمكن تقديم حوالي 1.200.000 قنطار للفلاحين). ولتمويل هذه السلفات كان يتم اللجوء إلى "شركات الاحتياط الأهلية" وصناديق القرض الأهلية التي كانت الدولة تقدم سلفات لها، وهكذا بلغ الاقتراض من أجل بذور سنة 1945 - 1946 ، 330 مليون فرنك معظمها عينية. وبفضل هذا المجهود تمكن الفلاحون في كل المناطق من الانطلاق على أمل سنة أحسن.

مضاعفات المجاعة:

هل يمكن إبراز مضاعفات هذه السنة الفظيعة ؟ خارج سنة البؤس والموت هذه، وما استتبع ذلك من أحوال صحية(وباء الحمى الراجعة لم يتوقف إلا في نهاية السنة) لايبدو أن المغرب عانى كثيرا على المستوى الاقتصادي.

حقا إن الزراعات في 1945 - 1946 لم تسترجع توسعها السابق، فقبل موسم زرع الذرة لم تتعد المساحات المزروعة مليوني هكتار أي 58% مما زرع في السنة الماضية و45% من متوسط ماقبل الحرب، لكن الذرة غطت 500 ألف هكتار - وهو المتوسط العادي - وكان المردود جيدا بفضل حسن تنظيم الأمطار، وبلغ تقريبا الأرقام التي يتطلبها الاستهلاك الداخلي، كما اقتربت عملية البذر كثيرا من المعدل العادي.

أما على الصعيد الاجتماعي فقد كانت الانعكاسات أكثر استمرارا وخطورة، لاتوجد تحريات دقيقة وهي مهمة كانت ستكون صعبة، ولكن الملاحظين المحليين كانوا يجمعون على ذلك. وكما هو الشأن بالنسبة لكل سنة عجفاء فقد نزعت الملكية الصغيرة نحو الاختفاء لصالح الكبيرة ، وذلك بسبب امتداد الأزمة وخطورتها.

أهم الضحايا : الملاك الصغير:

عندما استنفذ الملاك الصغير كل احتياطاته اضطر لبيع الأرض، في وقت كانت فيه مطامير الأعيان وتجار المدن تتوفر على احتياطات من الحبوب، كما كان الواحد من هؤلاء يشتري نقدا وعينا ، وتبعا لعادة قديمة في البلاد ، فإنهم يؤدون عموما على دفعات دون أن ينهوا في الغالب تسديد كل المبالغ، وحتى إذا تم تسديدها ، فإن ذلك لايحصل إلا في مواعيد متعددة وفي وقت يكون فيه المال والحبوب أقل ندرة مما يقلل من ثمنها الحقيقي ، وبهذا يتمكن الكبار مقابل شيء قليل من الحصول على أراضي الصغار.

إن الدولة تكافح ضد هذا النوع من الربا، فخلال سنة 1945 تم إصدار ظهير "ملك العائلة" وهو ملك إجباري وغير قابل للتحويل والحجز، وكل تحويل عقاري يجب أن يخضع لتحقيق من طرف مصالح التسجيل، إذا تعلق الأمر بأراضي مبينة في السجل العقاري، أما إذا تعلق الأمر بأراضي خاضعة للشرع الإسلامي ،فإن ذلك يتم أمام المحاكم.

لقد أعطت هذه الإجراءات إلى حد ما ثمارها، وذلك بفضل تيقظ مسؤولي المراقبة، ولكن في جزء كبير من البلاد لم يكن الناس متعودين على تقييد مشترياتهم في سجل العدول رغم

أن الشرع الإسلامي ينص على ذلك، إذكان كل شيء يمر أمام شهود فقط، وحتى إذا توفرت الإمكانية القانونية للفلاحين فإنهم لايفكرون حتى في إلغاء البيع، أضف إلى ذلك أن "ملك العائلة" "Bien de famille" لايتعدى خمس هكتارات، ولقد سجلت سنة 1946 دون جدال - ولسوء الحظ - تراجعا كبيرا للملكية الصغيرة لدى المغاربة في كثير من المناطق.

والكساب الصغير :

كانت الوضعية بالنسبة للكساب الصغير أخطر في المناطق التي يشكل فيها القطيع ثروة أساسية، وحيث يرعى كل واحد على أرض جماعته، ففي مناطق مراكش وتادلة وفي الأصقاع التي تأثرت كثيرا، كان موت الماشية مخيفا. وهكذا أصبح من كان يملك 400 كبشا لايملك بعد صيف 1946 سوى 20 أو 25 ومن كان يملك 20 أصبح بدون ماشية، وإذا كان يبقى للأول رأسمال صغير يمكن تنميته بسرعة مع سنوات جيدة، فلايمكن للثاني، الذي يمثل أغلب الحالات ، أن ينطلق من جديد.

لقد أصبح الفلاح الذي لم يعد يملك، والكساب الصغير برولتاريين، انتزعا من بيئتهما، وفي أغلب الحالات لايجدان سوى الهجرة نحو المدينة حيث يبدو من السهل العثور على عمل، مما يضخم عدد سكان"الأحياء الصفيحية"، وهي كتلة ضعيفة المستوى، بدون أي استعداد للعمل الذي يتطلب قدرا من التخصص في المدن الكبرى، فخارج إطار البؤس والموت، كان للمجاعة مضاعفات اجتماعية امتدت على سنوات طوال.

تطور العلاقة "ديموغرافيا - إنتاج" مشكل مقلق :

وأخيرا فإن أزمة كهذه التي اجتازها المغرب، تفرض الوعي الكامل بـالأحداث الأكثر خطورة لتطور البلاد مستقبلا والتي ترتكز على ملاحظة أساسية: الزيادة السريعة للسكان.

إن الفلاح المغربي لاينمي إنتاجه إلا ببطىء كبير، حتى وإن استثمر أراضي جديدة، كما أن الريع المتوسط ، على أراضي تزرع باستمرار ينقص في غالب الأحوال. لذا يجب بكل الوسائل عصرنة عمل الفلاحين والرفع من إنتاج أراضيهم ، والنزوع نحو جعله يضاهي إنتاج الفلاحين الأوربيين الأقوى منه.

إن المغرب ،شأنه في ذلك شأن كل بلدان إفريقيا الشمالية والشرق يوشك في السنوات المقبلة ألا يتمكن من رفع مستوى العيش الفردي بفضل الزيادة المنتظمة والكبيرة لسكانه، على العكس، فإنه يخشى عليه من نقص خطير. إن تطور العلاقة"ديموغرافيا - إنتاج" مشكل مقلق، ومع ذلك، إذا تمكنا من استثمار الاحتياطات المائية بطريقة ممنهجة كما بدأنا، يمكن للمغرب أن يتجه قدما نحو المستقبل بكثير من الأمل عما هو عليه الأمر في الجزائر وتونس، لكن أي تأخر أو ضعف ليس مقبولا في الخمسين سنة القادمة، إذا أردنا الابتعاد عن الرجوع إلى كوارث مرعبة مشابهة لتلك التي لم نتمكن من تفاديها سنة 1945 وربما أخطر من ذلك.

هذه ترجمة لمقال صدر بـ Revue de géographie humaine et d'ethnographie (Juillet - Septembre 1948)

لصاحبه : Jacques NOUVEL تحت عنوان : La Crise agricole de 1945 - 1946 au Maroc et ses conséquences économique et sociales.

الزيتون والزيت في المغرب القديم

ذ. سيدي محمد العيوض*

كان لشجرة الزيتون أهمية بالغة في الحياة اليومية عند الشعوب القديمة. إذ أصبحت الشجرة المقدسة في أرض كنعان ورمزا للسلام عند الإغريق والرومان. ففي أثينا وأولمبيا كان الأبطال يضعون على رؤوسهم أكاليل من أغصان الزيتون (1) . كما دأب المصريون على وضع أغصان صغيرة من شجرة الزيتون في مقابرهم(2) .

توضح هذه المعطيات أهمية وقدسية هذه الشجرة عند الإنسان القديم. أما في خصوص تاريخ انتشار غراسة هذه الشجرة على ضفاف حوض البحر الأبيض المتوسط تفيد بعض المعطيات أن ذلك ربما يعود للألف الرابع قبل الميلاد(3) . وفي إفريقيا أكدت الدراسات على وجودها منذ العصر الباليوليتي الأعلى(4) وبالتحديد في المغرب القديم حيث توفرت شواهد تفيد معرفة السكان لهذه الشجرة. ففي تافوغالت أفادت المعطيات، أن الإنسان الإيبروموريزي لمغارة الحمام كان يعرف شجرة الزيتون(5). كما كشفت حفريات الباحث م.بونسيك في منطقة طنجة وضواحيها عن وجود حبات زيتون محروقة في عدة مقابر فينيقية. إن الذي يؤكد الأهمية التي حضيت بها غراسة هذه الشجرة، أنه على عهد الدولة القرطاجية تم خلق محور تجاري مزدهر. وسعيا منها لمواجهة المنافسة الخارجية، قامت هذه الدولة بإتلاف أشجار الزيتون المغروسة في المراكز الفينيقية في سردينيا(6) حفاظا على الريادة القرطاجية في هذا المجال، الشيء الذي يعكس تفوق القرطاجيين في هذا المنتوج(7). وقد ازدهرت هذه الغراسة في منطقة الشمال الإفريقي بصفة عامة نظرا للظروف الطبيعية الملائمة من جهة وقلة المصاريف والعناية التي تتطلبها . علاوة على أن الأباطرة الرومان عملوا، خلال فترة معينة، على تنمية غراسة الزيتون لتلبية حاجيات روما المتزايدة من الزيت وكذا العمل على استقرار السكان بهدف إكمال المشروع الروماني الاستعماري. وقد دلت الشواهد الأثرية في المغرب القديم، على أن انتشار هذه الغراسة يعكس زمن السيطرة الرومانية (8).

---

* أستاذ باحث بالمدرسة العليا للأساتذة الرباط

وقبل تحديد أهمية الزيت، من المفيد أن نعرف أولا ببعض الأساليب التي استعملت قديما في غراسة الزيتون نذكر منها :

- التطعيم : وهي تقنية تمارس على الزيتون البري.
- الغرس : وهي عملية نقل شجرة الزيتون لغرسها في مكان آخر ليكتمل نموها.
- التشذيب : وهي عملية تستهدف تقليم الشجرة في فترات معينة، وقد حددت هذه المدة - حسب المصادر - في سنتين(9) .

ومن ضمن التقنيات الأكثر تداولا تقنية التقضيب (Recépage) وهي عملية تحافظ على التجديد المستمر لشجرة الزيتون. علاوة على ذلك ،وجدت تقنية أخرى عرفت بالافتسال (Bouturage)، وقد كانت مفضلة عند الإغريق أكثر من التطعيم(10).

إذن ماذا عن أهمية الزيت في حياة الإنسان القديم ؟

استعملت زيت الزيتون في مجالات مختلفة ، فقد وظفها القدماء في التطبيب إذ اعتبرت إحدى المواد الأكثرتداولا في تهييء العديد من وصفات أبقراط. كما استعملت من طرف غاليان الذي عرف ما يناهز 473 دواء من أصل نباتي يوجد الزيت من ضمنها أحيانا كمادة أساسية وأحيانا أخرى كمكون. ومن بين الفوائد التي عرفت بها كذلك أنها تدفيء الجسد وتحميه من البرودة وتنعش حرارة الرأس(11). كما استغلت في علاج آلام الأذن(12) واسترخاء العضلات والوقاية من الصداع والآلام. وقد استعملت كدواء لمعالجة أمراض الجلد والحروق إضافة إلى أنها كانت مادة أساسية في التغذية. زد على هذا ، أن المستحمين كانوا يدهنون أجسامهم بها، ولها منافع أخرى كالتجميل وإضاءة القناديل...

تعكس الآثار المادية المرتبطة بإنتاج مادة الزيت أهميتها الحيوية. وإذا كانت النصوص القديمة لا تساعدنا على الإحاطة بأهمية إنتاج الزيتون والزيت ، فإنه برصد المناطق التي كشفت فيها الحفريات عن وجود آثار مادية مرتبطة بإنتاج الزيت، وكذا المناطق التي انتشرت بها أشجار الزيتون نستطيع أن نكون فكرة عن أهمية هذا المنتوج .

لقد دلت المعطيات على أن منطقة وليلي اشتهرت بإنتاجها للزيتون والزيت ويبرز هذا من خلال ما كشفت عنه الحفريات من معاصر والتي وصل عددها حاليا إلى 72 معصرة (13) ، كما وجدت بمنطقة بناصا عدد من المعاصر ، وبالنسبة لهذه المنطقة لا نعرف لحد الآن ما إذا كانت في إحدى مراحلها التاريخية منطقة إنتاج للزيتون أم أنها استوردته من جهات أخرى خاصة وليلي. ويبدو أن الميل إلى الرأي الثاني هو الأسلم.

يعتبر التغيير الذي طرأ على بعض الوسائل المستعملة في استخراج الزيت مؤشرا على الزيادة في مردودية هذا الإنتاج. إذ جرت في استخلاص هذه المادة، اللجوء إلى مجموعة من الأدوات من بينها الثقالات التي كانت توظف في عصر الزيتون، إذ كانت في شكلها الأول عبارة عن ثقالات مقنطرة، غير أنه تم الاستعاضة عنها بثقالات أسطوانية وهو تغيير يعكس الرغبة في الرفع من المردودية. وقد تم التأريخ لهذا التغيير بالقرن الثاني للميلاد.

يقودنا تنامي هذا الإنتاج إلى الحديث عن محاور تجارية بين وليلي وباقي مدن المغرب القديم. كما أن العثور، في جل المواقع التي شملتها الحفريات ، على عدد مهم من قطع أمفورات نوع دريسل 20 التي اشتهرت بنقلها لزيت بتيكا ، يعد مؤشرا على العلاقات الاقتصادية بين المغرب القديم وشبه الجزيرة الإيبيرية.

إلا أن العثور على قطع من نفس الصنف من الأمفورات بمنطقة وليلي ، التي اشتهرت بزياتينها وإنتاجها للزيت، يجعلنا نطرح أسئلة حول مصدر استيراد هذه المادة.

إن الجواب الذي يبدو مقنعا، في نظرنا ، يكمن في تلبية حاجيات جالية أجنبية فضلت استهلاك الزيت الإسباني التي اشتهرت بجودتها مقابل الزيت الإفريقية التي وصفت بالرديئة. وإذا كان نعت هذه الأخيرة بالرديئة قد لا ينسحب على زيت موريطانية الطنجية، فإن ذلك لايعدو مجرد عملية دعائية لصالح زيت بتيكا التي كانت تجارتها منظمة تنظيما محكما (14) .

تلك بعض المعطيات حول إنتاج الزيتون والزيت ومناطق وجودها ومدى أهميتها في الحياة اليومية للإنسان القديم.

الهوامش :

PLINE L'ANCIEN, Histoire NaturelleXV, 19,Texte établi, traduit et commenté par J.ANDRE, Paris1960.

2) - CAMPS FABRER (H) : L'olivier et l'huile dans l'afrique romaine,Alger 1953, P:11

3) -FIORINO (P) NIZZI (F) : L'Oleiculture et son développement, dans Olivae n° 44, décembre 1992,P:9.

4) - CAMPS FABRER (H) : L'Olivier et l'huile dans l'afrique romaine, P : 11.

5) - AKERRAZ (A) LE NOIR (M), l'oleiculture dans le Maroc antique, dans Olivae n°3 , Octobre1984, P:12.

6) - FIORINO (P) NIZZI (F), L'Oleiculture et son développement, P: 10.

7) - GSELL (S): L'histoire ancienne de l'Afrique du Nord, T.1 , Paris 1920, P : 19

8) - AKERRAZ (A) : LE NOIR (M) : L'Oleiculture dans le Maroc antique, P :13.

9) - CAMPS. FABRER (H) : L'Olivier et L'huile, P : 16

10) - MARIE CLAIRE MOUREFTI : Oléiculture er viticulture dans la Grèce antique, dans Agriculture in Ancient Grèce, proceedings of the seventh international syposium et the swedish institue at Athens 16 - 17 May 1990 , Stockholm 1992 , P : 77 - 86.

11) - PLINE L'ANCIEN, H.N.XV, 15.

12) - JURADO (A) : L'huile dans les remèdes populaires , dans Olivae n° 33 octobre 1990, P : 8.

13) - معلومات زودنا بها مساعد محافظ موقع وليلي الأثري عبد الفتاح أشخاخ.

14) - محمد مقدون : ثورة أيدمون 44 م - 40م ، د. د. ع كلية الآداب فاس 1988.

ثورات بلاد غمارة خلال الفترتين المرابطية والموحدية

ذ.محمد العمراني*

مقدمة:

شهد القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي قيام مجموعة من الفتن والثورات في منطقة غمارة.وارتبطت هذه التمردات في كثير من الأحيان بأشخاص عرفوا إما بصلاحهم وزهدهم،أو بادعائهم الهداية والإتيان بالخوارق والمعجزات.ويبقى تفسير هذه الثورات ناقصا إذا لم يتم الرجوع إلى دراسة المجال الذي تحركت فيه هذه القبائل،وكذا معرفة بعض الوقائع التي أثرت في ذهنية المجتمع الغماري منذ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب الأقصى وإلى حدود قيام الدولة المرابطية.كما أن المعلومات القليلة التي تمدنا بها المصادر حول هذه الفتن أدت إلى اهتمامنا بالموروث الثقافي لهذه القبائل وذلك لما له من تأثير على صياغة الأحداث التي عرفتها المرحلة المدروسة.

ويبقى استنطاق المصادر الجغرافية الوسيطية ، وخصوصا تلك التي عاصرت أحداث هذه الانتفاضات،أو كتبت خلال الفترة القريبة منها،مسألة ضرورية للكشف عن بعض المعطيات التي بإمكانها إماطة اللثام عن كثير من القضايا الغامضة التي لا تزال تلف تاريخ بلاد غمارة.

غمارة بين صعوبة تحديد ومشكل توطين الامتداد القبلي:

إن تحديد مجال تحرك قبائل غمارة تواجهه صعوبات كثيرة،فالمصادر الجغرافية الوسيطية غير واضحة في هذا الصدد،زيادة على عدم اتفاق المؤرخين حول أصل قبائل غمارة وحدودها الجغرافية(1).ويرجع سبب ذلك إلى كون النطاق الذي تواجدت فيه قبائل غمارة لم يكن حكرا عليها فقط،بل نافستها فيه كذلك قبائل صنهاجة.وهذا ما تعكسه المصادر بشكل جلي عندما تتحدث عن هذه القبائل فهي تقرنها دائما بقبائل صنهاجة(2).ولعل ذلك ما جعل هذه الكتابات تقع في خلط أحيانا،عندما تريد الحديث عن مناطق تواجد غمارة ، أو أثناء إشارتها إلى بعض قبائلها وبطونها(3)،كما أن المصادر تستعمل غمارة كإشارة إلى المجموعة البشرية ، وأحيانا أخرى للحديث عن المجال

---

* أستاذ باحث كلية الآداب مكناس

الجغرافي(4).ويفرض علينا الموقف ضرورة تحديد المصطلح من خلال نصوص المؤرخين والجغرافيين،كخطوة أولى،قبل الحديث عن حدود غمارة جغرافيا،وعن إمكانياتها الاقتصادية.

ذكر مؤلف العبر بأن غمارة قبيل من بطون المصامدة(5)،وأشار إلى أن السبب في تسميتهم بذلك الاسم هو"قول بعض العامة أنهم عرب غمروا في تلك الجبال فسموا "غمارة"(6)،وقال كذلك بأنهم شعوب وقبائل لا يمكن حصرها،لذلك اكتفى بذكر بطونهم المشهورة،والتي حددها في "بنو حميد" ،"متيوة"،بنونال"،"أغصاوة " بنو زروال" و"مجكسة" (7).وجاء في "كتاب الأنساب" لابي حيان(8) أن غمارة "فرقة من المصامدة كانت تستوطن
بلاد غمارة إلى حد طنجة وسبتة"،وذكر قبائل أخرى لم ترد في كتاب العبر(9)،وجاء في "مفاخر البربر"الذي اعتمد على كثير من أهل العلم بالانساب:"ان غمارة اسم رجل،وهو غمار بن مصمود لصلبه"(10)غير أن ما يثير الانتباه في كلام المؤرخ المجهول عن غمارة،أنه يذكرها باعتبارها إحدى القبائل البربرية المنتمية الى البرانس الى جانب المصامدة وصنهاجة ، وغيرهما من القبائل،دون أن يؤكد على أنها إحدى الفرق المصمودية.وقال بأن:"لها شعوب كثيرة وقبائل جمة،وبطون، و أفخاد ، وعمائر غزيرة "(11).في حين ينص فيه ابن خلدون على أن غمارة ما هي إلا إحدى بطون المصامدة(12)،ويبرهن على رأيه هذا بأن"قصر المجاز" ينسب الى المصامدة الذين يستوطنون المنطقة الممتدة ما بين سبتة وطنجة"(13).

لم ينحصر هذا التضارب بين روايات المؤرخين ونصوص الجغرافيين على مستوى تحديد أصل غمارة فقط،وإنما تعداه كذلك إلى مستوى تحديد مجال تحرك هذه القبائل.فيشير بعض الاخباريين إلى أن غمارة كانت تستوطن جبال الريف بساحل البحر الرومي من "غساسة" إلى "طنجة" مرورا عبر "نكور"،"بادس" تيكساس"،"تيطاوين"،"سبتة"،"فقصر المجاز" عبر خمس مراحل،أو أكثر حيث اتخدوا من جبالها ملجأ،عبر خمس مراحل أخرى عرضا إلى حدود بسائط قصر كتامة ووادي ورغة(14).وكان هذا المجال يمتد في الماضي باتجاه الجنوب،عندما كانت قبيلة بني حسان الغمارية تستوطن الساحل الممتد من أصيلا إلى أنفا(15).وإذا كانت رواية العبر قد أعطت تحديدا للامتداد الجغرافي لهذه القبائل،فإن أبا حيان اكتفى فقط بتحديد الجهة الغربية لبلاد غمارة والمتمثلة في طنجة وسبتة(16)،مع اشارته لبعض المراكز الحضرية المتواجدة في هذا النطاق مثل تيطاوين وكتامة(17).وتتميز معطيات الجغرافيين الوسيطيين بدقتها في هذا الصدد،فالادريسي يشير إلى أن مرسى"انزلان" يعتبر أول بلاد غمارة،بينما تعتبر بادس "آخرها"(18).وبلاد غمارة في منظوره "هي عبارة عن جبال متصلة بعضها ببعض،وطولها حوالي ثلاثة أيام"،ويحددها جنوبا بجبال الكواكب التي تمتد على طول أربعة أيام حيث تنتهي قرب مدينة فاس،ويسكنها غمارة(19).ويلاحظ من خلال هذا التحديد أن هناك تمييزا بين غمارة المجال،وبين غمارة القبيلة،ذلك أن منطقة غمارة لا تعني عند الادريسي بالضرورة مجال استقرار سكان هذه القبيلة،كما هو الشأن -مثلا-بخصوص "حصن تيقساس" الذي يقول عنه أنه "حصن معمور

في غمارة،لكن أهله بينهم وبين غمارة حرب دائمة"(20).أما مؤلف كتاب الاستبصار فيحصر غمارة في الجبل الذي يقول عنه،إنه من الجبال المشهورة،تسكنه قبائل كثيرة من غمارة وهي أمم لا تحصى.وأضاف بأن طول هذا الجبل مسيرة ستة أيام وعرضه نحو ثلاثة أيام(21).أما ابن سعيد فيحدد المجال الغماري ، دون الإشارة إلى القبائل التي تستوطنه،فذكر أنه"أول ما يلقاك في بر العدوة بعد سبتة جبل غمارة العالي الطول،العريض،فيه من الامم ما لا يحصيهم إلا الله تعالى"(22).

يتضح أن نطاق تحرك قبائل غمارة شاسع ومطاط في آن واحد،فهو يشرف على البحر المتوسط شمالا(23)،ويمتد جنوبا إلى قرب مدينة فاس.كما أن قبائل غمارة وجيرانها تضطر،وفي كثير من الاحيان،اللجوء إلى الجبال والحصون المرتفعة قصد الاحتماء بها عند خروجها عن السلطة الشرعية مرابطية وموحدية(24).فالوضعية غير مستقرة لسكان هذه المنطقة من جهة (25)،وكذا عدم إلمام المؤرخين والجغرافيين الوسيطيين بالمجموعات القبلية المتواجدة ببلاد غمارة من جهة أخرى،كان مسؤولا عن عدم تقديم صورة واضحة عن الاحداث السياسية والفتن التي عرفتها المنطقة خلال القرن السادس الهجري/12 م.وهذا ما عكسته لنا طريقة نقل الخبر عن ثورة أو فتنة حدثت بهذا الجزء من المغرب الاقصى(26).

الأهمية الاقتصادية والاستراتيجية لمنطقة غمارة وأثر ظهور سلطة مركزية على وضعية المجتمع الغماري.

يعتبر هذا النطاق الجغرافي،وحسب شهادة الادريسي وصاحب الاستبصار،مجالا غنيا من حيث الثروات الطبيعية خاصة الأشجار(27)،فقد أشار صاحب "كتاب الجغرافيا" إلى وجود "الأرز" الذي كان يستخدم في صناعة الأساطيل،كما استعمل في مجال البناء(28).وتحدثت كتب الجغرافيا عن مناطق زراعية مهمة لا تحصى،وجاء في بعضها أن "غمارة من أخصب جبال المغرب"(29).فهي تتوفر على منتزهات وأودية لا توجد في غيرها من الأماكن،كثيرة الأعناب"والفواكه والعسل (30).ولم تتحصر الأهمية الاقتصادية لمنطقة غمارة في خصوبة أراضيها الزراعية فحسب،بل وفي توفرها على موانئ أو قربها منها حيث لعبت دورا مهما في العلاقات التجارية بين مختلف جهات غمارة(31).وتم تنظيم الاسواق في عدة مراكز مثل:سبتة ، بادس ، تيكساس، وقصر عبد الكريم(32).وزادت أهمية هذه الحركة التجارية بفعل عملية العبور المستمر من الأندلس وإليها عبر سبتة"وقصر مصمودة"(33) الذي يأتي على رأس المجاز الاكبر إلى ديار الأندلس"(34).ويتواجد بهذه الجهة كذلك نشاط الصيد البحري(35)،الذي حرك بعض الأنشطة الحرفية (36)،وفي نفس الوقت تنشيط المبادلات التجارية(37).

إن أهمية منطقة غمارة استراتيجيا واقتصاديا كانت على ما يبدو دافعا للاهتمام بها منذ مرحلة ما قبل الفتح الإسلامي لبلاد المغرب.ذلك أن جغرافيا عاش خلال القرن السادس هـ/12م،لا حظ أن هناك آثارا كثيرة للأوائل،مما يدل على قدم تعمير هذه الجهة(38).وإذا كانت هذه الكتابات قد أكدت على استمرارية غنى المنطقة من الناحية الفلاحية وكذا على أهمية مدنها التجارية،فإن قبائل غمارة لم تستفد من خيراتها نظرا لمحاصرتها في أعالي

الجبال منذ بداية الفترة المرابطية.ويذكر صاحب الاستبصار في هذا الصدد عن جبال غمارة أن فيها "حصون كثيرة تمتنع فيها غمارة.وتتفق على الولاة ،وبذلك عرفوا حتى كسر الأمر العزيز شوكتهم،وأباد شرارهم واستأصل شأفتهم(39).
وقد كان لتحكم غمارة في ممر استراتيجي للعبور إلى الأندلس دافعا وراء تشديد الخناق عليهم،والعمل في نفس الوقت على إجهاض أي محاولة تمردية من شأنها أن تعرقل المشروع المرابطي أو الموحدي بشبه الجزيرة.
وإذا كانت دراسة الإطار الجغرافي قد مكنتنا من بعض الأدوات المساعدة على تقديم تفسير لمختلف الفتن والثورات التي شهدتها المنطقة خلال القرن السادس هـ /12م،فإن معرفة تاريخ غمارة منذ الفتح الإسلامي بالمغرب تعتبر خطوة ضرورية لفهم ميكنزمات الانتفاضات الغمارية.

محطات هامة في تاريخ المنطقة،أو غمارة من الفتح الاسلامي إلى القرن السادس الهجري/12م.

تذكر المصادر بأن علاقة قبائل غمارة بالإسلام ترجع إلى مرحلة الفتوحات الإسلامية الأولى ببلاد المغرب(40) حيث أسلمت هذه القبائل على يد صالح بن منصور جد سعيد بن إدريس مؤسس مدينة نكور(41).غير أن غمارة ما لبثت أن "ارتد أكثرها لما ثقلت عليهم شرائع الإسلام"(42).وإذا كانت المحاولات الأولى لنشر الإسلام بين قبائل غمارة قد تمت قبل مجيء موسى بن نصير ،فإن هذا الأخير ،وحسب رواية العبر،هو الذي حمل هذه القبائل على اعتناق الدعوة،كما ساهمت غمارة كذلك في تكوين جيش طارق بن زياد عند فتحه الأندلس(43).وإذا كانت سبتة هي حاضرة المنطقة مع بداية الإسلام،والتي كانت مقر حكم أمير غمارة يليان،الذي ساعد المسلمين على فتح الأندلس رغم عدم إسلامه(44)،فإن هذه الحاضرة لم تلبث أن دخلت تحت طاعة الإسلام بعد تتابع الهجرات العربية إلى المغرب الأقصى(45).فهذه الهجرات كان لها دور في عملية نشر الإسلام في مختلف حواضر غمارة والمراكز القريبة منها كما هو الشأن بالنسبة لمدن"نكور"،"تطاوين"،"أصيلا" وطنجة(46).واستطاعت قبائل غمارة فرض سلطتها السياسية على سبتة بعدما تم تخريبها (47).وبعد قيام دولة الادارسة بفاس كانت غمارة تؤدي لها الطاعة(48).
وإبان الصراع الاموي الفاطمي بالمغرب الأقصى خلال القرن الرابع **هـ/ 10م**(49)،خضعت مدينة سبتة،وكذلك غمارة للأمويين بالأندلس حيث قام أهلها بالدعوة السنية المالكية(50).غير أنه وفي نفس الفترة بقي التأييد والتعاطف قائمين مع الأسرة الادريسية،التي لجأ بعض أفرادها إلى منطقة غمارة،وأسسوا بها بعض المراكز مثل قلعة حجر النسر التي كانت ملجأ للادارسة(51).ولعل الدليل على استمرارية هذا التعاطف،هو أخذهم بالدعوة الادريسية بعد القضاء على الدولة العامرية،وتقديم طاعتهم إلى الحموديين،الذين لعبوا دورا مهما في الأحداث السياسية بالأندلس عقب الفتنة البربرية(52).وقد بقي هذا الولاء مستمرا الى قيام دولة المرابطين التي يقول عنها صاحب العبر إنها تمكنت من إخضاع غمارة،"فأقاموا في طاعة لمتونة سائر أيامهم"(53).غير أننا لا يمكن التسليم برأي ابن

خلدون هذا،خصوصا وأن مصادر أخرى تؤكد على أن هذه المنطقة عرفت في كثير من الاحيان ظهور حركات متمردة على المرابطين،كما تميزت بخروجها عن الولاة.وهذا ما فرض ضرورة تكثيف المراقبة العسكرية على هذه الجهة من خلال إقامة الحصون ومرابطة الجيوش(54).وما يلفت انتباهنا بخصوص المرحلة المرابطية،هو صمت المصادر عن ذكر أحداث الثورة والتمرد،باستثناء رواية البيدق(55) التي أشارت إلى قيام انتفاضة على عهد علي بن يوسف،ثم رواية ابن عذاري حول ظهور ثورتين على عهد يوسف بن تاشفين وخلفه(56)،ثم انفراد الشطيبي برواية عن ثائر بمدينة سبتة على عهد علي بن يوسف بعد ظهور المهدي بن تومرت في المغرب(57) فهل هذا يرجع إلى الحضور الأمني والعسكري للمرابطين بالمنطقة؟ أم أن الفترة لم تعرف ظهور زعامة روحية،أو شخصية جذابة تعمل على تحميس غمارة،وحثها على نبذ الطاعة؟.

لا يمكن للمصادر المعتمدة أن تقدم لنا جوابا صريحا على تساؤلاتنا،غير أن المعطيات المتوفرة تؤكد على أن الحضور المرابطي كان قويا ببلاد غمارة(58) مما أدى التقليل من حدة هذه الثورات وعددها.ويذكر ابن خلدون أن الفترة الموحدية قد مرت دون حدوث مشاكل في غمارة،ويرجع ذلك إلى اتباعهم الدعوة التومرتية قبل دخول المصامدة مراكش،كما يرجع ذلك إلى مشاركتهم في جيوش عبد المومن لمحاربة أهل سبتة"وبذلك رعيت لغمارة هذه السابقة سائر أيامهم "(59).إلا أننا لا نجد في النصوص الاخرى أثرا لذلك،بل إن المنطقة قد عرفت مجموعة من التمردات،وحاولت الخروج عن سلطة مراكش الموحدية،وواجهتها الدولة بدون رأفة ولا هوادة،كما هو الشأن مع ثورة مرزدغ وسبع بن منخفاد(60).

ساهمت المرحلة الممتدة من بداية الفتح الاسلامي بالمغرب الاقصى إلى قيام دولة المرابطين في تشكيل ذهنية المجتمع الغماري،الذي وصلته تأثيرات الخوارج(61)،وروجت فيه مفاهيم شيعية،نتيجة الصراع الاموي الفاطمي خلال القرن الرابع هـ/10م(62)،كما زادت فيه مكانة آل البيت محبة وتقديسا من خلال لجوء الادارسة إلى بلادهم،واتخاذ بعض أمراء هذه الأسرة لمراكز غمارية قاعدة لممارسة حكمهم(63).فهذه القضايا ستمكننا من فك رموز بعض الثورات والفتن التي شهدتها المنطقة.كما أن البحث عن الموروث الثقافي لهذه القبائل سيمكننا من الكشف عن جانب من ذهنية المجتمع الغماري خلال الفترة المدروسة.

غمارة وموروثها الثقافي:

تحاملت معظم المصادر على قبائل غمارة،فاتهمتها بالارتداد عن الإسلام(64)،ونعتتها بالخروج عن الحكام،ووصفت سكانها بالخيانة،وانتشار الفساد في مجتمعهم(65)،إضافة إلى تفشي ظاهرة السحر والكهانة بين صفوفهم(66).فقد جاء عند البكري أن حاميم تنبأ بجبل منسوب إليه في مجكسة ببلاد غمارة(68)،فتبعه بشر كثير أقروا بنبوته.كما أن عمة حاميم وأخته مارستا الكهانة والسحر(68).وظهر عندهم كذلك رجل من السحرة بجبال مجكسة يعرف بأبي كسية حيث كان أهل موضعه يسمعون منه ولا يعصونه،وإذا عصاه أحد أو خالفه "حول كساه الذي يلتف به،فتصيب ذلك الرجل عاهة لحينه أو جايحة وإن كانوا جماعة أصابهم مثل ذلك"(69).وأشار البكري أن لبني أبي كسية(70) وعقبه منزلة ومرتبة وحظوة على غيرهم استمرت إلى القرن السادس هـ /12م إذا

ما جاز الأخذ برواية مؤلف الاستبصار (71).وكان عندهم شخص يعرف بامرئ"بوحلاوت" في بني شداد ببلد غمارة يخبر بما قد يحدث للأشخاص من مرض،أو موت،أوربح أو خسران(72).وكان عندهم كذلك قوم يعرفون بالرقادة يتنبأون بما يمكن أن يحدث في ذلك العام من خصب،أو جذب،أو حرب أو غير ذلك (73).وروي أن شخصا بمرسى بادس كان قصير القامة مصفر اللون،له قدرة على الإخبار بقرب الماء أو بعده،فكانت له مكانة بين السكان فيكرمونه ويقدمونه(74).هذه الصورة التي كونها البكري عن بلاد غمارة ستكررها المصادر اللاحقة،مع إضافة عنصر جديد يرتبط بالموقف الذي اتخذته قبائل هذه المنطقة من السلطة الشرعية مرابطية و موحدية ، وفي هذا السياق نورد النص التالي:"...وكان يسكنها غمارة إلى أن طهر الله منهم الارض وأفنى جمعهم وخرب ديارهم لكثرة ذنوبهم وضعف إسلامهم وكثرة جرأتهم وإصرارهم على الزناء المباح والمواربة الدائمة وقتل النفس التي حرم الله بغير الحق وذلك من الله جزاء الظالمين"(75).

إن هذا الموروث الثقافي لعب دورا مهما في تكوين ذهنية متميزة في المجتمع الغماري تؤمن بالخوارق والمعجزات،وتنجذب إلى أصحاب الكرامات.ساعدها في ذلك أن الذاكرة الغمارية تؤمن بقداسة مجالها.فقد ساد الاعتقاد بأن بلاد غمارة شهدت أحداثا ورد ذكرها في القرآن(76)،والمرتبطة بقصة موسى مع العبد الصالح(77).فينعتون موضعا ب"ماء الحياة" إذ يعتقد سكان هذه المنطقة أن هناك نسي فتى موسى الحوت(78).

فلا يمكن للفتن و التمردات،التي ستعرفها المنطقة خلال القرن السادس هـ/12م أن تشكل خطرا على السلطتين المرابطية والموحدية،إلا إذا استغل زعماؤها هذا المتخيل،الذي أصبح من الثوابت في ذهنية المجتمع الغماري.

منطقة غمارة في مشروع جهاد السلطة المركزية بالأندلس خلال القرن السادس الهجري /12م:

إذا كانت نصوص المؤرخين قد أجمعت على أن بلاد غمارة قد عرفت بخروجها عن سلطة مراكش المرابطية والموحدية،فإن ما يميز هذه المصادر كونها سكتت عن هذا الموضوع،ولم تشر إلا إلى القليل من هذه الثورات والتمردات.فبخصوص المرحلة المرابطية لا تقدم لنا الحوليات التاريخية أي خبر بخصوص تمرد هذه المنطقة باستثناء ابن عذاري والبيدق(79).فهل يفسر هذا السكوت بعدم أهمية هذه الثورات؟أم يرجع إلى موقف السلطة الشرعية بالمغرب من هذه القبائل(80)؟.تمكننا المصادر الجغرافية،خاصة الادريسي وصاحب الاستبصار،من تقدير حجم هذه الثورات ومدى خطورتها على الدولة المرابطية.فمؤلف "نزهة المشتاق" يقول عن بناء مدينة "بني تاودا" على عهد المرابطين أنها كانت "شبه الثغر سدا مانعا من طغاة غمارة العابثين بتلك النواحي المغيرين على جوانبها "(81).وفي هذا السياق يذكر مؤلف مجهول عن بناء هذه المدينة من قبل المرابطين "ليملكوا منهاجبل غمارة لتتابع نفاقه عليهم،وكان يسكنها ولاة المغرب منهم بالعسكر"(82).وتم بناء حصن "أمرجو" من طرف الملثمين،على حدود غمارة،"بالحجارة والجير لا يقدر أحد على هدم شيء منه إلا بالمشقة"(83).فإحساس المرابطين بخطر غمارة كان دافعا للقيام بعملية تمدين المناطق الواقعة شمال فاس من خلال بناء المدن والحصون

ذات الوظيفة الاستراتيجية والعسكرية.ولا يمكن تفسير دوافع هذه الفتن والتمردات خلال الفترة المرابطية إلا بعد تحديد موقف غمارة من السلطة الشرعية منذ خضوعها للدولة على عهد يوسف بن تاشفين.فقد جاء في القرطاس أن هذا الأخيردة استطاع فتح جميع بلاد غمارة،وجبالها من الريف إلى طنجة(84)،وكان ذلك عام 460هـ/1067-1068م ولم تزودنا المصادر بمعلومات أخرى حول كيفية خضوع هذه المنطقة للمرابطين.ويبدو في تقديرنا أن الحكام اللمتونيين حاولوا استقطاب أشياخ هذه القبائل حتى يتسنى لهم إخضاع كل جهات المغرب،وكذا انجاز مشروع توسعهم في بلاد الاندلس.هذا ما يستفاد من كلام ابن أبي زرع عند إشارته إلى قدوم أشياخ غمارة وغيرهم من زناتة والمصامدة،وتقديمهم البيعة ليوسف بن تاشفين"فكسا جميعهم ووصلهم بالأموال،ثم خرج معهم ليطوف على جميع جهات المغرب قصد تفقد أحوال الرعية والنظر في سير ولاتهم وعمالهم"(85).فهذه السياسة التي اتخذها يوسف بن تاشفين مع قبائل غمارة لم تكن إلا خطة لضمان إخضاع منطقة سبتة وطنجة والتي كانت لا تزال تحت سيطرة "سكوت البرغوطي"(86).دليلنا فيما ذهبنا إليه،أن الامير المرابطي لم يرد الاقدام على سياسة الجهاد بالأندلس إلا بعد حصوله على طنجة وسبتة(87).ويتبين من خلال النصوص أن التأطير الإداري المرابطي لم يشمل بلاد غمارة.فمن خلال توزيع الولاة والعمال على مختلف جهات المغرب،لا تذكر المصادر بلاد غمارة ضمن هذا التقسيم(88).فهل يمكن تفسير ذلك برفض هذه القبائل الخضوع للسيطرة المرابطية؟أم أن هذه الجهة كانت خاضعة لتسيير صاحب فاس وأحوازها؟.

يظهر من خلال بعض الإشارات المصدرية أن المرابطين وجدوا صعوبة في ضمان تبعية هذه المنطقة لسلطتهم وهذا ما يفسر إجراء يوسف بن تاشفين لاخضاع هذه الجهة من جديد.فقد ذكر ابن أبي زرع أنه سنة 473هـ/1080-1081 م فتح الأمير المرابطي "مدينة كرسيف ومدينة مليلية وجميع بلاد الريف..."(89).إن رفض غمارة الخضوع لسلطة الدولة المرابطية هو ما فرض على حكام المغرب اتخاذ تدابير أمنية لإخضاع هذه المنطقة من خلال تأسيس بعض المدن على حدودها(90)،والتي أكدت المصادر على مدى أهمية دورها العسكري في إجهاض تحركات غمارة(91).ويمكن حصر أسباب ثورات هذه القبائل في رغبتها في الحفاظ على خيراتها الفلاحية وكذا الاستئثار بمداخيل مراكزها التجارية.فالمصادر رغم معارضتها لموقف هذه القبائل لم يفتها التنويه بالأهمية الاقتصادية لبلاد غمارة(92).غير أن هجرة قبائل الملثمين وحلفائهم بعد قيام دولة المرابطين قد أدت إلى حرمان غمارة من مناطقها الزراعية(93).ويرجع سبب ذلك إلى الأسلوب الذي اتخذته الدولة ضد من عارضها حيث حكم المرابطون عليهم بالكفر فوجب قتالهم واعتبر مالهم غنيمة وفيئا،فآلت بذلك أرض غمارة إلى ملكية الدولة الجديدة(94).كما أن رغبة المرابطين في الاستفادة من خيرات هذه المناطق الفلاحية من جهة،وكذا ضمان جباية الضرائب من هذه البلاد من جهة أخرى،كان دافعا لبناء مجموعة من المراكز على حدود غمارة حتى يتم ضمان وصول موارد هامة لخزينة الدولة.فإلى جانب الدور العسكري الذي قامت به هذه الحواضر،وخاصة "بني تاودا"،فإن أهميتها تكمن كذلك في اعتبارها مركزا لاستخلاص الضرائب(95).ورغم أن المصادر تشير إلى اعتماد المرابطين على عهد يوسف بن تاشفين على الضرائب الشرعية(96)،مما يفسر أنها لم تكن مرهقة للسكان،فإن تعدد هذه المراكز

المنشأة على حدود بلاد غمارة،ستجعل كل الفئات المتواجدة على هذه المحاور أن تؤديها.ويظهر أن هذه العملية لم تكن مألوفة لدى سكان غمارة الذين كانوا يعتبرون البسائط،والسهول المجاورة "لبني تاودا"مجالا حيويا لهم.كما أن الوجود العسكري المرابطي بالقرب من ديارهم قد حرمهم من الاستفادة من المحور التجاري الذي كان يربط سبتة بفاس(97).يضاف إلى ذلك أن الدور الجديد الذي أصبحت تلعبه بعض الموانئ المجاورة لغمارة كقصر مصمودة وسبتة،اللتان زادت أهميتهما على المستوى الاستراتيجي حيث كانت تنطلق منهما الجيوش المتجهة إلى الأندلس لتنفيد عمليات الجهاد(98)،قد جعل المنطقة مركزا لتجمع الجيوش المرابطية في كثير من الفترات،مما فرض على قبائل غمارة شبه حصار وحرمها من الاستفادة من الاهمية التجارية للمدينتين(99).إضافة إلى أن سكان غمارة فرض عليهم ضرورة مضاعفة استغلالهم لغابة جبالهم قصد توفير الأخشاب لصناعة السفن من أجل تلبية متطلبات الجهاد بالأندلس(100).إن هذه المستجدات،التي ظهرت مع بداية وجود سلطة مركزية تحكم المغرب وتعطي أهمية لمشروع الجهاد بشبه الجزيرة،قد جعلت قبائل غمارة محاصرة غربا،من خلال الحضور العسكري المرابطي في سبتة وقصر المجاز،ومن الجنوب من خلال تواجد الجهاز العسكري المرابطي"ببني تاودا".ولجأت لذلك قبائل غمارة إلى أعالي الجبال فقامت بتشييد مجموعة من الحصون اتخذتها منطلقا للهجوم على المناطق الفلاحية الغنية بإنتاجها الزراعي،أو السطو على مراكز تجارية كلما سنحت لها الفرصة للقيام بذلك سواء على عهد المرابطين،أو على عهد الموحدين،كما سيتم تفصيله من خلال النماذج التي قدمتها لنا المصادر الوسيطية.

انتفاضات بلاد غمارة خلال الفترة المرابطية:

جاءت ردود فعل الغماريين في فترات مبكرة من قيام الدولة المرابطية،وذلك منذ عهد يوسف بن تاشفين حيث يخبرنا ابن عذاري عن قيام شخص يعرف ب" ابن الزنر"(101).غير أن صاحب البيان المغرب لا يذكر لنا أسباب خروج هذا الثائر.على أن سياق النص يوحي لنا بأن قيامه على المرابطين كان من اجل تحقيق أهداف سياسية واضحة.ذلك أنه استند في خروجه على ادعاء أنه ابن معنصر الزناتي(102)،الذي كان " صاحب فاس" قبل قيام دولة المرابطين.فاللجوء إلى هذا الادعاء يعطي مشروعية "لابن الزنر"قصد الخروج عن السلطة الشرعية(103).

وتفيدنا إشارات المؤرخين أن ابن معنصر الزناتي قد سبق له أن واجه الجيوش المرابطية التي كانت تريد السيطرة على فاس،حيث ظل "..يحارب لمثونة إلى أن اشتد عليه الامر وعظمت الحروب في بعض الوقائع ففقد،فلا يدري ما فعل الله به وذلك في سنة ستين وأربعمائة"(104).فهل هذا الزعيم القائم بغمارة،حاول استغلال هذه الرواية في اختفاء "ابن معنصر" قصد جر الأتباع من هذه القبائل؟.من الصعب الاجابة عن هذا السؤال،نظرا لأن رواية البيان لا تفيدنا بدقة حول العناصر التي شكلت دعامة لثورته.فابن عذاري ذكر خروجه ببلاد غمارة دون ذكر العصبية المساندة له بوضوح(105).

فهل يمكن الحديث عن القيام بمحاولة زناتية للوصول إلى السلطة،وأنها لجأت إلى بلاد غمارة مستغلة حصانة مواقعها من جهة،وتذمر قبائلها،من جراء ضيق مجالها بفعل الاستقرار القبلي اللمثوني على حساب أراضيها الفلاحية من جهة أخرى؟.فما يمكن قوله

اعتمادا على رواية البيان،أن تأييد قبائل غمارة لهذا الثائر كان منذ بداية خروجه على سلطة المرابطين.غير أن حدوث المواجهات العسكرية بيت الثائر وجماعته من جهة،والجيش المرابطي من جهة أخرى،قد جعل حدا للتأييد الغماري لهذه الثورة خصوصا بعدما تم قتل عدد مهم من أصحابه من قبل الجيش المرابطي(106).وما يفسر خطورة هذه الثورة هو استعمال كل الوسائل لاجهاضها،واستئصال شأفتها.فقد استعملت القوة العسكرية،كما لجأت الدولة إلى إغداق الأموال على قبائل غمارة للفتك بالثائر(107).كما تجسدت هذه الخطورة من خلال اهتمام المسؤول الاول داخل جهاز الدولة بالقضاء عليها وتصفية زعيمها(108).إن هذا الاهتمام من قبل القيادة المرابطية،هو ما يجعلنا نطرح التساؤل التالي:هل كانت الدولة المرابطية تحس باستمرارية خطر العنصر الزناتي؟أم أن اندلاع الثورة في بلاد غمارة كان هو الخطر الذي يهدد كيان الدولة؟.فكلا الاحتمالين وارد،ذلك أن ابن عذاري يخبرنا أن ثائرا آخر قام بعد ذلك على المرابطين ويعرف ب "ماخوخ الزناتي"بناحية تلمسان حيث "اختط بلدا لنفسه فخرج إليه يوسف بن تاشفين،وفر أمامه،وخرج من بلاده"(109).وهذا يدل على أن المسألة الزناتية لم يتم حسمها بعد ومن ذلك تتجلى خطورة ثائر بلاد غمارة.

أما بخصوص التساؤل الثاني،فلا نستبعد تخوف السلطة المرابطية من وجود الثورة في بلاد غمارة،خصوصا إذا علمنا أن قيامها صادف اهتمام الامير المرابطي بالقيام بمشاريع معمارية في مدينة سبتة،مثل بنيان جامعها الذي زاد فيه حتى أشرف على البحر على حد قول صاحب البيان(110) كما سبق تأسيس هذا الجامع بناء إحدى أسوار ميناء هذه المدينة(111).فهذه المشاريع وإن لم تستغل اليد العاملة الغمارية،فإنها تكون على الاقل قد استغلت أخشاب غاباتها مما جعل المنطقة تشهد ضغطا كبيرا للجيوش المترددة على جبالها وهذا من شأنه خلق ردود فعل غمارية تجاه السلطة المرابطية ثم التعبير عنها من خلال مساندة هذا الثائر.لقد فتح هذا التمرد عيون السلطة المرابطية على أهمية وخطورة بلاد غمارة،التي تعتبر من الناحية الطبوغرافية مجالا استراتيجيا مساعدا على الخروج عن سلطة الدولة.وهذا ما عبر عنه ابن خلدون في مرحلة لا حقة بقوله " ولهم بوعورة جبالهم عز ومنعة وجوار لمن لحق بهم من اعياض الملك،ومستأمني الخوارج إلى هذا العهد"(112).ولذلك أولى المرابطون أهمية للتأطير العسكري بهذه المنطقة،سواء في سبتة أو "بني تاودا"،هذه الاخيرة التي كانت معقلا للجيوش لدرجة أن صاحبها "ينالو" نعته البيدق بسلطان الغرب(113)،وهذا لا يفسر إلا بأهمية جيوشه،التي لعبت دورا كبيرا في إحباط المحاولات التمردية لقبائل غمارة على عهد الامير علي بن يوسف كما سنوضحه .

يحدثنا صاحب أخبار المهدي أنه في الوقت الذي كان فيه "محمد بن تومرت" بفاس قامت في بلاد غمارة ثورة تزعمها بعض أشياخ هذه القبائل(114).ولم تشر الرواية إلى سبب قيامهم سوى أن "ينالو" كان يومئذ "سلطان الغرب،وكان يسكن بني تاودا فخرج في ذلك الوقت ينالو لغمارة،وكان فيهم أقوام مخالفون عليه،فخرج إليهم ينالو وقتل منهم ثلاثة أشياخ:يكساس،وحيان،وسحنون،ثم قتل لجاية وساق رؤوسهم وعلقها في باب السلسلة وأتا بغنائمهم "(115).ولا يمكن فهم أسباب هذه الثورة إلا في سياق الاحداث التي كانت تعرفها بلاد المغرب والاندلس خلال تلك الفترة.ذلك أن اندلاعها صادف عودة محمد بن تومرت من رحلته المشرقية وقيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(116).لقد وصل صدى أحداث

دعوة المهدي بن تومرت،وما جرى من وقائع مع اهالي المدن والقرى التي زارها أو مر بها،إلى بلاد غمارة.فرواية البيدق،الذي كان شاهد عيان على هذه الوقائع،لم تتحدث لنا عن اتخاذ موقف صارم ضد الفقيه السوسي على الاقل قبل مغادرته فاس،أي في وقت نشوب ثورة غمارة المذكورة أعلاه(117).ويظهر ان قبائل غمارة قد استغلت ظروف تواجد المهدي بن تومرت وأصحابه بفاس،وما وقع له مع تجار الالات الموسيقية حيث خلق جوا من الفوضى داخل هذه المدينة التي كانت تتميز بدورها التجاري الهام(118)،فقامت على المرابطين.كما ساهمت الحملات العسكرية المتكررة إلى الاندلس في قيام هذه الثورة التي اندلعت بعد الجواز الثالث للامير علي بن يوسف في فترة لا تتعدى إحدى عشرة سنة من500هـ إلى 511هـ/1106-1118م (119).ولا غرو فإن هذه الحملات العسكرية كلفت قبائل غمارة كثيرا،كما أدت إلى الزيادة في قيمة الضرائب وهذا ما تنبه إليه أحد الدارسين(120).ولعل هذا ما يفسر تزعم أشياخ القبائل لهذه الثورة التي قامت كرد فعل ضد محاولة تقليص النفوذ الاقتصادي لهؤلاء الشيوخ،خصوصا إذا علمنا أن هؤلاء يتمتعون بنفوذ سياسي واقتصادي داخل قبائلهم(121).وتتمثل خطورة هذه الثورة في استعمال العنف في مواجهتها من خلال قتل ثلاثة شيوخ وتعليق رؤوسهم في إحدى أبوب فاس(122).ولا يمكن تفسير هذا الاجراء إلا بمدى خطورة هذه الثورة التي اشتعلت داخل أوساط قبلية متعددة ببلاد غمارة،دليلنا في ذلك هو مشاركة ثلاثة أشياخ في قيامها.فهل يمكن الحديث عن تصدع داخل بلاد غمارة؟ أم انه لم يتم الاتفاق أو الاجماع حول قيادة موحدة للقيام بالثورة؟.

لقد أثارتنا مسالة أساسية ونحن نعالج وقائع هذا التمرد ويتعلق الامر بقرار الاعدام الذي لجأ إليه القائد العسكري المرابطي"ينالو" دون استشارة الاميرعلي بن يوسف.وهذا بخلاف ما وقع في الثورة السابقة على عهد يوسف بن تاشفين وما سيحدث مع ثائر ريف سبتة عام 520هـ/1126م.فعلي بن يوسف تمت استشارته في قضايا أقل من مسألة القتل (123)،فهل كان "ينالو" يتمتع بسلطة واسعة تمكنه من تطبيق قرار الاعدام؟أم أن الأمر لا يتعلق إلا بحالة استثناء نظرا لخطورة الثورة التي استدعت التعجيل بالقتل قبل انتشارها؟

رغم أن المصادر لا تقدم لنا معلومات حول حدود سلطة هذا القائد العسكري المرابطي،إلا أن الصورة التي كونها حوله البيدق كانت جد معبرة عندما نعته " بسلطان الغرب"،مما يدل على أن "ينالو" كانت له سلطة واسعة،كما ان إجراء القتل وتعليق الرؤوس في إحدى أبواب فاس يجسد مدى حضور الدولة وهيبتها والتي حاول أن يطعن فيها محمد بن تومرت من خلال نشاطه داخل حواضر المغرب الاقصى وفاس خاصة.

وإذا كانت الانتفاضة الغمارية الأولى،قد ارتكزت على زعامة قبليةحاولت أن تجذب إليها الناس من خلال إظهار قدرتها على الاختفاء والظهور في الوقت المناسب(124)،فإن الثورة الثانية قد سجلت تحولا آخر على مستوى قيادتها التي تزعمها شيوخ من غمارة ولم تنفرد بتدبيرها زعامة واحدة.فكانت بذلك مؤشرا على قيام فتن أخرى بالمنطقة كما هو الشأن بخصوص ثورة عام 520 هـ/1126م بحصن كركال كما سيأتي تفصيلها.

يذكر ابن عذاري أحداث هذه الثورة اعتمادا على رواية ابن حمادة الذي ذكر أن رجلا قام في ريف سبتة،في كركال،ادعى أنه الخضر(125).فقد جاء قيام هذا الرجل في منطقة غمارة في ظروف صعبة سياسيا على المرابطين،فإضافة إلى استفحال خطر الحركة

التومرتية(126).هناك المشاكل الاندلسية خاصة بعد اندلاع ثورة قرطبة عام 514 هـ/-1121-1120م(127).هذه الأخيرة اضطرت الامير علي بن يوسف العبور إلى العدوة للحد من هيجان أهل قرطبة(128).إن صدى هذه الاحداث الاندلسية خاصة،قد وصل إلى بلاد غمارة باعتبارها معبرا مهما للجيوش المرابطية إلى شبه الجزيرة.فكانت قبائل غمارة على بينة بخصوص انشغال الجيوش أو عدم انشغالها بمواجهة تمرد أو فتنة.ويبقى لاختيار ثائر كركال القيام على المرابطين في هذا الظرف بالذات له ما يبرره.فخلال هذه الفترة غيرت الدولة من سياستها الضريبية حيث زادت من قيمتها بعد فشل تحويل أملاك الخاصة إلى الدولة.فكانت حاجة هذه الأخيرة إلى موارد لخزينتها من أجل مواجهة التحركات النصرانية(129).كما انه قبيل قيام الثورة وقع تواطؤ بين النصارى المعاهدين في غرناطة وبين ابن رذمير النصراني من اجل تسهيل مأمورية دخوله المدينة،غير أن انكشاف امرهم جعل الامير "علي بن يوسف" أن يتخذ فيهم قرار الجلاء عن الاندلس عملا بمشورة الفقيه الاندلسي ابن رشد (130).هذه الاحداث كان لها وقعها في منطقة غمارة،وبالخصوص المناطق المجاورة لسبتة،والتي كانت على علم بكل هذه التطورات،فتحينت الفرصة للخروج عن السلطة المرابطية،فارتبط خروج غمارة بتأييد لزعيم ادعى أنه الخضر،فهذا الادعاء له دلالة مهمة على مستوى استمرارية حركته،وكان لذلك أثر كبير على حصوله على الاتباع.إن ادعاء هذا الشخص بكونه الخضر،قد أحيى في ذاكرة الغماريين قصة النبي موسى مع العبد الصالح الواردة في القرآن(131).ومما سهل على هذا الشخص مهمته كون هذه القبائل كانت تعتقد في قداسة منطقتها والتي كانت في الماضي محطة لقاء الرجلين(132).إن هذا الادعاء قد مكن على ما يبدو هذا القائم من الأدلة السلطوية التي تجعل من الناس يقدمونه عليهم ويحترمونه،خصوصا وأن إشارات المصادر تؤكد على انقياد قبائل غمارة لأصحاب الخوارق وكذا لممتهني السحر والكهانة(133).إن هذا القائم أراد أخذ ثقة الناس ليقوم بما شاء ولا يسأل عن أعماله(134)،ولو وصل الامر إلى حد القتل(135).ورغم أن رواية ابن حمادة الواردة في البيان لا تقدم لنا شاهدا على ما قلناه،إلا أن ذلك لا ينفي خطورة قيام هذا الرجل الذي تم القبض عليه وإشخاصه إلى سبتة قبل أن يتم توجيهه إلى مراكش حيث قتل وصلب(136).فالقيام بتنفيذ حكم الاعدام لم يتم على ما يبدو إلا بعد استفحال هذه الحركة ووجود أتباع لهذا القائم.وقد يكون هذا الاجراء كذلك بقرار من الحضرة المرابطية من اجل استعمال العنف ضد أي شخص أظهر زيغا عن الخط الرسمي للدولة خصوصا بعد استفحال خطر حركة المهدي بن تومرت.

إن قيام هذه الثورة قد كشف لنا جانبا آخر من طبيعة هذا المجتمع الغماري خلال الفترة المرابطية.فرغم أن احداثها تؤكد لنا صورة ذلك المجتمع الذي تسود فيه ظاهرة التنبؤ والاحداث الغريبة،إلا أنها وفي نفس الوقت أكدت لنا أن هذا المجتمع متمكن من مضامين النص القرآني،كما أن ادعاء هذا الشخص كونه الخضر لا يمكن أن يحصل على ثقة الناس فيه إلا بعد أن يثبت عندهم صلاحه وزهده.وهذا ما يجعل القول بأن المجتمع الغماري لم يكن فقط ذلك المجتمع المنحل الأخلاق،والمتهم بانتشار الفساد والانحلال،والابتعاد عن الاسلام،بل إن هذا المجال كان كذلك محطة استقرار الاولياء والصلحاء،فقد روى لنا "البادسي" مجموعة من سير الزهاد الذين استقروا بهذه المنطقة خلال القرن

6هـ/12م(137).لم تشر المصادر بعد هذه الثورة إلى أي تحرك غماري إلى حدود 537هـ/1142-1143م وما بعدها(138) عندما دخلوا دعوة الموحدين إبان حملة عبد المومن الكبرى لفتح المغرب حيث اتبعوا أمره وشاركوا في جيشه المحارب لسبتة،فذكر ابن خلدون أنه بذلك كانت لغمارة السابقة التي رعيت لهم سائر أيام الدولة(139).

وهذا ما يجعلنا نطرح التساؤل التالي:ألم تشهد غمارة أي انتفاضة منذ 520هـ/1126م.

إن كل الظروف كانت مواتية من اجل القيام بالفتن والتمردات،خصوصا بعد انشغال المرابطين بحرب الموحدين وكذا المشاكل التي عرفتها الأندلس سواء من خلال ظهور بعض الفتن بمدن مثل اشبيلية وقرطبة،أو من خلال الضغط النصراني الذي أخذ يشن غارات متكررة على الحدود الإسلامية(140).كانت الأوضاع مشجعة للقيام على المرابطين بهذه المنطقة،غير أن سكوت المصادر لا يفسر إلا بالضغط الذي مارسته الدعوة الموحدية التي ألغت جميع التيارات الاخرى ذات البعد المذهبي،أو المرتبطة بأشخاص "كارزماتيين".ذلك أن العمل على إبراز شخصية"محمد بن تومرت"،والتاكيد على عدم تكرار نموذجها(141)،كان دافعا لعدم التأريخ لفتن وثورات غمارة(142) التي ارتبط قيامها بأشخاص متميزين على مستوى سلوكاتهم أو دعوتهم.فابن القطان الذي أرخ في الجزء المنشور من كتابه"نظم الجمان" للمرحلة الممتدة من 500-533هـ/1106-1139م،لم يشر إلى ثورة غمارة ضمن أحداث 520هـ/1126-1127م.في حين أنه ركز على الدعوة التومرتية،وما يدور في فلكها،وكأن التاريخ في منظوره هو تاريخ الموحدين وزعيمهم المذهبي " محمد بن تومرت"(143).كما أن الكتابات المرينية لم تشر إلى هذه الثورة أو غيرها في الفترة ما قبل الموحدية،لكونها لم تجد أي أي إشارة عند المؤرخين السابقين(144) ويستثنى من ذلك بيان ابن عذاري.

ثورات غمارة خلال الفترة الموحدية:

بخصوص فترة قوة الدولة الموحدية (145)،فتشكل ثورة غمارة على عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف أخطر ثورات هذه المنطقة(146).بل إن المصادر المعاصرة أو القريبة من الفترة قد أعطت أهمية كبيرة لسرد وقائعها(147).وأمام توفر المادة المصدرية نسبيا بالمقارنة مع باقي تمردات غمارة،هناك تناقض في عرض وقائعها.فالبعض يقتصر على ذكر زعيم واحد كقائد لهذه الثورة وهو المعروف باسم"ابن منخفاد"،ويتم القفز عن ذكر زعيم آخر يعرف ب"مرزدغ الغماري"(148).فالكتابات الموحدية أغفلت الحديث عن مرزدغ" باستثناء البيدق،الذي أشار إليه في معرض حديثه عن الثائرين والخارجين على الموحدين(149)،ثم المراكشي الذي ربط ثورته بثورة "سبع بن منخفاد"(150).أما الكتابات المرينية،فينفرد ابن أبي زرع بتقديم بعض المعلومات عن ثائر غمارة الذي قال عنه بأنه غماري صنهاجي من صنهاجة مفتاح(151).بينما ذكرت الكتابات المشرقية وقائع ثورة غمارة هاته لكنها أعطت زعامتها لشخص آخر هو "مفتاح بن عمر"(152).ويلاحظ أن هذه الرواية قد أخلطت وقائع هذه الثورة،بقيادة مرزدغ،مع ثورة خلفه سبع بن منخفاد(153).فبماذا يمكن تفسير سكوت المصادر الموحدية تقريبا عن ذكر وقائع هذه الثورة؟أو تقديم معلومات غير كافية عن هذا الثائر؟.لا تسعفنا الإشارات القليلة في المصادر للحسم في الإجابة عن هذا التساؤل،إلا أن الأمر يرجع في نظرنا إلى خطورة هذه الثورة

التي شكلت قبائل غمارة دعامة أساسية لها(154).فتغييب هذه الثورة من بعض المصنفات التاريخية،أو الحديث عن زعيمها بشكل مقتضب في مصادر أخرى لا يمكن تفسيره إلا بحدة هذه الثورة.الشيء الذي جعل أحد مؤرخي الدولة المؤمنية والمكلفين بالدعاية لها،من خلال مشروع كتابته التاريخية،أن يقوم بتقزيم هذا الثائر من خلال صيغة التصغير حيث سماه"مزيدغ"(155).كما تتجلى أهمية هذه الثورة في كون صاحبها قام بعملية سك العملة باسمه وكتب فيها"مرزدغ الغريب نصر الله قريب"(156).إن ضرب السكة يعتبر خطوة مهمة نحو استقلال بلاد غمارة عن السلطة الشرعية الموحدية،كما أنها تمثل مظهرا من مظاهر انفراد "مرزدغ" بالسلطة.فهل كان يفكر في مشروع قيام دولة؟

لا تكشف المصادر عن دوافع هذه الثورة،غير أن استقراء الظروف العامة خلال فترة اندلاعها تمكننا من الوقوف على بعض الأسباب.

لقد ساهمت الأوضاع العامة بالمغرب في قيام هذه الفتنة حيث جاءت في مرحلة انتقالية من وفاة "عبد المومن" إلى مبايعة "الخليفة يوسف بن عبد المومن"،فكأن غمارة بزعامة "مرزدغ" استغلت ظروف وفاة الخليفة عبد المومن فقامت بالثورة(157).ولعل ذلك ما عبرت عنه الرواية المشرقية،خاصة صاحب الكامل،عندما ذكر أنه إثر تحقق الناس من موت عبد المومن ثارت قبائل غمارة(158).ومما شجعهم على تنفيذ خطتهم هو إحساسهم بانشغال الجيوش بحرب ابن مردنيش،أو الأعداد لها بالأندلس(159).كما أن تيقنهم بفقدان بعض المراكز لوظائفها العسكرية كان عاملا مهما للقيام بالثورة.فتفيدنا إشارات الجغرافيين أن "بني تاودا" تم تخريبها إثر الصراع والحروب العسكرية التي دارت بين المرابطين والموحدين(160)،غير أن خصوبة أراضيها وكذا أهمية المناطق المجاورة لها،هي ما أدت إلى تعميرها من جديد،إلا أن العدد كان غير كاف لجعلها تعرف ضغطا بشريا كبيرا خلال هذه الفترة(161).إن غياب التاطير العسكري جنوب بلاد غمارة،كان من العوامل التي ساعدت هذه القبائل على القيام بانتفاضتها،فكيف انتهت هذه الثورة؟.

لقد قامت في جهات مختلفة وساهمت فيها تجمعات قبلية متباينة من غمارة، صنهاجة، وأوربة(162).وكانت هذه المجموعات القبلية تتحرك في مجال جغرافي واسع،كما أن هذا التعدد يجعل من الصعب القول بأن هناك قيادة ثورية موحدة،إلا أن المصادر لا تشير في مرحلة أولى إلا إلى وجود زعيم واحد هو مرزدغ الغماري الذي نظم وأصحابه حملات على مدينة تاودة حيث أثخن فيها قتلا وسبيا(163).ويفسر الهجوم على هذه المنطقة دور العامل الاقتصادي في خروج هذه القبائل عن السلطة الموحدية،خاصة إذا علمنا مدى أهمية "بني تاودا" والمناطق المجاورة لها على المستوى الفلاحي ودورها في مراقبة محاور التجارة الآتية من مدينة فاس وإليها(164)،وذلك قصد الاستفادة من مداخيلها خصوصا وان قبائل أوربة المجاورة لهذه المدينة،قد شكلت جانبا من العصبية المؤيدة لهذا الثائر(165).لقد تطلب الموقف من المسؤوليين الموحدين ضرورة الإسراع بإجهاض محاولة الغماريين هذه وذلك من خلال اللجوء إلى عملية الاغتيال حيث بعث الخليفة يوسف جيشا من الموحدين،فقتل "مرزدغ" وحمل رأسه إلى مراكش(166).هكذا يتضح سبب قلة الحديث عن الثورة التي قادها "مرزدغ" في الكتابات الموحدية.فالمسألة لم تنحصر في تمرده على الجهاز الحاكم فقط،بل إن النزعة الاستقلالية التي طبعت هذه الثورة،والتي تم التعبير عنها

بسك العملة،هي ما جعلت المسؤولين في الدولة يضعون مسألة مواجهتها ضمن أولويات برامجهم.ذلك أن سك العملة يعتبر خطوة خطيرة أقدم عليها الثائر ليعطي لحركته بعدا رمزيا،كما اتخذ منها وسيلة أساسية للدعاية لنفسه.وهذا ما تحمله الكتابة المنقوشة فيها "مرزدغ الغريب نصر الله قريب"(167).فالقدرة على سك العملة تدل على ان الخليفة الموحدي لم يعد هو المحتكر لها بمفرده وهذا يعني إزالة ذلك الامتياز الذي يمكن أن يميز الحاكم والملك.كما أن سك العملة دليل على توفره على رصيد من المعادن الثمينة التي قد يستغلها الثائر في جر الأتباع (168).إن عملية سك العملة من قبل مرزدغ في هذا الظرف بالذات تعتبر مسألة مدروسة.فقد كان على علم بأن الخليفة أبا يعقوب يوسف لم يستطع إعلان نفسه أميرا للمؤمنين،وهذا ما تم تأكيده من خلال العملة التي تم سكها في مدينة بجاية حيث اكتفى الخليفة فقط بذكر الأمير الأجل(169).لذلك عزم الثائر على سك عملته التي لا تخلو من دلالات مذهبية.فهو يعترف من خلالها على أن النصر من الله قريب،مما يجعل من ثورته تستند على أسس مرجعية إسلامية تؤكد على أن ما يقوم به الثائر هو من تدبير الهي.ألا يمكن اعتبار ذلك محاولة للرد على مذهب الدولة الذي يؤكد باستمرار على أن الهدف عند الموحدين هو القيام "بالأمر العزيز وخدمته"؟(170) أليس ذلك تعبير ضمني عن طرح فكرة العصمة التي قال بها الزعيم المذهبي للدولة الموحدية؟.لا تساعدنا المصادر في الإجابة عن التساؤلين،غير أن ما يتضح من الإشارات القليلة،أن الثورة كانت تشكل خطورة على نظام الدولة الموحدية بدليل العدد الكبير من الأتباع الذين التحقوا بصفوف الثائر(171).ثم تجهيز جيش من الموحدين عمل على قتل القائم وحمل رأسه إلى مراكش(172).فهل هذا الإجراء الزجري أدى إلى إخماد الثورة في بلاد غمارة وناحيتها؟.يذكر الإخباريون بأن الثورة اشتعلت من جديد في بلاد غمارة،فهل يمكن الحديث عن استمرارية للإنتفاضة السابقة؟ أم أن هذه الثورة لا علاقة لها بالأولى؟ تتطلب الإجابة عن ذلك تحليلا شاملا لظروف قيام الثورة التي تزعمها سبع بن منخفاد(173) وتتبع مختلف أطوارها انطلاقا من مختلف المصادر الوسيطية التي تناولت بالحديث هذه الفتنة.

إن الظروف كانت مساعدة لاستمرارية خروج بلاد غمارة على الموحدين(174)،مما جعل الثورة تعرف مرحلة أخرى من اطوارها وذلك بانتقال الزعامة لشخص يعرف باسم"سبع بن منخفاد"(175).وإذا كانت المصادر الموحدية والمرينية قد تحدثت عن هذه الثورة(176)،فإن عمادنا في هذه الدراسة سيكون هو كتاب "المن بالإمامة" لابن صاحب الصلاة الذي احتفظ لنا برسالة في غاية الأهمية حول هذه الاحداث.فيقول عنها "أنها كافية بتاريخ فتنة غمارة والفتح فيها"(177).ويقول عنها الدكتور عبد الهادي التازي أنها "من أطول الرسائل الموحدية وأدقها وصفا،وهي سجل لتاريخ حوادث غمارة،تقع في خمس عشرة صفحة"(178).وإذا كانت ظروف قيام هذه الثورة هي نفسها بالنسبة لثورة مرزدغ،فإن الاستراتيجية التي نهجتها ثورة سبع بن منخفاد تختلف نسبيا عن الأولى.ذلك أن قبائل غمارة أخذت تهاجم خلال هذه المرحلة،بعض المحطات التجارية القريبة من المنطقة،خاصة قصر كتامة حيث أدخلت الرعب في صفوف سكانه(179).وهذا من شأنه عرقلة المشاريع التجارية،وتهديد منطقة لها وزنها في حركة العبور إلى الأندلس(180).إن إغراء السكان بالسيطرة على منافذ التجارة الصحراوية المارة عبر المراكز القريبة من غمارة،وربطها

بالموانئ المطلة على البحر الرومي (البحر المتوسط)(181).وكانت على ما يبدو من بين دوافع جر الأتباع،خصوصا وأن مجال تواجد قبائل غمارة قد تقلص بفعل تحركات قبلية من جنوب المغرب منذ وصول المرابطين إلى السلطة(182).كما أن رغبة القبائل في الاستفادة من مناطق فلاحية من خلال الحصول على الماشية والدواب،قد ساعدت دون شك على جر الأتباع واستقطاب الأنصار المؤيدين لسبع بن منخفاد(183).ومن اجل الوقوف على خطورة هذه الثورة سنقوم بتحليل وقائعها انطلاقا من الرسالة المشار إليها أعلاه.

تظهر خطورة هذه الثورة ومدى أهمية القضاء عليها بالنسبة للسلطة المركزية الموحدية من خلال ظروف وتاريخ كتابة الرسالة التي وجهها الخليفة أبو يعقوب يوسف إلى غرناطة.فالخليفة لم ينتظر الوصول إلى العاصمة لكي يخبر بوقائع الفتنة بل إنه فضل إرسالها من ساحة وقوعها بجبل الكواكب(184).وهذا يعكس لنا بوضوح،أن مجال تحرك الثورة له أهمية استراتيجية،بالنسبة للدولة الموحدين،لكونه يرتبط بمشروع الجهاد بالأندلس،فلتحقيق هذا المشروع كان لا بد من القضاء على القبائل "المختصة بملكة جبل الكواكب،المشهور بالمنعة،ووعورة مسالكه"(185)،خصوصا بعدما استحكم فيهم الفساد،وتمكن منهم الارتداد على حد قول الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المومن في رسالته إلى أهل غرناطة(186).إن المسألة لا تتعلق بمواجهة انتفاضة عادية،فهي تمرد قبلي شمل قبائل غمارة وصنهاجة،وكانت الزعامة للأولى في شخص سبع بن منخفاد.وإذا كانت المصادر لا تقدم لنا معلومات عن هذا التمرد،إلا أنها تعترف له بالزعامة بالقيادة كما يفهم من اشاراتها إلى أنه ينتمي إلى أسرة لها وزنها داخل المجتمع الغماري.ويتجلى ذلك من خلال الوفد الذي ناب عن غمارة أثناء المقابلة السلمية مع الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المومن في جبال غمارة حيث ثم الاعلان من خلالها على وقف المعارك بين الطرفين والتعهد بأن يأتوا بجميع القبائل إلى "المحلات الموحدية في عيد الفطر"(187).فقد كان من بين هذه الجماعة التي تفاوضت مع الموحدين أخ ابن منخفاد ويعرف بعمران بن منخفاد(188).فالاعتراف الرسمي بذكر هذه الاسرة دليل على مكانتها داخل المجتمع الغماري.فالثورة حركتها أهداف قبلية ترتبط بالدفاع عن المصالح الحيوية للمجال الغماري،معتمدة على مناعة طبوغرافيتها من جهة،وتأطير زعيمها سبع بن منخفاد من جهة أخرى،فهل يمكن تحديد تاريخ قيام هذه الثورة؟.

إذا انطلقنا من الرسالة الرسمية يظهر بأن هذه الثورة بدأت قبل 562هـ/1167م،نظرا لأن التفكير في مواجهتها لم يتم إلا بعد استفحال خطرها:"فشا ضررهم،وساء أثرهم،وتعدى أذاهم،وسرت عدواهم"(189).وهذا ما يجعلنا نستنتج بأن فتنة غمارة،التي انطلقت منذ سنة 559هـ/1163-1164م،قد استمرت رغم مقتل مرزدغ الغماري،ولعل ذلك ما يفسر الاستعداد القوي للموحدين في مواجهة هذه الثورة"ولما صدقت لها الغزائم وشدت إليها الحيازيم،ووقع على قصدها التعويل والتصميم"(190).وهكذا فانتفاضة سبع بن منخفاد تعتبر مرحلة أخرى من مراحل ثورة غمارة على عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف الموحدي،ولا يمكن التأريخ لبدايتها فقط من سنة 562هـ/1167م.وإذا كان الامر كذلك،فما هي الأطراف القبلية التي شكلت دعامة لهذه الثورة في طورها الثاني بهذا المجال الواسع بشمال المغرب الاقصى؟.

إن الرسالة الرسمية تشير إلى مساهمة قبائل غمارة وصنهاجة،إلا أن ما يلفت النظر في هذا الصدد هو أن الجهاز الاداري الموحدي كان يميز جيدا بين التواجد القبلي الصنهاجي والتواجد القبلي الغماري(191).هذا على الرغم من كون المصادر التاريخية والجغرافية الوسيطية كانت تقدم لنا مجال تحركهم بشكل غامض.وكشفت رسالة الخليفة أبي يعقوب يوسف على مدى خطورة قبائل غمارة،مقارنة مع صنهاجة،التي كانت قادرة على نشر ونقل الثورة على نطاق أوسع(192).لذلك أولت الدولة الموحدية أهمية كبرى للقضاء على ثورة سبع بن منخفاد(193).وبعد انطلاق الحملة الموحدية بجبال غمارة توقفت نسبيا،وقد حاول الخليفة الموحدي تبرير ذلك بممارسة الشعائر الدينية التي يتطلبها شهر رمضان(194).غير أن واقع المنطقة على ما يبدو هو الذي فرض ذلك التوقف بحكم صعوبة المسالك،كما كان في نفس الوقت فرصة للموحدين من اجل استقطاب القبائل التي أظهرت التوبة "وتبدي الفيئة والإياب وتلوذ بأكناف العفو،وتستمسك بأسباب الصفح،وتمد يد الضراعة إلى الإستقالة"(195).فالدخول في دعوة الموحدين أثناء ثورة غمارة لا يفسر إلا بالخوف الذي كانت تشعر به تلك القبائل،فكان تأييدها لسبع بن منخفاد في بداية الأمر ثقة في قوته وخوفا منه،ثم دخلت تحت سلطة الموحدين بعدما تيقنت من عزم الجيش الرسمي على استئصال شأفة القبائل الثائرة خصوصا بعد الانتصارات الموحدية الأولى التي حصلوا من خلالها على الغنائم والأموال(196).غير أن ذلك لا يدل على على أن هذه القبائل لم يكن لها أي هدف من وراء قيامها على الموحدين.فإمكانية الاستفادة من العمليات التي ينظمها سبع بن منخفاد ضد المراكز التجارية،والمناطق الفلاحية المجاورة لبلاد غمارة،كما هو الشان بالنسبة لقصر كتامة(197)،كانت من بين دوافع خروج هذه القبائل على الموحدين.ولنفس الدوافع ستعمل هذه القبائل على الخروج عن زعيمها سبع بن منخفاد والخضوع للموحدين الذين يقابلونهم "بعوائد هذا الأمر العزيز من إقالة العثرة،وتجاوز الزلة والسقطة،وتقريب الأسباب المؤدية إلى الاستيلاف،الآخذة بالأيدي بالتلافي عن مقاحم التلاف"(198).ولعل نفس الأسباب هي التي جعلت جماعة من الغماريين يقومون بتسليم زعيم الثورة حيث قتل وصلب(199).لقد عبرت رسالة الخليفة أبي يعقوب يوسف عن ذلك بوضوح فجاء فيها:"...فلعناية الله بهذا الامر العزيز وفق الله تلك البطانة،وأراهم رشدهم بالتقرب إلى هذا الامر العزيز،والتفادي منه،والتعدي عن شومه،والانتزاح عن شره،وما تحققوا من سوء عاقبته..."(200).

فإذا كانت الرواية الرسمية قد جعلت من هؤلاء الذين سلموا زعيمهم عقلاء،فلا شك أن الصورة التي رسمت لهم من قبل سبع بن منخفاد أنهم عناصر انتهازية وخونة أرادوا الاستفادة من الوضع الجديد الذي ستصبح عليه بلاد غمارة بعدما خضعت بشكل فعلي للسلطة المركزية ببلاد المغرب الاقصى الوسيط(201).ذلك أن الرسالة الرسمية كشفت لنا بشكل صريح بأن الموحدين لم يسبق لهم أن دخلوا في صراع عسكري حقيقي مع الغماريين ولا واجهوا تمردا في نفس تلك الظروف "ومقابلة أعداء لا يدري كيف توقيها،ومشاهدة أحوال على الجملة لا عهد بتلقيها،والأعداء يتربصون بهم وقوعهم في مثل هذه الحال..."(202).

فبعد هذه المواجهات تم تثبيت النفوذ الموحدي في بلاد غمارة بعدما أصبح "جبل الكواكب خاليا"(203).بصيغة أخرى تم القضاء على أصول الفتنة -من المنظور الرسمي- حيث يشير الخليفة يوسف في هذا الصدد "وهؤلاء القوم ومن انضاف إليهم ممن وقعت به هذه الواقعة ودارت عليه الدائرة،هم مقدمو غمارة ومستتبعوها ومغووها ومضلوها،وهم كانوا شوكتها الناكية، وثورتها التازية..."(204).وهكذا يتضح بأن الموحدين عندما قاموا بالقضاء سابقا على ثورة مرزدغ الغماري،فإن ذلك لم يكن يدل على إخضاعهم للمجال الغماري بأجمعه،بل إن الأمر أبعد من ذلك وهو أن بلاد غمارة لم تكن خاضعة بمفهومها السياسي والعسكري للسلطة المرابطية كذلك،إن ذلك ما نفهمه من كلام الخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف عندما أشار بأن جبل الكواكب "كان أبلقهم الفرد،الممتنع على من رامه،المستعصب قديما على من كاده،فقد استفتح ممنوعه،وخلت من الظالمين ربوعه..."(205).فالمرابطون حاولوا التحكم في هذا المجال من خلال سلسلة من الحصون التي اقاموها على حدود بلاد غمارة مثل "بني تاودا"،ولم يحاولوا استئصال الخطر الذي يهدد السلطة المركزية،الشيء الذي جعل هذه القبائل لا تعرف انتفاضة عنيفة خلال المرحلة المرابطية.وذلك على الرغم من أن المصادر أشارت إلى "تتابع نفاق غمارة على المرابطين"(206).إن تمتع الغماريين بنوع ما من الاستقلال في تسير مجالهم خلال المرحلة المرابطية،واكتفاء المرابطين بمراقبة تحركاتهم من خلال حصون"بني تاودا"و "أمرجو"،هو ما جعل عنف تمردات غمارة لا يظهر لنا بوضوح من خلال النصوص.هذا إذا علمنا أن تسجيل الوقائع لا يتم إلا إذا كان الحدث له علاقة بالسلطة الرسمية،كانت مركزية أو محلية(207).وربما ذلك هو ما يفسر الصورة الباهتة لثورة مرزدغ،على الرغم من خطورة إجراءاتها المتمثلة في سك العملة،أمام ثورة سبع بن منخفاد التي لمعت في المصادر الموحدية والمرينية على السواء.وإذا كانت خطورة الثورة لا يشك فيها أحد،فإن الأمر الذي يجب التأكيد عليه هو أن اهتمام الخليفة الموحدي بها لا يتعلق بمحاولة لإسكاتها أو إخمادها فقط بل إن ذلك يدخل ضمن مشروع لتهدئة منطقة تعتبر ضرورية للعبور إلى الأندلس.ذلك أن ثورة بن منخفاد صادفت تطلعات لدى الخليفة أبي يعقوب يوسف في القيام بمشاريع جهادية بغرب الأندلس خاصة(208)،ومن هذا المنطلق اكتسبت هذه الثورة أهميتها وخطورتها.فالسلطة المركزية لم تكتف فقط بأخذ الغنائم وقتل زعيم الثورة بل قامت بتمشيط المنطقة وإخلائها من كل تحصينات دفاعية،وفي نفس الوقت كانت هذه الثورة فرصة للجيوش الموحدية للتمرس على هذه الجهة والتي ظلت مجهولة لديها كما عبر عن ذلك الرسالة الموحدية ذاتها(209).وإذا كانت محاولة القضاء على هذه الثورة مرتبطة بمشاريع للخليفة الموحدي،فإن الذي يجب أن لا يغيب عنا،هو أن الرغبة في ضمان موارد جديدة لخزينة الدولة كان بدوره حاضرا في هذه الثورة.فلم يعمل الموحدون إلا على إزالة سلطة احتكار قبائل جبل الكواكب للموارد الاقتصادية بمجال غمارة.فالسلطة المركزية لم تعد مقتنعة بفرض الضرائب والعمل على جبايتها من خلال مجموعة من المراكز على طول بلاد غمارة،بقدر ما كانت تريد الحضور الفعلي داخل هذا الوسط القبلي(210).فنظرة أولية عن قيمة الغنائم التي حصل عليها الموحدون تؤكد لنا مدى رغبة السلطة المركزية في القضاء على ذلك الاحتكار القبلي وإحلال احتكار الدولة محله.

العدد	الغنائم
12 ألف رأس	البقر
27300 رأس	الغنم
617 رأس	الدواب
3647 فرد	السبي

المصدر : ابن صاحب الصلاة،المن بالإمامة ص.244.

ورغم أن هذه الثورة شغلت السلطة المركزية قرابة شهر ونصف في مواجهتها،إلا أن نتائجها كانت ايجابية على مستوى ردع مختلف التمردات التي قد تحدث في بلاد المغرب والاندلس.ولعل ذلك ما جعل الخليفة أبا يعقوب يوسف يلح في نهاية الرسالة على ضرورة إشاعة الخبر "وتوفوه واجبه من النشر والإذاعة"(211)،"ليصلح به الفاسد،ويستقيم بها المائل"(212).كما أن هذا الانتصار شكل متنفسا للخليفة أبي يعقوب الذي أصبح قادرا على إعلان أنه امير للمؤمنين(213).لقد كانت ثورة غمارة فرصة بالنسبة لهذا الخليفة لتبرير تأخر تدخله بالأندلس قصد الجهاد ضد النصارى.فيشير الخليفة في هذا الصدد "فتعترض من أهل هذه المغارب شواغب يثيرها الجهال،ويبعثها النعقة الضلال،فلا يسع إهمالها ولا يسوغ الاضراب عنها،قياما بحق الدين،وتوقيا من استشراء الشر،وتوفر أسباب الفتنة،فينصرف إليها من الالتفات والقصد لحسم عللها وإبراء أدوائها،ما يقشع غياباتها ويظهر اقذاءها،ويفضي إلى المقصود الاول من التفرغ للجزيرة -مهدها الله- والتوطئة لأمرها..."(214).وإذا كان الموحدون قد أثبتوا تبعية بلاد غمارة من خلال محو أثر الفتنة من جبل الكواكب، فإن ابن صاحب الصلاة قدم لنا مظهر آخر لهذا الخضوع للدولة الموحدية عندما اشار إلى أنه "انقطعت فتنة الضلال الجهال،أهل الجبال،وتابوا وأنابوا ودعوا للجهاد فأجابوا"(215).إن مساهمة القبائل إلى جانب الجيوش الموحدية في عمليات الجهاد بالأندلس تم اعتبارها دليلا على هذه التبعية للسلطة المركزية،أفلا يمكن القول بأن استنفار هذه القبائل للجهاد كان هو أصل الخلاف وسبب من أسباب التمرد والثورة"(216)؟.منذ القضاء على ثورة "سبع بن منخفاد" لم تعرف منطقة غمارة ظهور فتن أو تمردات ضد السلطة الشرعية.فالمصادر لا تحدثنا عن وقوع أي انتفاضة في هذه الجهة إلا على عهد محمد الناصر(217).فقد شهدت فترة حكم هذا الخليفة قيام ثورتين الأولى منهما عام 600هـ/1203م والثانية حدثت عام 610هـ/1213م (218).ولا نجد أثرا للثورتين إلا في الكتابات المرينية خاصة منها،القرطاس،الذخيرة،وجني زهرة الآس.

فصاحب القرطاس لا يشير إلى أسباب قيام العبيدي عام 600 هـ/1203م بجبال ورغة.فقد أورد الخبرمرادفا لحديثه عن اكتمال بناء سور فاس على عهد الخليفة الموحدي محمد الناصر(219).في حين أن صاحب الذخيرة يشير بأن هذا الثائر ادعى أنه الفاطمي الذي ينصر الاسلام ويملأ الارض عدلا كما ملئت جورا(220).فالدعوة في أساسها لشخص يملك من القوة ما يمكنه من تغيير واقع يسود فيه الجور والفساد.فهناك رغبة في تجاوز هذا الوضع هي ما تعكسها لنا تبعية قبائل جبال غمارة لهذا الثائر(221).وحسب رواية الذخيرة أن هذا القائم لم تنحصر دعوته في هذه المناطق،بل إنها انتشرت في جميع الجهات حيث

سانده كثير من قبائل المغرب وبواديه(222).وكيف ما كانت درجة انتشار دعوة العبيدي إلا أن ما يهمنا،هي معرفة أسباب انتشارها،واعتناقها من قبل قبائل بلاد غمارة.فالمسألة تتطلب الرجوع إلى مختلف النصوص التي تتحدث عن فترة حكم الناصر،والتي أخبرتنا بأن المرحلة عرفت ظهور ثورات أخرى وفتن تزامنت مع قيام ثائر بلاد غمارة.فقد ظهر ثائر في بلاد سوس وجزولة، كما هو الشأن مع الثائر الجزولي، المعروف بأبي قصبة عام 597هـ/1200-1201م(223).وكذلك قيام الفتن بإفريقية (224).وتميزت الفترة كذلك بمحاولة القضاء على ما تبقى من المرابطين بالجزائر الشرقية وتتبع فلولهم بإفريقية(225).فبالإضافة إلى انشغال الموحدين بهذه الحروب فقد شهدت بعض المناطق تعسفات من طرف المسؤولين على الضرائب وجبايتها خاصة في فاس (226).يبدو أن ذلك كله قد مهد الظروف لقيام العبيدي عام 600هـ/1203-1204م،مستغلا استياء السكان بجبال ورغة.ولعل ما شجع غمارة على اتباع العبيدي هو شخصيته المتميزة حيث كان رجلا صالحا،متخشعا،كثير الورع،والعبادة على حد تعبير صاحب الذخيرة(227).فهل يمكن القول أن فقدان الثقة بالحكام الموحدين المحليين،والمكلفين منهم بالشؤون المالية خاصة،قد فرض على سكان غمارة اللجوء إلى أشخاص عرفوا بصلاحهم داخل المجتمع؟أم أن الأمر يتعلق فقط باتباع شخص زاهد تقربا منه وتقديرا له ؟.إن كلا التساؤلين وارد،فابن عذاري يروي لنا نصا في غاية الاهمية يتحدث فيه عن تعسفات العمال،الذين كانوا يتكلفون بالشؤون المالية والجبايات،بهذه المناطق خاصة على الطريق الممتدة من فاس إلى سبتة عبر قصر كتامة.حيث وقف الناصري في مرحلة لاحقة على تلاعباتهم،واختلاساتهم،مما جعل الخليفة يتخذ في حقهم العقوبات الشديدة"...فبسط السطوة على من كان منهم بمدارج الضرر أجمعين وأوقع العقاب منهم بالمستهزئين"(228).وهذا من شأنه خلق بوادر التوتر والرغبة في الخلاص من الحكام المحليين(229).لذلك يظهر الزاهد والناسك أنه يحقق ذلك النموذج المرغوب فيه داخل مجتمع فرض عليه البقاء في الجبال العالية،مع حرمانه من خيرات المناطق الفلاحية المجاورة،وكذا مداخيل مراكزه التجارية،والتي كانت قبل المرحلة المرابطية عنصر قوته(230).وهكذا كانت لشخصية العبيدي أثر كبير في ضمان تعلق سكان بلاد غمارة به خصوصا إذا ما علمنا المنزلة التي كان يحتلها الزهاد والمتصوفة عند هذه القبائل .فصاحب المقصد الشريف يقدم لنا مجموعة من أعلام التصوف الذين ظهروا في هذه المنطقة ووصل تاثير بعضهم إلى البلاط الموحدي(231).فلم تكن عيون السلطة الموحدية غافلة عما كان يجري في هذه المنطقة،وهذا ما يفسر قرار الحضرة الموحدية في القبض على العبيدي حيث قتل وحمل رأسه إلى الناصر فأمر أن يرد إلى مدينة فاس فعلق على إحدى أبوابها(232).إن خطورة هذا الثائر لم تظهر فقط على مستوى الاسلوب الذي تم القضاء به عليه،بل تجسدت كذلك على مستوى استمراريته في الذاكرة المغربية.فهو قد اعطى اسما آخر لإحدى أبواب المدينة المهمة "باب الشريعة"(233) الذي أصبح يحمل اسم باب المحروق نسبة لعملية الاحراق التي تعرض لها هذا القائم(234).كما ذكرت المصادر أنه عام 610هـ/1213م ولد ولد العبيدي بجبال غمارة حيث ادعى أنه الفاطمي،فبايعه خلق كثير من أهل الجبال والبوادي فبعث إليه الناصر جيشا فتم قتله(235).لقد جاء قيام ولد العبيدي عام 610هـ/1213م في ظروف ما بعد "معركة العقاب"(236) ليكشف عن استياء عام وقع لسكان الغرب الاسلامي

ككل،والمغرب الأقصى خاصة ومنه بلاد غمارة.فكانت بذلك الأرضية ممهدة للاعتقاد في ظهور المهدي خصوصا وأن هذه المنطقة قد سبق لها أن عرفت ظهور مثل هذه المعتقدات منذ فترات سابقة(237).فهل يمكن القول أنها دعوة الى إحياء المذهب الشيعي؟.إن ادعاء الهداية أو الترويج لفكر المهدي لم ينحصر خلال الفترة الموحدية ببلاد غمارة بل إن جهات متعددة من بلاد المغرب قد شهدت ذلك،واختلفت أسباب قيام أصحابها،كما تباينت أهداف مناصريها من القبائل .

خلاصات واستنتاجات

بالاعتماد على مصادر جغرافية،وكتب المناقب،والحوليات التاريخية،تم تسليط الاضواء على بعض جوانب تاريخ غمارة خلال العصر الوسيط.وتبين أن تحديد مصطلح غمارة يطبعه الغموض،وبأن مجال غمارة مطاط،يتسع ويتقلص حسب أهمية الحضور الفعلي للسلطة المركزية (مرابطية وموحدية)في تلك المنطقة.ومن خلال دراسة الامكانيات الاقتصادية والاستراتيجية،لهذه الجهة من المغرب الاقصى تم التوصل إلى تفسير مختلف أشكال الثورات الغمارية خلال القرن السادس الهجري/12م.وانتهى التحليل إلى أن الخط الرابط بين أسباب قيام مختلف الانتفاضات يتمثل في ظهور سلطة مركزية بالمغرب ضايقت قبائل غمارة في استغلال خيراتها،كما أن بروز فكرة الجهاد جعلت المنطقة معبرا للجيوش المرابطية والموحدية فضاعف ذلك من استنزاف ثروات غمارة،وكذا استغلال سكانها في صناعة السفن ومن أجل تلبية متطلبات الجهاد بالأندلس.فقامت ردود فعل منذ فترات مبكرة من إخضاع غمارة للمرابطين،على أن أخطر الثورات الغمارية تمت خلال بداية فترة حكم الخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف عبد المومن الذي ظهرت معه فكرة ترسيخ نفوذ السلطة المركزية بشكل فعلي في بلاد غمارة.

الهوامش

1)- لقد أشار الباحثون إلى أن تحديد مجال منطقة غمارة يختلف من مصدر لآخر،انظر في هذا الاطار:

YVER(G)-GHUMARA,in ENCYCLOPEDIE DE L'ISLAM,T II,1965,P.1121

Mme BENRAMDANE(Zoulikha)-Ceuta aux XIII et XIV siécles,thése de 3 cycle « Histoire et civilisation »,Fac des lettres et sciences humaines,(AIX.Marsille 1),oct 1987,P.30-31

KABLY (M).-Societé ,pouvoir et religion au Maroc à la fin du moyen-age,(XIV-XV siécle),Ed Maisonneuve et la Rose ,Paris, 1986 P.34 , note.2.

2)- يشير البكري ومن جاء من بعده من الجغرافيين،وكذا ابن عذاري،وغيره من المؤرخين عند حديثهم عن مؤسس إمارة نكور،"يذكرون أنه على يديه تم إسلام قبائل غمارة وصنهاجة. وعند توزيع المغرب بين أبناء ادريس بن ادريس كان من نصيب عمر ابن ادرريس بلاد صنهاجة وغمارة .البكري،المغرب في ذكر بلاد افريقة والمغرب،نشر دي سلان،1965،باريز،ص . 91،مجهول،"كتاب الاستبصار" في عجائب الأمصار،تحقيق سعد زغلول عبد الحميد،دار النشر المغربية،الدار البيضاء،1985،ص . 136،ابن عذاري،البيان في أخبار الاندلس والمغرب،ج 1،تحقيق "كولان" و "إ.ليفي.بروفنسال"،دار الثقافة ،بيروت لبنان،الطبعة الثانية،1980،ص 176،ابن أبي زرع،روض القرطاس ،ص 51.

3)- فصاحب مفاخر البربر عند حديثه عن قبائل "بني خطاب" قال بأنهم يوجدون في غمارة من صنهاجة الريف.مؤرخ مجهول،نبذ تأريخيه في اخبار البربر في القرون الوسطى،منتخبة من المجموع المسمى كتاب مفاخر البربر ،المطبعة الجديدة،الرباط،1934،نشر بروفنسال،ص.66.

4)- يشير البكري في كتابه إلى "بربر غمارة"ثم يذكر في موضع آخر من مؤلفه "بلد غمارة" ويتحدث في جهة اخرى من نفس الكتاب عن "أهل غمارة".ويذكر الادريسي أن "بلاد غمارة " جبال متصلة بعضها ببعض"،ويقول عن " حصن مسطاسة" "بأنه لغمارة"،وعن جبال الكواكب يذكر الادريسي أنه كان يسكنها"غمارة".البكري،المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب،ص.91-100-102،الادريسي،"نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، المجلد الثاني،المكتبة الدينية،بور سعيد،مصر،دون تاريخ،ص.532.

5)- ابن خلدون،العبر ،ج6 ،ص.249.

6)- ابن خلدون،نفس المصدر والصفحة،مجهول،مفاخر البربر،م س ،ص.71.وحسب موليراس أن اسم غمارة كقبيلة بربرية موجود قبل مجيء فتوحات عقبة بن نافع.MOULIERAS(A).-Le Maroc inconnu,2. partie,Paris,1995,P.251

7)- ابن خلدون،مصدر سابق،نفس الصفحة.

8)- مخطوط الخزانة العامة،الرباط،رقم ك 1275.

9)- أبي حيان،كتاب الانساب،ص 24-25.فقد أشار إلى القبائل التالية:"بنو اكترات" "بنو سكرو" في مدينة تيطاون بناحية سبتة،ثم بنو امرزوق سمغرت وبنو امعديد وبنو ادغاغ ومنهم قبيلة يقال لها "كتامة" وله سوق يقال له سوق كتامة.

10)- مؤرخ مجهول،مفاخر البربر،ص.71.

11)- نفسه،ص .64-65.

12)- ابن خلدون،العبر،ج 6،ص.249.

13)- نفسه،ص.250.

14)- ابن خلدون،العبر ،ج6،ص.249.

15)- نفسه،ص.250.ولعل ما يؤكد قول ابن خلدون،هو ما جاء عند صاحب مفاخر البربر بأن"بني حسان"فخد من غمارة،مؤرخ مجهول،مفاخر البربر،ص.67.

16)- أبي حيان،"كتاب الانساب"،ص .24.

17)- نفس المصدر والصفحة.

18)- الادريسي،"نزهة المشتاق"،ج2،ص.532-533.

19)- نفسه،ولعل ذلك ما جعل صاحب جذوة الاقتباس في مراحل لاحقة القول:"...ومن جبال مدينة فاس القريبة إليها جبال غمارة من اخصب جبال المغرب وهي الجبال المشهورة وغمارة أمة لا تحصا".ابن القاضي،جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الاعلام مدينة فاس،القسم الاول،دار المنصور للطباعة والوراقة،الرباط،1973،ص.80.

20)- نفسه،ص.532.

21)- مجهول،الاستبصار،ص.190.

22)- ابن سعيد،كتاب الجغرافيا،تحقيق اسماعيل العربي،منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت،لبنان،الطبعة الاولى،1970،ص.139.

23)- يطلق ابن سعيد على الجهة الساحلية من غمارة اسم "الريف"،ويبدو أن هذا المصطلح سيعمم في فترات لاحقة على المناطق الشمالية من المغرب الاقصى وخاصة النطاق الجبلي.ابن سعيد،كتاب الجغرافيا،ص.139.ابن خلدون ،العبر،ج6،ص.249،الحسن الوزان،وصف افريقيا،ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الاخضر،الشركة المغربية لدور النشر المتحدة،الرباط،1980،ج1،ص.252.

24)- حول حصون غمارة،انظر:الادريسي،م س ،ج2،ص.532.

25)- نقصد بذلك تنقل قبائل غمارة وجيرانها بين الجبال المرتفعة من جهة وبين هجومها على أراضي فلاحية أو مراكز تجارية جنوبا من جهة أخرى.

26)-يضطر المؤرخون اللجوء إلى التعميم بخصوص التمردات والفتن التي تعرفها المنطقة،ونسوق مثالافي هذا الصدد من كتاب "الذخيرة السنية" المنسوب لابن أبي زرع حول قيام العبيدي عام 600هـ/1203 حيث

أشار الى ما يلي:"...فتابعه كثير من قبائل المغرب وبواديه وجميع جبال غمارة...".ابن أبي زرع "الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية"،دار المنصور للطباعة والوراقة،الرباط،1972،ص.38.

27)- الادريسي، "نزهة المشتاق"،ج 2،ص.532.

28)- ابن سعيد،كتاب الجغرافيا،ص .139.

29)- مجهول،الاستبصار ،ص.190.

30)- نفسه،ص.190-191.

31)- مثل بادس التي يقول عنها صاحب نزهة المشتاق أنها: "مدينة متحضرة فيها أسواق وصناعات،يلجأ إليها الغماريون في حوائجهم". الادريسي،نزهة المشتاق،ج2،ص.532.كما كشف المسح الاثري عن اهمية ميناء "تيكساس" خلال المرحلة الاسلامية.انظر في هذا الصدد:- عبد العزيز توري،المسح الأثري لحوض سبو ومنطقة غمارة،مجلة كلية الآداب الرباط،عدد11،السنة 1985،ص.161.

32)- الادريسي،نزهة المشتاق،ج2،ص.529-533.ويقول عن "انزلان" وهو أول بلاد غمارة أنه عبارة عن مرسى فيه عمارة.الادريسي، م س ،ج2،ص.532.

33)- لقد كان قصر مصمودة مركزا مهما لصناعة السفن المخصصة لعمليات العبور إلى شبه الجزيرة،وهذا ما جعل سكان هذه المدينة يؤمنون العبور بين العدوتين إلى مراحل متأخرة بشهادة الحسن الوزان ،الادريسي، نزهة المشتاق،ج2،ص.529،الحسن الوزان،وصف افريقيا،ج1،ص.245.

34)-الادريسي،نزهة المشتاق،ج2،ص.529.

35)- نفس المصدر والصفحة.وحول هذا النشاط البحري بهذه المنطقة وغيرها من المناطق المطلة على الحوض الغربي من البحر المتوسط خلال العصر الوسيط يمكن الرجوع إلى مقال الدكتور محمد حمام ضمن أعمال الندوة الدولية حول: الغرب الاسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى التي نظمت بكلية الرباط في نونبر 1994.

HAMMAM (M) -La pëche et le commerce du poisson en mediterrannée occidentale (X debut XVI) .Tableau historicogeographique établi d'après les sources musulmanes,in travaux du colloque de l'occident Musulman et l'occident chrétien au moyen age,Fac lettres,Rabat,serie colloques ,N°481995,PP151-179.

36)- مثل صناعة شباك الصيد وكذا معالجة شجر المرجان.الادريسي ،نزهة المشتاق،ج2،ص.528-529.

37)- يذكر الادريسي أن شجر المرجان المصطاد بسبتة يتم تصديره إلى منطقة السودان الغربي وذلك بعد عملية تصنيعه.

- الادريسي ،نزهة المشتاق،ج2،ص .529.وقد أكدت الابحاث الأثرية على ان المنطقة عرفت مرحلة ازدهار اقتصادي خلال العصر الوسيط،سواء من خلال الشواهد الذالة على مشاريع الري والسقي،أو على الوقوف على الامكانيات الطبيعة التي توفرها السواحل المتوسطية بالمنطقة باعتبارها صالحة لرسو السفن.حول هذه الأبحاث الأثرية ونتائجها بمنطقة غمارة يكمن الرجوع إلى :

Premiére prospection d'Archéologie Médiévale et Islamique dans le Nord du Maroc,in Bulletin d'Archéologie Marocaine,TXV,1983-1984,(plusieures chercheurs),PP.367-376 et PP.397-402.

JBALA -Histoire et societé (article:Archéologie et peuplement :les mutations médiévales:le cas de Targha,par Andre Bazana,Patrice Cressier et Abdelaziz Touri,Ed du CNRS,Wallada,Casa,1991;P307-329.

- عبد العزيز توري،المسح الأثري لحوض سبو ومنطقة غمارة،مجلة الآداب ،الرباط،عدد 11،1985،ص.151-168.

38)- مجهول،الاستبصار ،ص 190.ويذكر الحسن الوزان في مرحلة متأخرة عن مدينة "أمركو"،والتي كانت تدخل ضمن المناطق المجاورة لغمارة في قمة جبل،وجدت بها اسوار قديمة تقرأ عليها بعض الكتابات اللاتينية حيث يقال أن الرومان هم الذين أسسوها.

الحسن الوزان،وصف افريقيا،ج1،ص.238.

39)- مجهول الاستبصار ،ص.191.لقد أكدت إحدى الأبحاث الأثرية في منطقة غمارة على أهمية التحصينات التي شهدتها بعض مراكز غمارة خلال المرحلة الوسيطية.JBALA,op.cit.P.317.

40)- حول هذه الفتوحات يمكن الرجوع إلى :-عبد الرحمان بن عبد الله بن عبد الحكم،فتوح افريقية والاندلس،تحقيق عبد الله أنيس الطباع،الشركة العالمية للكتاب،دار الكتاب اللبناني،بيروت،لبنان،1987،ص.46-70.-أبو الحسن البلاذري،فتوح البلدان،مراجعة وتعليق رضوان محمد رضوان،دار الكتاب العلمية،بيروت لبنان،.1983ص.227-232،ابن عذاري،البيان المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب،ج1،دار الثقافة،لبنان،الطبعة الثانية،1980،ص.8-46.

41)-البكري،المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب،ص.91،ابن عذاري،البيان المغرب في ذكر أخبار بلاد افريقية والمغرب،ج1،م س ص.176،ابن خلدون العبر،ج6،ص.251.

42)-البكري،م س ،ص.91،ابن عذاري ، ن م و ص . وبذلك لا نوافق الباحث المختار الهراس الذي ذكر بأن سكان غمارة كان تاثرهم باللغة العربية وبالاسلام أشد من سكان المناطق الاخرى.-المختار الهراس،تطور الهياكل القبلية شمال غرب المغرب،رسالة دبلوم الدراسات العليا في علم الاجتماع،الرباط،كلية الآداب،ص.102.

43)-ابن عذاري،البيان،ج1،ص.42،ابن خلدون،العبر،ج6،ص.250.

44)-ابن عبد الحكم،فتوح افريقية والاندلس،ص.71-73.

45)-لما توفي "يليان" استولى العرب على مدينة سبتة صلحا من ايدي قومه وقاموا بتعميرها كما جاء عند ابن خلدون،العبر،ج6،ص.250.

46)-ابن خلون،ج6،ص.251.

بيصعين عبد الكريم،"الصراع الفاطمي الاموي في المغرب الاقصى خلال القرن الرابع الهجري"،دبلوم الدراسات العليا في التاريخ،سنة 1984،كلية الآداب،فاس،مرقونة،الفصل الرابع،ص.102-104.

47)- ابن خلدون،العبر،ج6،ص.250،البكري،م س ،ص.104.

فيذكر ابن خلدون تطور الاحداث في سبتة كما يلي:"...ثم كانت فتنة ميسرة الحقير وما دعى إليه من ضلالة الخارجية،وأخذ بها الكثير من البرابرة من غمارة وغيرهم فزحف برابرة طنجة إلى سبتة واخرجوا العرب منها وسبوها وخربوها فبقيت خلاء.ثم نزل بها ماجكس من رجالاتهم ووجوه قبائلهم،وبه سميت مجكسة فبناها ورجع إليها الناس واسلم.وسمع من أهل العلم إلى أن مات فقام بأمره ابنه عصام...".

48)- بعد تقسيم المغرب بين أبناء ادريس بن ادريس كان من نصيب عمر بن ادريس تيكساس وترغة وبلاد صنهاجة وغمارة،واختص القاسم بطنجة وسبتة والبصرة،وما إلى ذلك من بلاد غمارة،ابن خلدون،العبر،ج6،ص.256.

49)- حول هذا الصراع الفاطمي الاموي يمكن الرجوع إلى :-بيصعين عبد الكريم،مرجع سابق،الدكتور الحبيب الجنحاني،دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الاسلامي،دار الغرب الاسلامي،بيروت لبنان،الطبعة الثانية،1986،ص.155-177.

50)- ابن خلدون،العبر،ج6،ص.261.

51)- ابن خلدون،العبر،ج6،ص.256،ابن أبي زرع،روض القرطاس،ص.84.

52)- ابن خلدون،العبر،ج6،ص.259.

53)- نفس المرجع ص .262.

54)- مجهول،الاستبصار،ص.190،الادريسي،نزهة المشتاق،ج2،ص.532.

55)- البيدق،أخبار المهدي بن تومرت،ص.24.

56)- ابن عذاري،البيان المغرب،ج4،تحقيق الدكتور إحسان عباس،دار الثقافة،بيروت،لبنان،ط.الثانية.1980،ص.58 و 74-75.

57)- محمد الشطيبي،"مختصر من كتاب الجمان في أخبار الزمان"،مخطوط الخزانة العامة بالرباط،رقم D 579،وجه الورقة.147.

58)- مجهول،الاستبصار،ص.190،الادريسي،نزهة المشتاق،ج2،ص.528.

59)- ابن خلدون،العبر،ج 6ص.262.

60)- ابن صاحب الصلاة،المن بالامامة،ص.231-245،البيدق،أخبار المهدي،ص.86،ابن عذاري،البيان،قسم الموحدين،دار الغرب الاسلامي،لبنان،دار الثقافة البيضاء،ط الأولى 1985،ص.95-98،ابن ابي زرع،الأنيس المطرب بروض القرطاس،ص.209-210.

61)- لا تمدنا المصادر بمعلومات كافية في هذا الصدد،باستثناء الاشارة إلى كون الكثير من البرابرة من غمارة قد أخذوابالمذهب الخارجي دون ان نعرف ما إذا كان يوجد دعاة له هناك،ولا عن مدى تجاوب السكان مع هذا المذهب ابن خلدون،العبر،ج 6ص.250.حول ثورات الخوارج وتاثيرهم في المجتمع المغربي يمكن الرجوع إلى:محمود اسماعيل،الخوارج في بلاد المغرب،دار الثقافة،البيضاء،الطبعة الاولى،1976،ص.62-81و ص.275-301.

62)- حول نتائج هذا الصراع يمكن الرجوع إلى:بيصعين عبد الكريم،الصراع الفاطمي الأموي بالمغرب الاقصى،مرجع سابق.

63)- لعل ما يعبر عن هذا التعاطف بين قبائل بلاد غمارة والاسرة الادريسية هو موقفهم من ابن أبي العافية عندما حاصر الادارسة في موقعهم"بحجر النسر"واراد استئصال وقطع دارهم حيث ذكر أبي زرع"فعذله على ذلك رؤساء المغرب وأكابر أهل دولته،وقالوا :أتريد أن تقطع دابر أهل البيت من المغرب وتقتلهم أجمعين،هذا شيء لا نوافقك عليه ولا نتركك له."ابن أبي زرع،الانيس المطرب بروض القرطاس،ص.84.

64)- نجد هذا الحكم كذلك عند بعض المعاصرين مثل"لويكي"عندما ذكر بأن غمارة عارضت الاسلام مدة طويلة واستمرت مخلصة للاعتقادات القديمة.

LEWICKI (Tadeusz)-Prophetes devins et magiciens chez les berberes medievaux,in Folia orientalia, TVII,1965,KRAKOW,1966P.10

-كما أشار الشيخ عبد الله بن محمد الهبطي في ألفيته إلى انتشار البدع بهذه المنطقة حيث خصص مجموعة من الابواب في هذا الصدد على مستوى التغيير الذي أحدثه سكانها في مجال الاعتقاد والحج والجهاد وفي أحوال الخاصة والعامة.فلا ندري هل يقصد بالتغيير ما حدث بعد مرحلة الغزو الايبيري؟أم هي مرحلة سابقة ترجع للعصور الوسطى؟.

-عبد الله بن محمد الهبطي،كتاب الالفية السنية في تنبيه العامة والخاصة على ما أوقعوا من التغيير في الملة الاسلامية،مخطوط بالخزانة الحسنية،رقم 2808 انظر خاصة ص 2 إلى 38. غيرأن الملفت للنظر هو هذه النظرة التي كونتها هذه النصوص حول قبائل غمارة ذكر عكسها مولييراس في نهاية القرن الماضي حيث أشار إلى ما تبقى من قبائل غمارة تفتخر بتقاليدها وتقوم بهجاء غيرها مثل "بني سميح"فقال أن غمارة تقول:بني سميح سمحوا في قاعدة غمارة وتبعوا قاعدة الريف،لأن غمارة كلها طالب وشريف وأما بني سميح غير المكحلة...والرديف..."Moulieras . op.cit.P.338 -البكري ،المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب،ص .91.

65)- الادريسي،نزهة المشتاق،ج2،ص.532،مجهول،الاستبصار،ص.192.

66)- مجهول،الاستبصار،ص.192.

67)- البكري،م س ،ص.100.

68)- البكري،م س ،ص.100.فذكر بأن لحاميم"أخت تسمى دجو وكانت ساحرة كاهنة من اجمل الناس وكانوا يستغيثون إليها في كل حرب وضيق ويزعمون أنهم يجدون نفعها".-.LEWICKI (Tadeusz). op.cit.P.10.ويذكر مولييراس بأن النساء في نهاية القرن التاسع عشر اتخذن قبر دجو أخت حاميم مكانا للزيارة وذلك رغبة منهن في أن يصبحن عرافات ويمتهن السحر وذلك في نهاية القرن 19.

MOULIERAS (A)-op.cit.P.346

69)- البكري،م س .ص..101.

70)- فالبكري يذكر "ابن كسية" وصاحب الاستبصار يشير إلى "أبي كسية".

71)- البكري،م س ،مجهول،الاستبصار،ص..192.

72)- البكري،م س .ص..101 LEWICKI (T) -op.cit.P.18.حيث يشير هذا الباحث إلى أن طريقة هذا الشخص تذكر بما هو موجود عند الشعوب السلافية.

73)- البكري،م س .ص.102.
74)- نفس المصدر والصفحة.
75)- الادريسي،نزهة المشتاق،ج2،ص،532.
76)- سورة الكهف،قرآن كريم،"سورة الكهف"،من الآية 60 إلى الآية 70،محمد فؤاد عبد الباقي،المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم،دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،مصر،الطبعة الرابعة،ص.389-390.
77)- والمقصود به هنا "الخضر".ويبدو في اعتقادنا أن ايمان سكان بلاد غمارة بهذه القصة هو ما دفع أحد المؤرخين ببلاد الريف أن يهتم بحياة الخضر وذكر طرف من أحواله.انظر :البادسي،"المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف،تحقيق سعيد أحمد أعراب،المطبعة الملكية،الرباط،1982،ص.44-48.ونفس الملاحظة تنطبق على المؤلف "أبو محمد عبد الله بن محمد الأوربي"،المتوفى عام 782هـ،في حديثه عن "مناقب أبي يعقوب البادسي" ضمن مجموع،مخطوط الخزانة الحسنية،رقم 9447،ص.241.حيث خصصها لذكر رؤية الشيخ رضي الله عنه للخضر عليه السلام".وقد ذكر هذا المؤلف مجموعة من الروايات تبين من خلالها مدى التقديس الذي كان يحضى به الخضر عند أهل بادس،ويظهر أن هذا الموقف لم يقتصر على هذه المدينة بقدرما كان يعبر عن إحساس عام لدى ساكنة شمال المغرب الأقصى المطل على البحر الرومي(البحر المتوسط)والذي كانت غمارة خلال المرحلة المدروسة تحتل جزءا هاما منه.وحول نسب الخضر وما ورود في ذكره من أخبار،يراجع:-ابن حجر العسقلاني،الزهر النضر في نبأ الخضر،شرح وتعليق سمير حسين حلبي،دار الكتاب العلمية،بيروت لبنان،الطبعة الاولى ،1988،ص.17-115.
78)- البكري،م س .ص.106.ابن فضل الله العمري،مسالك الأبصار في ممالك الأمصار،تحقيق الدكتور مصطفى أبو ضيف أحمد،مطبعة النجاح الجديدة،البيضاء،1988،ص.137-138.ويلاحظ أن كلا من الادريسي وصاحب الاستبصار،اللذان اعتمدا في سرد أخبار غمارة على البكري،لم يثبتا في هذه المسألة.ويرجع السبب في ذلك على ما يبدو إلى موقفها المعارض لتصرفات الغماريين وتمردهم على الحكام المرابطين والموحدين.
79)- فقد اشار ابن عذاري إلى ثائر على عهد يوسف بن تاشفين،وآخر على عهد خلفه علي بن يوسف في حصن كركال عام 520هـ/1126-1127م.أما البيدق فقد اشار إلى خروج قوم من غمارة على المرابطين أيام عودة ابن تومرت من المشرق وإقامته بفاس.البيدق،أخبار المهدي،ص.24،ابن عذاري،البيان،ج4،ص.58، و 74-75.
80)- نقصد بذلك الدول المغربية الوسيطية مرابطية،موحديةومرينية،فهذه الاخيرة كان لها موقف من هذه القبائل الغمارية التي شهدت،في كثير من الاحيان،ظهور فتن وثورات ضد حكام العاصمة المرينية فاس،وبما أن معظم المصادر الوسيطية المتوفرة ترجع إلى هذه الفترة،فلا نستبعد أن مؤرخي هذه الدولة قد تجنوا الحديث عن ثورات غمارة وحتى الذين أشاروا إليها لم يقدموا لنا تفاصيل عنها.
81)- الادريسي،ج1،ص.249.
82)- مجهول،الاستبصار،ص.189.
83)- نفس المصدر والصفحة .
84)- ابن أبي زرع،الانيس المطرب بروض القرطاس،ص.141.
85)- نفس المصدر،ص.142.
86)- ابن أبي زرع،القرطاس،ص.142.
87)- نفس المصدر والصفحة.
88)- لقد جاء عند ابن ابي زرع أنه عام 467هـ/1074-1075م فرق يوسف بن تاشفين عماله على المغرب"فولا سيرى بن ابي بكر مدائن مكناسة وبلاد مكلاتة وبلاد فازاز وولا عمر بن سليمان مدينة فاس وأحوازها،وولا داوود بن عائشة سجلماسة ودرعة،وولا ولده تميما مدينتي أغمات ومراكش وبلاد السوس وسائر بلاد المصامدة وبلاد تادلة وبلاد تامسنا".ابن ابي زرع ،روض القرطاس،ص.142.
89)-ابن أبي زرع،روض القرطاس،ص.145.

90)- الادريسي،نزهة المشتاق،ج1،ص.249.مجهول الاستبصار،ص.189.
91)- البيدق،"أخبار المهدي بن تومرت"،ص.24،وحول الاهمية العسكرية لهذه الحصون وغيرها خلال الفترة المرابطية يمكن الرجوع إلى: LAGARDER(V) - Les Almoravides jusq'au regne de Yusuf. Btasfin (1039-1106),Paris,l'Harmattan,1989,PP.183-186.
92)- انظر ما ذكرناه في هذا الجانب المخصص لدراسة الاهمية الاقتصادية والاستراتيجية لمنطقة غمارة.
93)- ذلك أن قبائل لمطة استوطنت الاراضي الزراعية الخصبة المجاورة لبني تاودة القريبة من جبال غمارة.الادريسي،نزهة المشتاق،ج1،ص.249.وحول هجرة قبائل المرابطين،انظر حسن محمودود،قيام دولة المرابطين،مكتبة النهضة المصرية،1957،ص.215.وقد اشار أحد الباحثين على أن منطقة غمارة شهدت حركة هجرة سكانية من جهات مختلفة من جنوب المغرب خاصة من بلاد سوس.المختار الهراس،م س ،ص.108-109.
94)-عز الدين أحمد موسى،النشاط القتصادي في المغرب الاسلامي خلال القرن السادس الهجري،دار الشروق،بيروت،الطبعة الاولى،1983،ص.131.
95)- لا زلنا نفتقر إلى دراسة دقيقة حول مسالة "الضرائب" بالمغرب الوسيط ورغم أن الابحاث التي ظهرت مؤخرا قد حاولت معالجة الموضوع غير أنها تلجأ إلى التعميم،ونشير في هذا الصدد إلى :عز الدين احمد موسى،النشاط الاقتصادي بالمغرب الاسلامي،ص.163-180،ابراهيم القادري بوتشيش،الحياة الاجتماعية في المغرب والاندلس خلال عصر المرابطين،رسالة دكتوراه الدولة في التاريخ،كلية الآداب مكناس،السنة الجامعية 1990-1991.
96)- ابن أبي زرع،روض القرطاس،ص.137.يقول عن يوسف بن تاشفين:"لم يوجد في بلد من بلاده ولا في عمل من أعماله على طول أيامه رسم مكس ولا معونة ولا خراج في حاضرة ولا بادية إلا ما امره الله تعالى به واوجبه حكم الكتاب والسنة من الزكاة والاعشار وجزية أهل الذمة واخماس غنائم المشركين...".
97)- فبخصوص الاهمية التجارية لمدينة فاس،ذكر الادريسي: انه "عليها تشد الركائب وإليها تقصد القوافل ويجلب إلى حضرتها كل غريبة من الثياب والبضائع والامتعة الحسنة"،الادريسي،نزهة المشتاق،ج1،ص.246.وحول هذا الطريق التجاري الذي كان يربط سبتة بفاس،انظر:البكري المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب،ص.113-115.
98)-فقد سجلت لنا المصادر بخصوص الفترة المرابطية عدة حركات وتنقلات للجيوش المغربية إلى الاندلس حيث جاز الامير يوسف بن تاشفين أربع مرات وكذلك خلفه علي بن يوسف،مجهول، الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية،تحقيق عبد القادر زمامة وسهيل زكار،دار الرشاد الحديثة،البيضاء،الطبعة الاولى،1979،ص.38-87.
99)-حول هذه الاهمية التجارية يراجع المبحث الثاني.
100)- حول أهمية أخشاب غمارة في صناعة السفن انظر: -ابن سعيد،كتاب الجغرافيا،ص.139.
101)-ابن أبي عذاري،البيان المغرب،ج4،تحقيق احسان عباس،ص.58.
102)- حول ابن معنصر الزناتي راجع:ابن عذاري،البيان المغرب،ج4،ص.255.ابن ابي زرع،روض القرطاس،ص.112-113.
103)- إن الخروج عن المرابطين كان يفرض بالضرورة الاستناد على مشروعية،خصوصا وأن هذه الثورة جاءت بعد معركة الزلاقة،التي أخد فيها يوسف بن تاشفين مشروعية الحكم محليا،من قبل المغاربة والاندلسيين،وكذا على صعيد العالم الاسلامي بمباركة الخليفة العباسي وفقهاء المسلمين آنذاك ومن ابرزهم الغزالي والطرطوشي وقد تم ارسال مجموعة من الرسائل في هذا الصدد إلى يوسف بن تاشفين،وقد تم نشرها وتحقيقها بعناية الدكتورة عصمت دندش.د.عصمت دندش،دور المرابطين في نشر الاسلام في غرب افريقيا،430-515 هـ،دار الغرب الاسلامي،الطبعة الولى،1988،ص.171-217.
104)-ابن أبي زرع،روض القرطاس،ص.112-113.
105)- ابن عذاري،البيان المغرب،ج4،ص.58.

106)- ابن عذاري،البيان، ج4،ص.58.
107)- نفسه ،ونفس الصفحة.
108)- نفس المصدر ونفس الصفحة.
109)- ابن عذاري ،ن م ،ص.58.
110)- نفس المصدر ،والصفحة.
111)- نفسة.
112)- ابن خلدون،العبر، ج6،ص.263.يبدو أن رواية ابن خلدون قد جعلت البعض يطلق حكما عاما على بلاد الريف كما هو الشأن بالنسبة ل »موليراس" في أواخر القرن الماضي عندما ذكر بأن الريف عرف كيف يحافظ على استقلاله منذ ما قبل التاريخ،وانه لم يخضع لسيطرة مختلف الحكام الذين تعاقبوا على حكم المغرب،كما أنه كان ملجأ للثوار والمنشقين.وحسب رأينا أن في ذلك مغالطة كبيرة ذلك أن وجود هذه الانتفاضات خلال القرن السادس الهجري/12م لا تنفي بأن المنطقة لم تخضع لسلطة مركزية،فمشاركة قبائلها في العمليات الجهادية بالأندلس هي من بين أجلى مظاهر هذا الخضوع.
MOULIERAS(A): Le Maroc inconnu, (premiere partie) exploration du Rif,1895,Librairie Colonial,Paris,P.35.
113)- البيدق،أخبار المهدي،ص.24.
114)- نفس المرجع ،ص.24
115)- نفسه. نفس الصحفة.
116)- حول هذه العودة إلى بلاد المغرب الاقصى وإلى حدود مغادرة المهدي لمراكش انظر: البيدق،أخبار المهدي،ص.20-29.
117)- انظر حول موقف السلطة من اعمال ابن تومرت:البيدق،أخبار المهدي،ص.24.فعندما احتج تجار الآلات الموسيقية،على ما قام به ابن تومرت واصحابه من تكسير الدفوف والمزامير وغيرها من الآلات الموسيقية،قال لهم قاضي المدينة ابن معيشة: "لولا ما ارى في السنة ما كسرها ومزقها،مروا فإنكم مخالفون للحق...".
118)- حول هذه الاحداث يمكن الرجوع إلى :البيدق،أخبار المهدي،ص.23-24.
119)- مجهول،الحلل الموشية،ص.85-87.ابن عذاري،البيان، ج4.ص.64.
120)- عز الدين أحمد موسى،النشاط الاقتصادي في المغرب الاسلامي،ص.165-166.
121)- دليلنا في ذلك أن الجيوش المرابطية استطاعت الحصول على غنائم خلال هذه الحملة التاديبية،مما يفسر كذلك الرغبة في الحصول على موارد لخزينة الدولة كان هاجسا كذلك وراء القيام بهذا التحرك المرابطي إلى بلاد غمارة.البيدق،أخبار المهدي،ص.24.
122)- البيدق،أخبار المهدي،ص.24.
123)- ذلك ما حدث مثلا بخصوص محمد بن تومرت عندما نصحه مالك بن وهيب بسجنه،انظر:البيدق أخبار المهدي،ص.27.
124)- نقصد بذلك ادعاء "ابن الزنر" على أنه ابن معنصر الزناتي،مما يجعله شخصا متميزا داخل هذا المجتمع الغماري الذي ذكرت لنا المصادر ثقته في أصحاب الخوارق والكرامات.فالقدرة على الاختفاء لمدة ثلاثين سنة تقريبا بين دخول المرابطين فاس وقيام ثورة "ابن الزنر" ليظهر من جديد،تعتبر حدثا غير عادي بالنسبة لسكان قبائل غمارة.
125)- ابن عذاري،م س ،ص.74-75.
126)- يذكر ابن عذاري أنه في سنة 520هـ/1126م، "تواترت أخبار المهدي بمراكش وطاعت له الجبال كلها".ابن عذاري،البيان المغرب، ج 4ص.75.
127)- الحلل الموشية،ص.86-87.
128)- نفس المصدر ننفس الصفحة.
129)- عز الدين أحمد موسى، مرجع سابق،ص.133-134 و 165-166.

130)- ابن عذاري،مرجع سابق،ص.69-73.مجهول،الحلل الموشية،ص.91-97.
وحول هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى دراسة:
LAGARDERE(V).-Communautés Mozarabes et pouvoir Almoradives en 519 H/1125 en Andalus,Studia Islamica ,LXVII,Paris,1988,G.P.Maisonneuve et la Rose,PP.99-119.

131)- سورة الكهف،من الآية 65 إلى الآية 82،المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم،م س ص.390-392.
132)- البكري م س .ص .106. ابن فضل الله العمري،مسالك الامصار،ص.137-138.
133)-يمكن الرجوع إلى المبحث الرابع.
134)- يتضح من خلال قصة العبد الصالح مع النبي موسى الواردة في سورة الكهف،أن من الشروط التي وضعها الخضر (أي العبد الصالح) من أجل السماح للنبي موسى بمرافقته هي أن لا يساله على أي فعل قام به.سورة الكهف،الآية 70،المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.م س .ص.390.ويبدو في نظرنا أن ادعاء هذا الثائر كونه الخضر يقتضي مجموعة من الشروط ،من بينها أن تكون الفئة التي ستسانده على علم بسور القرآن واياته،خاصة سورة الكهف،ثم أن يتجلى هذا الثائر بمواصفات موجودة في العبد الصالح (الخضر) ومن أهمها،الاستقامة،وشدة العبادة...الخ.وحول هذه الصفات يراجع:البادسي،المقصد الشريف بذكر صلحاء الريف،ص.44-48.
135)- كما هو الشأن بخصوص قتل الخضر للغلام .سورة الكهف،آية 74،المعجم المفهرس،م س .ص 391.
136)- ابن عذاري،م س ،ص.75.
137)- البادسي،المقصد الشريف،ص.50 وما بعدها.
138)- غير أن رواية لمؤلف من جبال غمارة،عاش خلال القرنين 9هـ/15م و 10هـ/16م،ذكرت بأن هناك ثورحدثت بمدينة سبتة خلال عصر علي بن يوسف،وخاصة بعد رجوع ابن رشد إلى الاندلس بعد زيارته لمراكش عندما نصح الامير علي بن يوسف ببناء سور عاصمة دولته لمواجهة خطر الحركةالتومرتية.ونورد تفاصيل هذه الثورة في النص التالي: "...ولما رجع الامام ابن رشد إلى الاندلس قام الحاجب بسبتة وكان يتمذهب بمذهب الشيعة فأتاه علي بن يوسف وحاصره واخذه وقتله ومهذ المغرب كتمهيد أبيه يوسف...".فالشطيبي ينفرد بذكر هذه الثورة التي كانت تهدف إلى احياء المذهب الشيعي بسبتة،وما يلفت الانتباه أن قيامها جاء في وقت متزامن مع قيام ثائر ريف سبتة في كركال.فلا ندري هل كان لثورة سبتة بزعامة الحاجب تاثير على قبائل بلاد غمارة؟أم قد يكون ثائر كركال هو نفسه الحاجب الثائر بسبتة؟محمد الشطيبي، "مختصر من كتاب الجمان في اخبار الزمان"،مخطوط الخزانة العامة بالرباط،ضمن مجموع،رقم D579،وجه الورقة.147.
139)- ابن خلدون،العبر ،ج 6،ص.262.
140)- إضافة إلى ذلك حدثت بعض الكوارث الطبيعية كما هو الشأن عام 532هـ/1137-1138م حيث ذكر ابن حمادة: "كان السيل العظيم بطنجة حمل الديار والجدرومات فيه خلق عظيم من الناس والدواب".ابن عذاري،البيان الممغرب،ج 4،ص.96.
141)- حول هذه المسألة راجع:محمد الوزاد،مشكل الانسان في فلسفة ابن باجة،رسالة لنيل دكتوراه الدولة في الفلسفة،مرقونة،م س .ص.45 إلى 49،مع الاحالات،ص.232-233.
142)- وإذا ما جاز لنا الأخذ برواية الشطيبي حول ثائر مدينة سبتة،فإن المصادر الموحدية تكون قد تعمدت القفز عن ذكر أحداث هذه الثورة الشيعية التي قد تنافس الحركة التومرتية في جانب من مرتكزاتها المذهبية،ونقصد بذلك فكرة المهدوية و "العصمة".
143)- ابن القطان،نظم الجمان،تحقيق محمود علي مكي.
144)- ما عذا البيدق الذي تحدث عن ثورة غمارة على عهد علي بن يوسف بعد دخول ابن تومرت مدينة فاس.البيذق،اخبار المهدي،ص.24.
145)-أقصد بها الفترة الممتدة من دخول الموحدين مراكش عام 541هـ/1146م إلى وفاة الخليفة "محمد الناصر"في شعبان عام 610هـ/1213م.وأسست هذا الحكم اعتمادا على مدى حضور الوجود الموحدي

بالاندلس،ذلك أن المصادر أشارت إلى ان عمليات الجهاد قد تقلصت بشكل كبير منذ وقعة العقاب عام 609هـ/1212م.ورغم أن هذا التحديد يبقى نسبيا إلا أنه أصبح متعارفا عليه عند الباحثين المتخصصين.

146)- هناك عدة مؤشرات تبرر مدى خطورة هذه الثورة،ولعل من اهمها الاستعداد القوي عسكريا من قبل الموحدين لاخمادها،وكذا استمراريتها مدة طويلة من 559هـ/1163م إلى 562هـ/1167م،ثم المشاريع التي قامت بها السلطة الشرعية الموحدية بعد القضاء عليها،وقتل محركيها كما سيتم تفصيله.

147)- من أهمها " المن بالإمامة" لابن صاحب الصلاة:المن بالإمامة،من ص.231 إلى 245.والذي كان معاصرا لهذه الاحداث،نقل عنه ابن عذاري في البيان،قسم الموحدين،ص.95-97.

148)- فصاحب المن بالامامة ،المعاصر لأحداث هذه الثورة،لا يشير إلى زعيمها الاول مرزدغ.

149)- البيذق،م س .ص.86.

150)- عبد الواحد المراكشي،المعجب،ص.365.وقع في هذا الخلط كذلك باحث معاصر حيث جعل قيام هذه الثورة في 573هـ/1181م.عبد الرحمان الطيبي،المجتمع بمنطقة الريف قبل الحماية،رسالة دبلوم الدراسات العليا في التاريخ،مرقونة،1992-1993،ج1،ص.54.

151)- ابن أبي زرع،م س ،ص.209.

152)- ابن الاثير ،الكامل في التاريخ،ج9،ص.90،النويري،نهاية الارب،ص.431.

153)- في الوقت الذي تشير معظم المصادر أن تحرك الخليفة"يوسف بن عبد المومن" لم يتم إلا سنة 562هـ/1167م،لاجهاض ثورة غمارة بزعامة سبع بن منخفاد أن كلا من ابن الاثير والنويري،الذي نقل عنه،أشارا إلى أن الخليفة " يوسف بن عبد المومن"توجه مع أخويه عمر وعثمان عام 561هـ/1165-1166 هذا في وقت يشير فيه صاحب روض القرطاس إلى أن القضاء على ثورة مرزدغ تم بعد ارسال جيش من قبل الخليفة،دون أن يشير إلى انه قد ترأسه،ابن الاثير ،الكامل في التاريخ،ج 9،ص.90،النويري،نهاية الارب،ص.431.ابن ابي زرع،روض القرطاس،ص.209-210.

154)- ابن الأثير ،م س ص.90.ابن ابي زرع،روض القرطاس،ص.209.

155)- البيذق،م س ص.86.

156)- ابن ابي زرع م س ص.209.هذا في الوقت الذي لم يقم فيه الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المومن بتركيز نفوذه وسلطته،ذلك أن العملة الاولى التي أصدرها الخليفة المذكور باسمه لا يظهر بها هذا النفوذ حيث اقتصر على ذكر:الامير الاجل أبو يعقوب يوسف بن أمير المؤمنين.وقد تم العثور على نموذج لها تم سكه بمدينة بجاية التي اعترفت بسلطته عام 559هـ/1163م.

LAVOIX(Henri).-Catalogue de monnaies musulmanes de la bibliotheque nationale,Paris,P.300.

157)- ذكر لنا ابن صاحب الصلاة نصا في غاية من الأهمية حول استعدادات الخليفة عبد المومن للقيام بحملة جهادية إلى الاندلس منذ سنة 557هـ/1162م.فقد انبهر هذا المؤرخ بما توفر من أسلحة وخيول وملابس للجيوش الموحدية وغيرها من العرب وغيرهم وكذا ما صنع من سفن أغلبها تم في مرسى المعمورة(المهدية الحالية بالقرب من القنيطرة) إضافة إلى ما تم جمعه من القمح للجيش،وكذا الشعير للعلف،فتوفرت كمية هامة من ذلك حتى قال عنها صاحب المن بالإمامة أنها كأمثال الجبال.غير أن وفاة الخليفة عبد المومن حالت دون تنفيذ هذه الحملة الجهادية إلى الاندلس،بل إن ذلك لم يسمح باستغلال ما تجمع من حبوب التي اصابها التلف وفسدت لبقائها مدة طويلة امتدت من 557هـ/1161-1162م إلى 562هـ/1166-1167.ألا يمكن القول أن قبائل غمارة قد ساهمت في الاستعدادات التي تحدث عنها هذا المصدر ،خصوصا فيما يتعلق بصناعة السفن؟أو على مستوى المساهمة في تجميع تلك الكمية الهائلة من الحبوب ؟بل كان قيام غمارة بالثورة كرد فعل عن هذا الاستغلال؟أم هو رغبة في الهجوم على محلات تخزين هذه الحبوب وغيرها من خيول وأمتعة؟.ابن صاحب الصلاة،المن بالإمامة،ص.147-148.

158)-ابن الأثير م س ج 9ص.90.

159)- ابن صاحب الصلاة،م س ص.198-200.

160)- الادريسي،نزهة المشتاق،ج1،ص.249.

161)- فقد ذكر الادريسي في هذا الصدد إلى تعميرها من قبل مائة رجل اهتموا بزراعة أرضها نظرا لخصوبة تربة المناطق المجاورة لها.
162)- ابن ابي زرع،م س ،ص.209.
163)- ابن أبي زرع،روض القرطاس،ص.210. في حين ذكر الناصري أن ذلك تم في مدينة تازا ويبدو أن صاحب الاستقصا قد وقع له خلط في ذلك خصوصا وأن مصدرا جغرافيا قد سبق وان ربط العلاقة بين مدينة بني تاودا وبلاد غمارة،الناصري،الاستقصا،ج2،ص.147.مجهول ،الاستبصار،ص.190.وكتب ابن ابي زرع بخصوص قيام " مرزدغ"أنه قتل الخلق الكثير في مدينة "بني تاودا".إلا أننا لا يمكن الاخذ كليا بهذه الرواية خصوصا أن المدينة تم تدميرها،كما أنها كانت اثناء اندلاع هذه الثورة لا تزال في الراحل الاولى من إعادة تعميرها.
164)-حول الاهمية التجارية لمدينة فاس يراجع :الادريسي،نزهة المشتاق،ج1،ص.246.
165)- ابن ابي زرع،م س ص.209.
166)- نفسه ن ص.210.غير أن البيدق يروي لنا قصة أخرى حيث يشير الى أن :"مزيزدغ الغماري القائم في واكرارن خرج إليه يوسف بن سليمان وبدد شمله،ثم وحد وأجيز إلى بر الاندلس إلى قرطبة".البيدق،أخبار المهدي،ص.86.
167)- ابن أبي زرع،روض القرطاس،ص.209.الناصري،الاستقصا،ج2،ص.147.وذكر أنه كتب فيها"مرزدغ الغريب،نصر الله عن قريب".
168)- لقد استرشدنا في تحليل هذه المسألة بالمقال القيم للباحث بنسالم حميش "في سيميائية الاستبداد أو ابن خلدون أمام الدولة المغاربية" حيث ذكر في هذا الصدد "فالامير الذي له القدرة على ضرب السكة،أي الذي يتوفر على احتياطي كاف من الذهب والفضة،يعزز سلطته إذ يفرض نفسه كضارب نقود حقيقي ووحيد ويصادق على الدخول في الاقتصاد الرمزي وفي التجارة والتبادل باسم الله وبأمره".د.سالم حميش،في سيميائية الاستبداد،أو ابن خلدون أمام الدولة المغاربية،ضمن كتاب جدلية الدولة والمجتمع بالمغرب،افريقيا الشرق،1992،الطبعة الاولى،الدار البيضاء،ص.179.
169)- LAVOIX(H).op.cit.P300.
170)- انظر مثلا ما جاء في رسالة للخليفة أبي يعقوب يوسف أوردها ابن صاحب الصلاة، م س ،ص.292.
171)- ابن أبي زرع، م س ،ص.209.
172)- نفس المرجع،ص.210.الناصري،الاستقصا،ج2،تحقيق وتعليق الاستاد جعفر الناصري والاستاد محمد الناصري،دار الكتاب،الدار البيضاء،1954،ص.147.
173)- اختلفت المصادر في طريقة كتابة هذا الاسم،فقد ذكره ابن صاحب الصلاة باسم سبع بن منخفاد وذكره البيدق باسم سبع بن منغ فاد بن حيان،وأشار له ابن ابي زرع باسم مرزدغ الغماري الصنهاجي وذكره صاحب المعجب أن اسمه سبع بن حيان،أما ابن خلدون فذكره باسم سبع بن منغفاد،ابن صاحب الصلاة،المن بالإمامة،ص.231،البيدق،أخبار المهدي،ص.86.عبد الواحد المراكشي،المعجب في تلخيص أخبار المغرب،ص.365.ابن ابي زرع،روض القرطاس،ص.209.ابن خلدون،العبر ،ج6،ص.282.
174)- نقصد بذلك استمرارية الحروب ضد نصارى اسبانيا،وكذا تراجع الحاجز الامني الذي كان موجودا خلال الفترة المرابطية على طول بلاد غمارة.فبخصوص الهجومات النصرانية،نشير إلى الحروب التي شنها نصارى قلمرية على مدن غرب الاندلس ما بين 557هـ/1161م و 560هـ/1164م،ثم هجومات نصرانية على اراضي اسلامية أندلسية ما بين 546هـ/1151م و 563هـ/1167م.
انظر ،ابن صاحب الصلاة،المن بالإمامة،ص.283-284 و ص.288-289.
175)- ابن صاحب الصلاة،م س ص. 231و ما بعدها.
176)- نفس المصدر ،ص.231-245.- البيدق،أخبار المهدي،ص.86.- ابن ابي زرع،البيان،قسم الموحدين،ص.94-97.- ابن أبي زرع،روض القرطاس،ص.210.- ابن خلدون،العبر ،ج 6 ص.282.

177)- ابن صاحب الصلاة،م س ص.244.فهذه الرسالة بعث بها الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المومن إلى بلاد العدوتين والاندلس،والنسخة التي قدمها ابن صاحب الصلاة موجهة إلى الطلبة،والموحدين،والشيوخ،والاعيان،والكافة بمدينة غرناطة،وهي من انشاء ابي الحسن بن عياش،ومؤرخة ب 14 شوال سنة 562هـ/3 غشت 1167م.وقد أوردها أحمد عزاوي كذلك ضمن دراسته. أحمد عزاوي،مجموعة جديدة من الرسائل الموحدية،تحقيق ودراسة،رسالة دبلوم الدراسات العليا في التاريخ،مرقونة،1985،القسم الثاني،ص.42-48.

178)- ابن صاحب الصلاة،م س ص.233، هامش.2.

179)- ابن صاحب الصلاة،م س ص.232،ابن عذاري،م س ،قسم الموحدين،ص.95.وقد اعترف ابن الخطيب خلال القرن 8هـ/14م بالاهمية التجارية لقصر كتامة كما أكد على تسلل الغماريين إليه حيث جاء في كتابه معيار الاختيار:"...وطريقه مسلك القافلة،وببابه السوق الحافلة،ينسل إليها من غمارة قرود وفهود وأمة صالح وهود،ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود..."ابن الخطيب،كتاب معيار الإختيار في ذكر المعاهد والديار،تحقيق الدكتور محمد كمال شبانة،مطبعة فضالة،المحمدية،المغرب،دون تاريخ،ص.149-150.

180)- حول أهمية قصر كتامة خلال هذه الفترة،انظر البيان،قسم الموحدين،ص.44،مجهول،الاستبصار،ص.189. حيث يشير هذا الجغرافي إلى ان الموحدين أحدثوا فيه "فندقين عجيبين،وتمدن هذا الموضع،وشرف وقصده التجار واستوطنوه".

181)- حول أهمية الطرق التجارية التي كانت تعبر المجال الغماري خلال الفترة المدروسة يمكن الرجوع إلى :

MASSIGNON (Louis).-Le Maroc, Tableau geographique,Alger,1906,PP.108-109.

182)- يشير أحد الباحثين بأن اهل غمارة يسود عندهم اعتقاد بأن بلادهم قد عرفت احتلالا في القديم من طرف سكان أهل سوس. COLIN(G.S).-Le Parler berbere des gmara,in Hespéris,1929 1. trimestre,PP.46-47

183)- إن النصوص لا تكشف عن ذلك بشكل صريح غير أننا نستنتج من خلال الغنائم التي حصل عليها الموحدون بأنها شملت الأبقار والاغنام والدواب فلا يستبعد أن تكون مما حصل عليه ابن منخفاد في حملاته على المناطق المجاورة.ابن صاحب الصلاة،م س ص.244.

184)- يشير موليراس إلى هذا الجبل باسم تزاران "Djebel TAZARAN" ،ويذكر بأنه جبل المنظر الجميل كما يسمى جبل الكواكب،لأن قممه تبدو وكأنها تلامس النجوم وذكر موليراس بأن بعض المغاربة كانوا ينطقون اسم هذا الجبل بتيزيران"TIZIRAN" ..MOULIERAS,op.cit.p.347.

185)- إن وعورة ومناعة هذا الجبل اعتبرها أحد الباحثين أنها من العوامل التي أدت إلى استمرارية اللسان البربري في غمارة الحالية.

COLIN (G.S).-op.cit.P.50.

186)- ابن صاحب الصلاة،م س ص .238. أحمد عزاوي،مجموعة جديدة من الرسائل الموحدية،القسم الثاني،ص.45.

187)- ابن صاحب الصلاة،م س ص.239.

188)- نفسه.

189)- نفسه ،ص.235.

190)- نفسه.

191)- نفسه ،ص.235.

192)- نفسه.

193)- نفسه.

194)- "...وآثارهم ما آثرناه من راحة الموحدين واجماعهم،وتفرعهم لوظايف صيامهم وقيامهم،وأن يكون غزوهم بعد الفطر على قوة ووفرة،ونشاط متمكن ...".ابن صاحب الصلاة،م س ص.237.

195)- ابن صاحب الصلاة،م س ص.237.

196)- نفس المصدر والصفحة.
197)- هو المعروف حاليا بالقصر الكبير ويحمل اسم قصر صنهاجة وقصر عبد الكريم الذي يقول عنه الذكتور عبد الهادي التازي أنه أحد أشياخ كتامة الذين بنوا قصرا لأول مرة.ابن صاحب الصلاة،م س ص.232. وكذا هامش،رقم 1.وقد جاءت هذه المعلومات التي ذكرها عبد الهادي التازي عند أحد الجغرافيين خلال ق6هـ/12م.انظر مجهول،الاستبصار،ص.189.
198)- ابن صاحب الصلاة،م س ص.237-238.
199)- نفس المصدر،ص.233 و ص.243.
200)- نفسه ،ص.243.
201)- "وسعوا في إحراز دمائهم وأموالهم،وتسويغ برد العافية لهم،وكل من قرع هذا الباب فهو له مفتوح،ومن استمنحه،فهو على عوايده مبذول ممنوح..".ابن صاحب الصلاة، م س ص.242.
202)- ابن صاحب الصلاة،م س ص.240.
203)- نفسه،ص.241.
204)- نفس المصدر ،ص.242.
205)- نفسه،ص.242.
206)- مجهول ،الاستبصار ،ص.190.
207)- لعل ذلك ما جعلنا نتعرف على حادث انتفاضة غمارة على عهد علي بن يوسف أثناء وجود ابن تومرت في فاس حيث ارتبط الحدث بتنقل الجيوش المرابطية إلى غمارة بزعامة أبي عمر.
208)- فقد ذكر الخليفة أبو يعقوب يوسف في هذا الصدد: "...ونراه من الاهم الاعنى،والاول الأولى،قياما بحق الله في جهاد أعدائها ومكابري مناويها..." كما ذكر في موضع آخر "ورأينا في اثناء ما نحاوله من مروم هذه الغزوة الميمنة المباشر أن نقدم بين أيدينا عسكرا مباركا من الموحدين..يكون تقدمه لجواز جمهور الموحدين ومؤذنا بما عزمنا عليه-والله المستعان-من التحرك يجملة أهل التوحيد والقصد لهذا الغزو الميمون الذي جعلناه نصب العين،وتجاه الخاطر..." وذكر كذلك " وما زلنا وفقكم الله على اتمام العناية بتلكم الجزيرة مهدها الله والحرص على تموينها،والإنتواء لنصرتها،والعمل على قصد ذلك بالمباشرة والمشاهدة" ابن صاحب الصلاة،م س ص.293-294.
209)- ابن صاحب الصلاة،م س ص.240
210)- فقد تم في هذا الاطار تعيين السيد أبي علي الحسن أخ الخليفة يوسف بن عبد المومن على ولاية سبتة وسائر بلاد غمارة،ابن خلدون،العبر،ج6،ص.283.
211)- ابن صاحب الصلاة،م س ص.243.
212)- نفس المصدر،ص.244.
213)- حيث تسمى بأمير المؤمنين منذ سنة 563هـ/1167م،ابن صاحب الصلاة،م س ص.258.كما يمكن مقارنة عمليتين الاولى في بجاية والثانية في اشبيلية باسم الخليفة أبي يعقوب يوسف،الاولى فيها الأمير الاجل والثانية أمير المؤمنين.

LAVOIX (H).op.cit.P300-301.

214)-ابن صاحب الصلاة،م س ص.293.
215)- نفس المصدر، ص .290.
216)- خصوصا وان عملية الجهاد تتطلب مساهمة الرجال والمشاركة في بناء السفن وتقديم الأموال.
217)- امتدت فترة حكم هذا الخليفة الموحدي من ربيع اول 595هـ/1199م إلى شعبان 610هـ/1213م.
218)- غير أن رواية متأخرة أوردها ابن القاضي في جذوة الاقتباس (من960 هـ-1025هـ)أشارت إلى ان ثورة حدثت مع بداية حكم الخليفة الناصر لم يتم ذكرها في المصادر الوسيطية.الشيء الذي دفعنا إلى التحفظ في ذكرها ضمن أشكال التمرد بمنطقة غمارة واخذ هذه الرواية عن ابن القاضي صاحب الاستقصا ثم مؤرخ آخر خلال القرن العشرين وهو أبو عبد الله محمد البزيوي حيث جاء في كتابه "تاريخ دول الاسلام بالمغرب الاقصى" ما يلي: "...ولما توفي يعقوب بن يوسف بويع بالخلافة على المغرب وافريقية

والاندلس ابنه محمد بن يعقوب،ولقب الناصر لدين الله،وثار عليه لأول ولايته علودان الغماري بجبال غمارة فسار أمير المؤمنين محمد بن يعقوب اليه وفتح جبال غمارة وأخذها من يد هذا المغتصب ثم رجع إلى مراكش.فحسب هذه الرواية لم تتم الاشارة إلى مقتل هذا الثائر،وإنما اكتفت بذكر القضاء على الثورة من خلال استرجاع الخليفة سلطته على هذه الجبال.فإذا ما جاز لنا الاخذ بمعطيات هذا النص يبدو أن الثورة لم تكن لها خطورة كبيرة رغم أن الخليفة الناصر هو الذي تولى إجهاضها،والامر لا يعدو أن يكون إلا محاولة للتملص من اداء الضرائب فكان قيام علودان وسيلة لتحقيق هذه الرغبة.ولعل ما يمكن الاستدلال به من خلال هذا النص هو توظيف مصطلح فتح مما يعني أن المنطقة هيمنت عليها سلطة الدولة من جديد،وأن أداء الضرائب مظهرا من مظاهر هذه الهيمنة والخضوع،كما أن ورود مصطلح "المغتصب" كإشارة للثائر تدل على الرغبة في الاستئثار بمداخيل هذه المنطقة من قبل هذا المتمرد وجماعته الغمارية،ابن القاضي/ جذوة الاقتباس،القسم الاول،دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط،1973،الناصري،الاستقصا،ج2،ص.214،أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله البزيوي،تاريخ دول الاسلام بالمغرب الاقصى،مخطوط الخزانة الحسنية،رقم 413،ص.60.

219)-ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص.271.

220)- ابن ابي زرع،الذخيرة،ص.38.

221)- نفس المصدر،ص.38.

222)- نفس المصدر والصفحة.غير أنه في اعتقادنا يصعب الاخذ بهذه الرواية التي جعلت من جميع قبائل المغرب أتباعا لدعوة العبيدي.فلا ندري،من خلال المصادر المتوفرة،كيف يتمكن المؤرخ في تلك المرحلة الوسيطية من قياس مدى تبعية قبائل المغرب كلها كلها لهذا الثائر خصوصا وأن وسائل الاتصال كانت صعبة،إضافة أن فترة قيام هذا الثائر،حسب اشارات الجزنائي وصاحب الذخيرة والقرطاس وابن أبي زرع،دامت فترة قصيرة؟.علي الجزنائي،جني زهرة الآس،طبعة الرباط،1967،ص.43.

223)- ابن عذاري،البيان المغرب،قسم الموحدين،ص.239.

224)- قامت هذه الفتنة عام 599هـ/1203م حيث ذكر صاحب البيان "ووصلت الانباء بالفتنة المشتعلة بأكثر جهات افريقية وكثر عن العرب اشاعة المكروه والمجاهرة من السيئات،فأنف الناصر من سماعها واشاعتها".ابن عذاري،البيان،قسم الموحدين،ص.242.

225)- ابن عذاري،ص.239-248،عبد الواحد المراكشي ،المعجب،ص.451-452.

226)- يشير ابن عذاري على أنه سنة 604هـ/1207م ازدحمت على باب الخليفة قبائل من اقطار مدينة فاس وأخلاط من الناس مشتكين بعامل فاس وبعامل مكناسة فنكبا جميعا واستصفى ما وجد لهما من أحوال وأثاث وأموال وبقي كل منهما محبوسا في بلد عمله ،ابن عذاري،البيان،قسم الموحدين،ص.249.

227)- ابن ابي زرع،الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية،دار المنصور للطباعة والوراقة،الرباط،1972،ص.38.

228)- ابن عذاري،البيان،قسم الموحدين،ص.259.

229)- نقصد بذلك العمال والقائمين على شؤون المخزن في منطقة بلاد غمارة.

230)-.إن اهتمام الناصر بالمشاريع العمرانية بمدينة فاس قد فرض على ما يبدو على المسؤولين مضاعفة مداخيل خزينة الدولة الضريبية،ولا يستبعد ان تكون المناطق المجاورة لفاس هي المستهدفة بالدرجة الاولى من هذه العملية مما جعل جبال ورغة تكون منطلقا للثورة قبل انتشارها في بلاد غمارة.ومن بين هذه المشاريع نذكر إتمام اعادة بناء الاسوار التي بدأ بإنجازها الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور.كما أشار صاحب الدولة المشتبكة في ضوابط دار السكة الى بنائه لدار السكة بفاس.انظر حول هذه المشاريع وغيرها على عهد الناصر بفاس:الجزنائي،جني زهرة الآس،ص.43-44 و 92-93،أبو الحسن علي بن يوسف الحكيم،الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة،تحقيق حسين مؤنس،مطبعة الدراسات الاسلامية مدريد،1960،ص.51.

231)- فقد أشار صاحب المقصد الشريف إلى أحد المتصوفة،بمنطقة بلاد غمارة يعرف باسم "أبي دادو مزاحم "،أرسل من وراءه الخليفة "أبو يعقوب يوسف بن عبد المومن " إلى مراكش تبركا به لإزالة مرض

ألم به،فكان علاجه على يديه.وهذا ما يفسر اهتمام الموحدين بهذه المنطقة على مستوى تتبع أخبار زهادها أو الافراد الذين يتميزون عن باقي فئات المجتمع الغماري سواء أصحاب الكهانة والسحر أو الزهد والتصوف.البادسي،المقصد الشريف،ص.53-54.

232)- ابن أبي زرع،الذخيرة،ص.38.

233)- يذكر الجزنائي عن هذا الباب أنه "يدخلها الفارس بالعلم ولا ينثني الرمح لارتفاعها.وسميت باب المحروق من أجل أن العبيدي القائم بجبال ورغة لما أن ظفر به وقتل علق رأسه على باب الشريعة المذكورة واحرق جسده في وسطها وذلك يوم ركبت مصارعها بأمر الامير محمد الناصر بن المنصور سنة ستمائة".علي الجزنائي،جني زهرة الآس،طبعة 1967،ص.43وحول باب الشريعة بفاس وعلاقته بحادث هذه الثورة انظر:

PROVENCAL (E.L). -Islam d'occident « Etudes d'Histoire mediévale »,G.P.Maisonneuve et Cie,Paris,1948,PP.55-56 .

234)- الجزنائي،م س ص.43.

235)- ابن ابي زرع،م س ص.272.

236)- حول معركة العقاب،انظر: عبد الواحد المراكشي،المعجب،ص.456-458 ،ابن ابي زرع ،روض القرطاس،ص.238-241،ابن عذاري،البيان،قسم الموحدين،ص.263-265.

237)- نقصد بذلك مرحلة الصراع الاموي الفاطمي بالمغرب الاقصى خلال ق 4 هـ/10.

أيام دراسية حول البدع والنحل في تاريخ المغرب بكلية الآداب -عين الشق-

ذ.نوال متزكي

تأسست "مجموعة الابحاث حول التاريخ الديني" في موسم 1988-1989،بكليـة الآداب والعلوم الانسانية -عين الشق- الدار البيضاء،وحددت أهدافها فـي "خلق إطار مناسب وقار لعمل الاساتذة الباحثين المهتمين بالتاريخ الديني المغربي،كما اقترحت لعملها برنامجا أوليا اختصرت مسعاه في توفير المعطيات الضرورية للبحث في ميدان التاريخ الديني المغربي،وصياغة برنامج ابحاث يحدد المحاور والاشكاليات الاساسية لهذا التاريخ.

ومنذ تأسيسها نظمت المجموعة،عددا من اللقاءات العلمية في شكل أيام دراسية،وقراءات في كتب لها علاقة بموضوع الاهتمام،وأيام دراسية حول اشكالية أو موضوع رئيسي.وفي سياق هذا النشاط نظمت يومي 11/10 دجنبر 1998 لقاء حول موضوع « البدع والنحل في تاريخ المغرب » ،بمشاركة مهتمين من عدد من الكليات المغربية.

توزع اللقاء بين ثلاث جلسات انتقلت بين دراسات عامة،ونصوص،وقضايا.فتناول الاستاذ محمد فتحة من كلية الآداب عين الشق دراسة "عن البدعة في التراث الفقهي بالغرب الاسلامي " ركز فيها على نقطتين هما:موقف الفقهاء من البدع والانحرافات التي طالت الصوفية،وردود فعل من داخل التيار الصوفي.ومن خلال هاتين النقطتين،عالج مسائل مثل الكرامات،والامتيازات التي حضي بها المتصوفة،وأنواع البدع في الممارسات الصوفية.وكذا موقف الفقهاء من سلوك المتصوفة،من خلال عدد من الفتاوي المناهضة والفتاوي المتسامحة نسبيا،كما تناول بعض ردود الفعل من داخل التيار الصوفي نفسه من خلال رسائل ابن عباد،وعدة المريد الصادق للشيخ زروق،فبين دفاع الاول عن تصوف يقرن العمل بالعلم،والجرد الذي قام به الثاني لأنواع السلوك المعروفة أثناء وقته،وما يمكن استنتاجه من

أستاذة باحثة بكلية الآداب -عين الشق - الدار البيضاء

أن الطوائف بدأت ترسي في ذلك الوقت تنظيمها وطقوسها مؤسسة لبداية الطرقية بالمغرب،وكاستنتاج عام لاحظ الاستاذ فتحة أن الاختلاف بين الفقهاء ورجال الصوفية بالغرب الاسلامي في العصر الوسيط تجاوز أمور العقيدة والسلوك إلى صراع اجتماعي بين السلطة السياسية،وسلطة لها طموح نحو الرياسة.وتناول الاستاذ ياسر الهلالي،وهو باحث من مكناس:"البدع في المغرب الاقصى أواخر العصر الوسيط"فقدم جردا لعدد من المؤلفات التي ظهرت بالمغرب في القرنين الثامن والتاسع،حول البدع،واهداف تلك المؤلفات ،كما حلل خطابها بإظهار توابت ذلك الخطاب،ونقله عن بعضه،ونهجه نهج المواجهة والمصارحة ازاء الحكام والسلاطين ونهج النصيحة والتحسر ازاء الوضع الداخلي.وحول طبيعة المؤلفات حول البدع،أشار الاستاذ إلى ما يطرحه الأمر من مشاكل أمام المؤرخ من خلال طبيعتها الفقهية،ووظائفها ونقط الالتقاء بينها وبين كتب المناقب وكتب النوازل،ليخلص إلى خلاصة مفادها أن اعتماد المؤرخ على كتب البدع هو من قبيل المجازفة والمغامرة التي مازالت بحاجة إلى تأطير منهجي.أما الاستاذ عبد الله نجمي،من كلية الآداب بالرباط،فقدم دراسة عن "البدع والمجتمع في المغرب خلال العصر الحديث"،فأبرز الصولة التي تحققت للتصوف ورجاله بالمغرب في الفترة الحديثة،وانتشار الزوايا.مركزا على الطريقة الجزولية،وانتشارها ببوادي المغرب وحواضره،ورفعها شعار التوبة والاقلاع عن الذنوب.ومعاداتها الفقهاء، معرجا عن ظهور البدعة في أوساط هذه الطريقة من خادرية،ومهدوية،والمنحنى الجديد الذي عرفته الشادلية على يد المغيطي تلميذ الجزولي،وكذا رسم الزروقية لوجهتها المغربية على يد الشيخ أحمد بن يوسف الراشدي الملياني،كما بين كيف اصبحت الشادلية الطريقة الكبرى الثانية بالمغرب إلى جانب الجزولية،وكيف كانت الزروقية والراشدية أخطر الطوائف البدعية في ذلك العصر،وكيف تمت مواجهتها على يد الوطاسيين والسعديين والعلويين.

وفي الجلسة الثانية ، التي اختيرت لها بعض النصوص موضوعا.وضع الاستاذ حسن حافظي علوي ،من كلية الآداب مراكش،تقديما وتحقيقا لنص عن البدع لمحمد بن يوسف السنوسي عنوانه " نصرة الفقير في الرد على أبي الحسن الصغير "،فعرف بالنص ومؤلفه وبمحتوى ومنهج رسالة أبي الحسن الصغير والمنهج الذي رد به السنوسي.كما لاحظ أن البدع المثارة في النص ليست وليدة زمان أبي الحسن الصغير ولا زمان السنوسي،وإنما هي بدع تعود إلى زمان أبعد بمدة طويلة.واستخلص الاستاذ من دراسته أن ما اعتبر بدعة عند أهل الظاهر،ليس كذلك عند اهل الباطن،وأن السنوسي في رده حاول توضيح أن ما كتبه أبي الحسن الصغير كان بايعاز من السلطان.وتناول الاستاذ عبد الخالق أحمدون،من كلية الحقوق بطنجة، "البدع ببادية الشمال من خلال نوازل الزياتي"،فقدم مدخلا جرد فيه مجموعة من كتب البدع،وبعض البدع التي كانت أشد انتشارا،ثم عرف بالبدعة وموقف الشرع منها،ولتوضيح عرضه أشار إلى أن مناطق جبال غمارة عرفت خلال القرن التاسع والعاشر الهجري عددا من الظواهر الاجتماعية السلبية المتناقضة مع مبادئ الشريعة الاسلامية،وهذه الظواهر هي التي صنفها الفقهاء بدعا كما فعل الفقيه الزياتي والفقيه الهبطي، ومن خلال الدعوة الاصلاحية التي تزعمها هذان الفقيهان وحملتهما ضد البدع لاحظ الاستاذ عدم وجود أي اشارة في نوازل الزياتي إلى انواع البدع التي استعرضها الهبطي،واستخلص

في نهاية عرضه أن ما يهم المؤرخ ليس البدعة في حد ذاتها،وإنما العوامل التي تفرزها،وهذا ما يجعل المهمة صعبة.أما الاستاذ محمد مكاوي،من كلية الآداب الجديدة،فتتبع " موقف الناصري من البدع من خلال مؤلفه تنظيم المنة بنصرة السنة »،حيث اعتبر هذا الكتاب من ابرز الكتابات المؤلفة حول البدع في القرن التاسع عشر،واكثرها شمولية ومناهضة وبين أسباب تاليفه كما وضحها مؤلفه.وحول مضمون الكتاب أبرز الاستاذ أهم البدع التي استنكرها الناصري،وكيف أنه لم يتعرض من خلالها بالنقد لكرامات الاولياء والصالحين انسجاما مع انتمائه الطرقي.وتعرضت الاستاذة الشادلي بهيجة،من كلية الآداب عين الشق،لرسالة مصلح سوداني تصدى للبدع بالمغرب،مستهلة حديثها بتاطير الرسالة في الزمان والمكان،وهو فترة حكم السلطان مولاي سليمان التي عرفت حركة واضحة لمحاربة البدع،بموازاة حركة شبيهة بافريقيا جنوب الصحراءأفرزت عددا من المصلحين، من بينهم الشخص المقصود في العرض،وبعد التعريف بهذا المصلح السوداني،تناولت الاستاذة مضمون رسالته ومجمل البدع التي تحدث عنها،وختمت بتساؤل حول ما إذا كان لهذه الرسالة وقع لدى السلطان المولى سليمان الذي وجهت له.

أما الجلسة الثالثة فتعرضت عروضها لبعض القضايا،حيث قدم الاستاذ لطفي بوشنتوف،من كلية الآداب عين الشق،مداخلة حول " الطائفة الاندلسية،نزعة الاختلاف وتهمة البدعة"فبين أن مفهوم البدعة كما استعمل في حق الطائفة المقصودة يعني الاختلاف عن المرجعية السائدة أي المالكية،ولا علاقة له بالتصوف ولا بالانحراف،حيث المتهم بالبدعة هنا هو فئة من العلماء.ولتوضيح هذا الامر عرف الاستاذ بتعاليم الطائفة الاندلسية وبعض المواقف منها واهم المؤلفات التي ألفت في حقها متسائلا في نهاية عرضه حول المرجعية المعرفية لهذه الطائفة،وردود الفعل التي أثارتها في الفضاء المعرفي في العهد السعدي،وعلاقة الطائفة بالوسط السياسي من خلال موقفها من الصراع بين المتوكل وعبد المالك.وتناول الاستاذ أحمد الوارث،من كلية الآداب بالجديدة، "البدعة في التصوف الناصري "،فأعطى نبذة عن الزاوية الناصرية،ووزعها بين ناصريتين إحداهما تجنبت البدعة والثانية سقطت فيها.فبين كيف انبثق الفصيل الثاني عن الاول وأحدث الاختلاف،والخلاف بين الناصرية الام والناصريين " الجدد "،كما بسط بعض البدع التي عرفت بها الناصرية المبتدعة،وختم عرضه بالحديث عن بعض التاثيرات التي وصلت الزاوية الام من الزاوية الفرع لتسود البدعة الزاوية الناصرية باكملها.أما الاستاذ محمد العيادي،من كلية الآداب عين الشق فعالج موضوع"البدعة بين الاختلاف:دراسة في نماذج من المحاكمات العقائدية"،حيث صنف مصطلح البدعة مصطلحا جدليا جعل من المحاكمات العقائدية دليلا على مدى الصراع الفكري في تاريخ المغرب،ولتوضيح الأمر اختار نموذج محاكمتين احداهما في نهاية القرن الثامن عشر،كان المتهم فيها هم درقاوة الشمال والفقيه ابن عجيبة،وانتهت بالتنكيل بالزاوية الدرقاوية،والثانية وقعت في نهاية القرن التاسع عشر،كان المتهم فيها هو محمد بن عبد الكبير الكتاني.وبعد تتبع ملابسات المحاكمتين ونتائجهما استخلص الاستاذ أن البدعة في النموذجين كانت أساسا للصراع بين متنافسين في الحقل الديني أكثر مما كانت ذات علاقة بالسلوك.وتناول الاستاذ حميد حماني ،من كلية الآداب عين الشق،"فرقة سجلماسة المبتدعة من خلال كتاب:مشرب العام والخاص من كلمة "الاخلاص"

لليوسي"،فعرف بالكتاب المقصود،واسباب تأليفه،ومذهب صاحب الكتاب.كما عرف بفرقة سجلماسة المبتدعة وارتباطها بالفتنة التي عرفتها سجلماسة في العهد السعدي،وابرز موقف اليوسي من الفتاوي التي أصدرها ابن أبي محلي ليختم عرضه بتساؤلات حول علاقة حركة أبن ابي محلي وفكرة المهدوية.

وقد أعقبت عروض جلسات الندوة مناقشات أثارت تساؤلات مهمة،واتفقت على أهمية الموضوع،وعلى ضرورة العودة إليه نظرا لما يحمل بين طياته من اشكالات تستحق وقفات متعددة.

قراءة في كتاب الأستاذ زرهوني محمد
العلاقات بين السلطة والسكان بطرفي الأطلس الكبير الغربي
في أعوام الستينات من القرن التاسع عشر

ذ. نوال متزكي*

موضوع الكتاب الذي نحن بصدد تقديمه هو: العلاقات بين السلطة والسكان بطرفي الأطلس الكبير الغربي في أعوام الستينات من القرن التاسع عشر،للأستاذ محمد زرهوني،وهو كتاب من الحجم الكبير،صدر عن منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة الحسن الثاني عين الشق سنة 1998.وأصل هذا العمل رسالة نال بها صاحبها دبلوم الدراسات العليا في التاريخ بكلية الآداب – الرباط.

يضم الكتاب 569 صفحة، موزعة بين مقدمة وخاتمة وخمسة فصول،إضافة إلى مجموعة من الخرائط المعززة للعمل،وملحق يضم نماذج من الوثائق المعتمدة،وثلاث فهارس للأعلام البشرية وأسماء القبائل و الفرق وأسماء الأماكن والبلدان.

لقد حفر الأستاذ الزرهوني على المادة الخام التي اعتمد عليها في موضوعه بين ثنايا مجموعة من الأصول على رأسها الوثائق الرسمية المخزنية التي شكلت العمود الفقري للعمل،والكتابات العامة،وبعض الكتابات الأجنبية ثم الرواية الشفوية في عين المكان.وأطر المادة الخام التي جمعها بمنهج توخى البحث في دور العامل الاقتصادي في تحديد العلاقات الاجتماعية والعلاقات مع السلطة معتمدا فرضية نمط – الإنتاج الشتات- وهو نمط عرفه بأنه يعتمد على مشاركة الأغلبية في الإنتاج ضمن وضعية تقنية موروثة كما أن إنتاجه يتوجه أساسا نحو الاستهلاك المحلي،بما يعنيه ذلك من انعكاس على ميادين التبادل والمقاييس والعملة والتنظيم الاجتماعي والقانوني.

حدد الأستاذ زرهوني المجال المكاني لدراسته -رغم صعوبة التحديد- في مجموعة من القبائل الممتدة عبر سفحي الأطلس الكبير الغربي،بينما اقتصر في المجال الزمني على عشر سنوات من سنة 1863 إلى سنة 1873،وهما تاريخان يؤرخان لتنقلات السلطة المركزية الى سوس والى حاحا بمعنى أن صاحب البحث تتبع مجتمع المنطقة وتحولاته بين حركتين ومبرر تحديد هذه الفترة في نظره يتوزع بين ما هو عام يخص وضع المغرب إزاء التنافس.

---

* أستاذة باحثة كلية الآداب - عين الشق- الدار البيضاء

الإمبريالي،وما هو خاص يتعلق بالمخزن المغربي والوضعية الاجتماعية والاقتصادية الموسومة بعدة سمات منها: المجاعة وانعكاساتها على المنطقة.

اهتم الأوربيون في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين،بدراسة المجتمع المغربي خصوصا منه مجتمع البادية ، للكشف عن مجموعة من السلبيات في علاقة هذا المجتمع بذاته ، وفي علاقته بالمخزن المركزي ، لتقديمها كمبرر للاحتلال ومحاولات الاحتلال. وفي هذا السياق خرجوا بمجموعة من الأحكام المسبقة إزاء هذا المجتمع وهي أحكام ردت عليها المدرسة التاريخية المغربية الوطنية منذ بداية الاستقلال ، حيث أنجزت أعمالا في أغلبها عبارة عن مونوغرافيات اختصت في البحث في تاريخ جهة معينة أو قبيلة معينة من أجل كشف دقيق لتاريخ الجهة أو القبيلة وعلاقاتها بالسلطة المركزية وتهييء مادة علمية ضرورية في أفق كتابة تاريخ تركيبي شامل للمغرب.ولاشك أن عمل الأستاذ زرهوني لايخرج عن هذا السياق ، فحتى وإن كان لا يطرح بوضوح إشكالية الموضوع، فسرعان ما يدركها القارئ بين ثنايا العمل.فدوافع الدراسة –كما يبدو- من خلال قراءتها محاولة اكتشاف الأسس العميقة لدراسة المجتمع من خلال تتبع تجاذب الالتحام والتنافر بين أفراده ومكوناته ومن خلال علاقته بالسلطة المركزية.

قدم الأستاذ صعوبة تحديد المنطقة المدروسة بشكل مضبوط وصعوبة الالتزام بسفحي الاطلس الشمالي والجنوبي ، نظرا لامتداد العلاقات نحو السهل ، واعتبر آسف المال حدا بين تجمعين كبيرين شرقه وغربه ، واعتمد في هذا التحديد مجموعة من الوثائق المخزنية. كما تحدث عن غنى التشكيل التضاريسي والمناخي للمنطقة وما يقدمه من شروط مساعدة للحياة. أما حول الاستقرار البشري بالمنطقة فأعاده إلى فترات عميقة في القدم ، مشيرا الى أن السكان الذين عمروا المنطقة ينتمون في إطار التقسيمات السكانية الامازيغية الى المصامدة ، ومن القبائل التي تمثل هؤلاء: مزوضة، نفيفة، حاحا، ركراكة، على السفح الشمالي الغربي، سكساوة، ايدو ومحمود بالمنطقة الداخلية،ودمسيرة على الممر الكبير شمالا، وايداوزيكي على نفس الممر جنوبا، ومسكينة ورغيثة على السفوح من البحر إلى الشرق.وفي سياق الاهتمام بخريطة تاريخية سكانية للمنطقة، رصد الاستاذ زرهوني ظهور مجموعة من القبائل إلى جانب القبائل القديمة في فترات تاريخية مختلفة مثل قبيلة دويران، ومتوكة.كما تتبع مجتمع المنطقة في التعاقب التاريخي، فأكد على التعامل الخارجي للمنطقة في عهد ما قبل الإسلام ودور جزيرة الصويرة في ذلك،والحضور المستمر للمنطقة في التغيير الذي وقع منذ الفتح الإسلامي وما لعبته من أدوار في عهد الإمبراطورية المغربية مع المرابطين والموحدين والمرينيين، وكذا التحولات التي وقعت من القرن الخامس عشر إلى الستينات من القرن التاسع عشر، والتي واكبت الهجمة البرتغالية وتنظيم المقاومة، والانزواء الذي وقع بعد ذلك حتى منتصف القرن الثامن عشر، ثم إعادة المنطقة لاشعاعها بعد إنشاء الصويرة. وقد علل الأستاذ هذا التتبع الجغرافي والتاريخي بكونه من مقتضيات ظروف تناول القضايا المرتبطة بالعلاقات السكانية مع بعضها، ومع السلطة باعتبارها نتاج تعامل بشري مع الطبيعة وقد أخذت هذه الفرشة الجغرافية والتاريخية حوالي مائة صفحة من الكتاب.

وشكل الفصل الثالث البداية الفعلية للدراسة حيث أفرده الأستاذ الباحث للحديث عن حركة المولاي الحسن خليفة السلطان مولاي محمد بن عبد الرحمان الى سوس سنة 1964-1963، والتي انطلقت من مراكش الى سوس عبر الطريق المار بمنخفض الأطلس الكبير الغربي، وعادت من نفس الطريق. وبما أن المنطقة المدروسة كانت طرفا في التعامل مع هذه الحركة، فقد أولت الدراسة أهمية لتموين المحلة وبعض الماجريات التي رافقتها.وكان هدف هذه الحركة هو جمع الأموال عن طريق جمع الضرائب والعطاءات المعروفة بالملاقاة والهدايا. وقد دفع هذا بالأستاذ إلى الاهتمام بمساهمة قبائل المنطقة المدروسة في هذا الجانب، وخرج بخلاصات لاحظ فيها مشاركة كل القبائل والمدن في أداء الواجب الذي فرضته الظروف العامة، وجعلت منه عمل تعبئة. ومشاركة كل التشكيلات السكانية والسلطوية في العطاءات مصنفا ذلك ضمن العوائد التي اكتسبت شرعية اجتماعية. كما حاول الاستاذ رصد تطلعات الحركة في مختلف جوانبها الماوراء اقتصادية ومنها التطلعات السياسية، فأعطى صورة عن وضع جماعات المنطقة المدروسة وعلاقاتها بالسلطة وتوصل إلى مجمل فحواه أن السلطة حاولت انهاء بعض المشاكل بالمنطقة مركزة عما يتعلق منها بالأمور الخارجية مؤكدا أساسا على تثبيت الموالاة المعنوية لهذه القبائل استنادا إلى نهجها مع كل الأطراف النائية الشبه مستقلة منذ توالي أزمات النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وحول التطلعات الاجتماعية أشار الأستاذ الى أن هذه الحركة أدت الى نوع من الاضطراب الاجتماعي بسبب مسها جوانب ترتبط بعوامل الإنتاج الاقتصادي، وأثارت أساسا مشكلا يتعلق بالهيئة الزنجية، واستخلص من تتبعه للأحداث أن ظهور الاضطراب الذي خلقه المس بالبنية الانتاجية للمنطقة وهو مرتبط في حد ذاته بحساسية هذه البنية. أما بخصوص التطلعات الاقتصادية للمحلة، فأكدت الدراسة على حماية الكتلة النقدية وتشجيع بعض مبادرات التنقيب عن المعادن. وكخلاصة عامة حول هذه الحركة، لاحظ الأستاذ أن ظروفها كانت سلمية وأنها بينت عددا من الروابط بين السلطة المركزية والسكان، وأظهرت كيف كانت كل قبيلة أو قوى محلية تدافع أساسا عن مصالحها وكيف أن تنازلاتها لا تتم بسهولة. كما بين كيف أن السلطة رغم تشبثها بتحقيق أهدافها من هذه الحركة كانت لا تتورع عن التراجع أمام مشكلة من المشاكل، وعن توضيح أن غايتها الاساسية هي الوقوف عند مرامي جبائية، أما أمور التنظيم الدقيق للسكان فعبرت إزاءه بأنها ستترك أمره لأهل المنطقة.

ويبدو أن الفصل الرابع من الدراسة هو صلب موضوعها. حيث استغرق أكثر من مائتي صفحة من المجموع – من ص171-الى ص364-، إذ تناول مضمونه عمق ما تصبو إليه الدراسة، أي مسألة العلاقات بين السلطة والسكان في المنطقة. فحول التنظيم السلطوي لمنطقة طرفي الأطلس الكبير الغربي في الستينات من القرن التاسع عشر، انطلق الأستاذ من اعتبار التنظيم السلطوي الاقليمي إطارا متمما للتنظيم السلطوي المركزي للدولة، وجهازا تنعكس عليه قرارات السلطة مع ما يتبع ذلك من خصوصيات محلية تتحكم فيها مختلف الظروف، ولتوضيح ذلك من خلال نموذج موضوع الدراسة تناول الأستاذ الإشكاليات التنظيمية للقيادات، فأثار مكانة عبد الله أبهي وقضية سجن المتوكي ثم اطلاق سراحه، وتعيين قائد جديد مكانه بعد وفاته وتنحية عبد الله أبهي عن قيادة حاحا، وقدرة أسرة المتوكي على استعادة نفوذها بقيادة عمر الذي زكته السلطة المركزية، كما عرج الأستاذ على

التغييرات القيادية التي عرفتها مزوطة واولاد أبي السباع مركزا على أن تزكية التولية من خلال كل هذه النماذج اعتمدت عاملين هما : رضا الجيران والرضا العام. كما تتبع الأستاذ أشكال الصراع داخل الأجهزة التنفيذية المحلية ومحاولات توسيع القيادات لنفوذها الترابي على حساب بعضها.ومن النماذج التي طرحتها الدراسة في هذه النقطة نموذج قيادة متوكة التي كانت آمالها باستمرار هي توسيع دائرة نفوذها واستغلال كل الظروف المواتية لتحقيق ذلك الغرض.فكانت تستغل تنحية قائد من القواد للتوسع على حساب مجاله، كما كانت تستغل كل سوء تفاهم بين السلطة المركزية والسلطة المحلية في جهة من المنطقة للركوب عليه من أجل التوسع.وقد أبرز الأستاذ من خلال بعض النماذج أن التوسعات في المجال لم تكن بالأمور السهلة، كما أثبت أن التوسعات كانت أحيانا تتم بموافقة السلطة المركزية.

إلى جانب هذه الإشكال أثارت الدراسة مركز الشيوخ ودورهم في الوساطة بين السلطة المركزية والسكان، فأفشت بعض تحليلات وتأويلات روبير مونطان حول مؤسسة المشيخة،واستنتج الأستاذ أهمية هذه المؤسسة في النسيج الاجتماعي السلطوي وفي ضبط العلاقات بين السكان والسلطات العليا، مستندا الى أمثلة شيوخ المنطقة خلال القرن التاسع عشر، الذين كانوا تابعين للقائد ابراهيم بن سعيد الأجراوي الذي كان مقيما في مراكش. ومن خلال عدة نماذج لأحداث وقعت، استخلص الأستاذ أن تصرفات الشيوخ بالسفح الشمالي للأطلس لم تخضع لمراقبة العامل وحده، وإنما كانت السلطة المركزية توجه تصرفه اتجاهها. وأن الشيخ في السفح الجنوبي للأطلس وسوس لم يكن أداة للعامل وإنما واسطة بينه وبين السكان، والقائم باختصاصات العامل المحلية، مما جعله يبدو في درجة مشابهة له شبه مستقل عنه،خاصة وأن تعيينه كان يتم مباشرة من السلطان.وكخلاصة عامة حول هذه المؤسسة ومكانتها، استنتجت الدراسة أن المشيخة كانت لها وضعية خاصة بهذه المنطقة الشاسعة من الجنوب، حيث لم تكن أداة تنفيذ أوامر العامل، كما أن علاقاتها بالسلطة المركزية كانت تمر عبر هذا الأخير. وفي إطار هذه العلاقة الجدلية ساد تدرج سلطوي لا يحجب فيه العامل سلطة الشيخ ولا تخرج فيه سلطة الشيخ عن سلطة العامل، لتبقى السلطة المركزية حلقة وصل بينهما . وبعد توضيح أمور العلاقة هاته، عرج الأستاذ على بعض الإشكاليات السلطوية في المنطقة مثل :مسألة تعقيدات الولاية على أكادير، وامتداد القيادات على حساب بعضها، فلاحظ أن أكادير تميزت بوضعيى إدارية خاصة سواء من حيث التبعية للسلطة أو من حيث تموين ممثلي السلطة بها.فأكادير عرفت سلطتان محليتان إحداهما عسكرية والأخرى تنفيذية، ولم يكن من حق السلطة التنفيذية التصرف في القوة العسكرية إلا بإذن من السلطة المركزية. كما أن قائد أكادير كانت له اختصاصات أخرى، كسلطة المراقبة والتدخل والتعامل مع القوى المحلية وسكانها وهذا ما كان يعرضه للاستبدال لأدنى شكوك حوله. وكنموذج آخر لنفس الوضعية أدرج الأستاذ مدينة الصويرة التي كانت مركزا تجاريا نشيطا بشكل أفضى إلى تنظيم سلطوي بها أكثر ضبطا ومراقبة، مما طرح ضرورة تعيين عمال يحظون بثقة السلطة المركزية وفي نفس الوقت القبول الضمني للسكان، الشيء الذي لن ينفي ظهور نزاعات بين بعض القوى المحلية والقواد بسبب استبداد هؤلاء، فأظهر صراع بعض الجماعات مع السلطة المحلية شكلا من أشكال رفض الاستغلال.

وحول بعض الجوانب في العلاقة بين السلطة المركزية والسلطة المحلية بمنطقة

الأطلس الكبير الغربي، تطرق الأستاذ الى الدعم المعنوي والمادي الذي كان يتلقاه ولاة المنطقة من السلطة المركزية بهدف كسب هذه الأخيرة ثقتهم. ومن أساليب هذا الدعم ذكر ظهائر الثناء التي لم تكن السلطة المركزية تصدرها دائما من ذات نفسها، بل كان الولاة أحيانا يسعون وراء التوصل بها، كما ذكر الدعم المادي الذي كان اكثر إيجابية، وأعطى نماذج حول ذلك بين المتوكيين والسلطة المركزية، التي دعمتهم بالعتاد العسكري والحربي ومنه بعض العتاد الثقيل. ولم تكن علاقات السلطة المركزية بالولاة علاقات دعم دائما بل كانت بين الفينة والأخرى علاقات تأديب ضد خروقاتهم وشكوى الناس منهم. واتخذت مسألة التأديب أشكالا مختلفة. وفي هذا السياق تحدثت الدراسة عن تكرار شكايات قبائل المنطقة المعنية بالمتولين عليهم من القواد مثل ما فعلت قبيلة مزوطة مع العامل محمد بن احمد المزوطي، وكيف عزله السلطان وولى غيره ، و قبيلتي نفيفة ودمسيرة بالقائد محمد المتوكي والذي أمر السلطان كذلك بعزله، بل إن الأمر وصل إلى سجن محمد المتوكي .ولم تكن التنحية والعزل هي الأسلوب الوحيد في تأديب الولاة، بل كان إلى جانبها مصادرة أملاكهم وجعلها تحت تصرف السلطة المركزية، كما وقع لقيادة متوكة وقيادة آيت أبهي الحاحية، وقد رأى الأستاذ من خلال هذين المثالين أن موقف السلطة المركزية كان له سند شرعي باعتبارأن ما كان يتصرف فيه الولاة المذكورين من أموال،هي أموال بيت المال التي يجب أن ترجع اليه وأن ما جمعوه لم يتم إلا من خلال السلطة التي توفرت لهم ، وفي إطار العلاقة مع السلطة دائما، تطرقت الدراسة إلى المنازعات بين القوى والسلطة المحليتين باعتبارها نوعا من السير العام للترابط ولإبراز دور السلطة المركزية في فض التنازع حول الاختصاصات، تناول الأستاذ نموذج الزوايا والسلطة المحلية، فأشار الى انتشار الزوايا في كل مكان بالمنطقة واختلاط المحلية منها بالفرعية لزوايا كبرى، والصراع بينهما وبين السلطات المحلية من أجل بعض الامتيازات كالتصرف في الضرائب الشرعية. وأعطى أمثلة كذلك مثل الصراع بين زاوية تامصلوحت وقائد قبيلة مزوطة الذي دام ثماني سنوات وانتهى بتدخل السلطان لصالح الزاوية. إلا أن هذا التدخل تجاوز الإطار الجماعي إلى الإطار الفردي، ذلك أن الأستاذ ومن خلال مجموعة من النماذج، بين أن الصراعات كانت أسلوبا مارسته القبائل للدفاع عن نفسها وبهدف تحقيق الاستقرار الاجتماعي للقبيلة ورفع الظلم.كما بين كيف كانت تتدخل السلطة المحلية أو المركزية لتطويق الصراعات التي تزعمها أفراد السلطة المحلية، مثل الصراع بين القائد ولد العسري والقائد محمد بن احمد المزوطي من أجل قيادة مزوطة، والصراع عن نفس القيادة بين لحسن بن الاشقر وقائد مزوطة وكيف تدخلت السلطة المركزية لإنهاء ذلك الصراع. كما تطرقت الدراسة إلى الصراعات الفردية بدويران ضد السلطة المحلية وبمتوكة، وبينت كيف أن الصراعات الفردية مع السلطة المحلية في مزوطة ودويران ومتوكة أفرزتها مجموعة من التناقضات، وأنها كانت تقف على مراجعة السلطة المركزية. ناقش الأستاذ حركة حاحا في علاقتها بالقبائل المجاورة ومشاركة تلك القبائل على جميع المستويات بل واستغلال ظروف الحركة من أجل تصفية الحساب بين القوى المتصارعة مع الأجهزة السلطوية بالمنطقة. وتم اختتمام الحديث عن هذه الحركة. بتصنيفها وسيلة من الوسائل التي استعملت للكشف عن عدة ملابسات، منها ما يمس السلطة المركزية، ومسألة توزيع الكلف بين قبائل المنطقة، وما يمس الصراعات المحلية.وعلى

العموم فقد توقفت الحركة بصفة فجائية بسبب وصول نبأ وفاة السلطان مولاي محمد بن عبد الرحمان وهو ما خلق صعوبة للباحث من أجل وضع خاتمة ملمة بالوضعية الاجتماعية لحركة حاحا.إلا أنه خرج بمجموعة خلاصات حولها تمثلت في المشاركة الواسعة للسكان وترديد الوثائق المعتمدة للأساليب السلمية التي هيمنت على الحركة.وكشف الحركة بصفة عامة عن جوانب متعددة من علاقات السلطة والسكان في ظروف متوثرة بينت أن الدولة تحاول فيها الدفاع عن حاجياتها والسكان يحاولون الدفاع عن سلامة معاشهم.وكخاتمة عامة للموضوع سطر الأستاذ صعوبة الخروج باستنتاجات وخلاصات عامة لأسباب على رأسها الظواهر المحدودة التي تم التطرق إليها، والزمن المحدود الذي تم التعامل معه، والمكان المحدود الذي تمت محاولة دراسة التحولات المجتمعية فيه. وعاد مرة أخرى إلى مناقشة نمط الإنتاج الشتات، كما أعاد توضيح بعض الأمور منها الدور الذي لعبته المنطقة في القرن التاسع عشر من خلال نموذج قيادات آيت أبهي بحاحا ودعمها للسلطة المركزية، كما أعاد التذكير ببعض القضايا العامة التي عرفتها المنطقة في العشر سنوات التي حصر فيها الموضوع. وأكد مرة أخرى على التواصل بين السلطتين المحلية والمركزية وإبراز نتائج انتقال الجهاز السلطوي المركزي إلى المنطقة مرجعا سبب طول حركة سوس إلى بطئ السكان في الاستجابة لأهداف السلطة واضطرار هذه الأخيرة إلى اقناعهم على مراحل.

وكخاتمة عامة لهذا الموضوع، نشير إلى أن الأستاذ زرهوني اعتمد في صياغة معلوماته على مصادر مختلفة من وثائق رسمية وكتابات متنوعة، وعزز عمله بأربع خرائط حول تضاريس المنطقة وحول قبائلها وحول حركتي مولاي الحسن إلى كل من سوس وحاحا.وجمع معلومات كثيرة لا شك في أهميتها غير أن القارئ لا بد أن يطرح مجموعة من الاستفهامات حول هذا العمل من بينها تساؤل :

حول المصداقية التاريخية لتتبع تحولات اجتماعية اقتصادية في زمن لا يتعدى عشر سنوات.في الوقت الذي تثبت فيه الدراسات الحديثة أن رصد التحولات يحتاج الى تتبعها عبر المدى الطويل ، أو المدة الطويلة.

يتبين للقارئ بسهولة من خلال تتبعه للعمل أن هاجس الرد على الأطروحات الاستعمارية موجهة لرؤية الأستاذ بشكل كبير ، فما هي حدود مصداقية الرد على الأسود بالأبيض أو الأبيض بالأسود خاصة وأن الرسالة نحت منح توضيح كل ما هو ايجابي في تعامل المخزن مع قبائل المنطقة.

أكد الأستاذ في بداية عمله على أنه سيعتمد الاقتصاد أداة للتحليل، وتحدث عما أسماه نمط الشتات كأسلوب حدد ما عداه من ظواهر اجتماعية وسياسية، غير أن سرد الأحداث وتتبعها أخل بالالتزام بهذا التعهد وأصبحت الإشارات الاقتصادية لا تظهر إلا لماما، وعندما تظهر تبدو أقرب إلى النتيجة منها إلى السبب.

تبدو كل الأحداث المثارة داخل هذا العمل أحداثا مهمة،إلا أن الإغراق في الجزءيات والتوضيحات غالبا ما يجعل الاستيعاب الشامل للموضوع بحاجة إلى أكثر من قراءة لهذه الرسالة، وهو ما ننوي القيام به مستقبلا نظرا لما أثاره هذا العمل لدينا من اهتمام للعلاقة بين المركز والأطراف في ظروف حرجة من تاريخ المغرب .

الرشوة في سياسة الدول الأوربية تجاه المغرب خلال القرن التاسع عشر

ذ.محمد جوي

تقديم:

ظهرت حديثا إحدى الدراسات تنادي بوضع أساس لنظرية متكاملة لدراسة الاقتصاد السياسي المبني على الرشوة ،وباعتبارها مادة مستقلة في علم الاقتصاد. وقد انطلقت هذه الدراسة من كون الرشوة أصبحت اليوم ظاهرة عامة تشمل العالمين المتقدم والنامي،ولم يعد من الممكن السكوت أو غض النظر عنها (1).

وفي دراستنا هذه ، لن ندعي أننا سنضيف شيئا جديدا في هذا المجال ، فالأمر يتعلق بذوي الاختصاص في علم الاقتصاد السياسي. إلا أننا سنحاول تسليط الضوء على ظاهرة الرشوة من زاوية تاريخية تخص العلاقات الأوربية المغربية خلال القرن التاسع عشر.

لقد تبين لنا من خلال الوثائق التي عثرنا عليها - وإن كان عددها قليلا - أن الدول الأوربية التي تنافست على المغرب خلال القرن الماضي ، وهي فرنسا وإسبانيا وانجلترة ، لم تتورع عن استعمال الرشوة لتوطيد نفوذها فيه ، فعن طريقها حاولت تجاوز العقبات التي اعترضت طريق توغلها في المغرب. اتضح ذلك خلال مفاوضات الحدود مع فرنسا سنة 1845 التي أعقبت انهزام المغرب في إيسلي (1844) ، كما اتضح أيضا عشية عقد معاهدة 1856 مع انجلترة ، وكذلك بعد هزيمة المغرب في حرب تطوان مع إسبانيا 1860، وأثناء المفاوضات التجارية التي دارت بين المخزن والسفير الإنجليزي أووان سميث (Ewan Smith) بفاس سنة 1892.

استعمال فرنسا للرشوة في غزو التراب المغربي:

بدأت أطماع فرنسا تتجهه نحو المغرب منذ أن سيطرت على الجزائر سنة 1830 ، فتذرعت بمساعدته للأمير عبد القادر الجزائري (2) ، وأقحمته في معركة غير متكافئة انتهت بهزيمة الجيش المغربي بإيسلي سنة 1844 ، وقد استغلت فرسا تفوقها العسكري هذا ، وفرضت على المغرب معاهدة صلح وقعت بطنجة بتاريخ 10 سبتمبر 1844 ، نص الفصل

الخامس منها على وجوب عقد اتفاقية لتعيين الحدود بين المغرب والجزائر (3). وتنفيذا لذلك، فوض السلطان عبد الرحمن بن هشام (1822 - 1859) لعامل وجدة حميدة الشجعي والكاتب أحمد الخضر مهمة تحديد الحدود مع المفاوض الفرنسي الكونت دولارو (De la Rue). وكانت تعليمات العاهل المغربي لمفوضيه تنص على إبقاء الحدود بين المغرب والجزائر على ما كانت عليه أيام حكم الأتراك للقطر الأخير. بيد أن الفرنسيين الذين كانوا يبحثون عن ثغرة تمكنهم من التسرب داخل المغرب، عمدوا إلى رشوة المفاوضين المغربيين بقدر من المال مقابل التوقيع على اتفاقية الحدود سنة 1845. وقد مكنتهم هذه الاتفاقية المعروفة باتفاقية للامغنية (4) من الاستيلاء على العديد من القرى والقبائل المغربية، كما تركت الباب مفتوحا أمام الفرنسيين من جهة الجنوب الشرقي، لأنها أبقت على الأراضي الواقعة جنوب فجيج بدون تحديد بدعوى أنها أراضي قاحلة لاماء فيها، وأنها مرعى لرعايا الدولتين المغربية والجزائرية. وقد أخبر عبد الرحمن بن هشام عامله على طنجة بوسلهام بن علي، بقضية الرشوة التي أعطاها الفرنسيون للمفاوضين المغربيين : عامل وجدة حميدة الشجعي والكاتب أحمد الخضر، فقال "(...) وبعدد، فإن حميدة بن علي عامل وجدة مع الطالب أحمد الخضر خدعهما نائب عدو الدين فيما كلفناهما به من الوقوف معه على الحدود وغرهما على عادته وترهاته وبذل الطمع، حتى أدخل في الحد طرفا وافرا من قبائل إيالتنا السعيدة لناحية بلاد إيالة الجزائر وغرهما حتى طبع له حميدة على الرسم الذي أتى به (...)"(5).

هل يمكن اعتبار ما تشير إليه الوثيقة أعلاه رشوة، وما هو موقف السلطان منها ؟

إن الرشوة حسب تعريف ابن الأثير هي : " الوصلة إلى الحاجة بالمصانعة، والراشي هو من يعطي الذي يعينه على الباطل"(6). وحسب علماء الاقتصاد يمكن القول :" إن هنالك رشوة حينما يحصل صاحب السلطة، المسؤول عن تغيير هيكلة قانون الملكية، على مكاسب شخصية من قبل المستفيدين من ذلك التغيير"(7).

وبناء على هذا التعريف للرشوة، فإن ما قامت به فرنسا تجاه الموظفين المخزنيين يعتبر رشوة حقيقية، لذلك استنكر السلطان فعلها المشين، وبذل كل ما في وسعه لإلغاء الاتفاقية المترتبة عنه إذ رفض المصادقة عليها كما قدمت له وأمر عامله على طنجة بوسلهام بن علي باتخاذ الإجراءات الضرورية، لتصحيح ما أفسده المفاوضان المغربيان. ومما قاله في هذا الصدد :"(...) فاشرع في مباشرة الأمر على الكيفية التي قدمناها لك، ولا تأل جهدا في فسخ ما عقده الطماعان الساقطا الهمة، ولا حول ولا قوة إلا بالله "(8).

كانت عواقب التصرف الذي أقدم عليه المفاوضان المغربيان المرتشيان وخيمة على مستقبل البلاد المغربية، وما ردود فعل السلطان ضده إلا تعبيرا عن الوعي بخطورة الموقف الذي اهتزت له القبائل المغربية في مناطق الحدود. وتوضح رسالة الوزير محمد بن إدريس العمراوي إلى بوسلهام بن علي خطورة الموقف، ومما ورد فيها : "(...) وقد قرأت كتابك على سيدنا أيده الله حرفا حرفا، زيادة على ما كتبتت به إليه في ذلك ومثل ما أصابك من ذلك أصابنا، لأن الأمر ليس بسهل، ولو دكت له الجبال لكانت حقيقة بذلك، ولكنك ذو عقل ودين وفطانة، ووالحمد لله تعرف كيف التوصل لفسخ ذلك (...)"(9).

ولتقدير خطورة فعل الرشوة الذي قام به الفرنسيون ، علينا أن نعلم أن المخزن اضطر تحت الضغط والتهديد إلى المصادقة على اتفاقية الحدود رغم أنها نصت على ضم أراضي مغربية إلى الجزائر ، وعلينا أن نعلم كذلك أن هذه الاتفاقية فتحت الباب على مصراعيه أمام التوغل الفرنسي داخل المغرب طيلة القرن التاسع عشر. ومع أن ردود فعل المخزن والقبائل المغربية المتاخمة للحدود كانت قوية ، فإن فرنسا فرضت سياسة الأمر الواقع ، ووجدت في الرشوة حلا مفيدا لها للتقدم بخطى ثابتة نحو غزو الأراضي المغربية.

في هذا الإطار ، وبعد حوالي أربع وأربعين سنة ، استعملت نفس الأسلوب (الرشوة) لتسهيل تقدمها نحو فجيج ، وقد حدث ذلك بعدما رفض السلطان مولاي الحسن (1873 - 1894) التنازل لها عن هذه المدينة التي طالبت بها على لسان سفيرها المقيم بطنجة لادسلاس أورديكا (Ladislas Ordéga) بمناسبة سفارته إلى مراكش سنة 1882. وبما أن فرنسا لم يكن بإمكانها استعمال أسلوب القوة العسكرية لغزو فجيج ، نظرا لما يمكن أن يترتب عنه من مشاكل مع الدول الأخرى المهتمة بالمغرب، وخاصة مع انجلترة وألمانيا ، فإنها شرعت في التقدم نحوها بتحصين المراكز التي تطالها يدها، وساعدها على ذلك توزيع قدر من المال على الأشخاص الموجهين من قبل السلطان لمراقبة التحركات الفرنسية في المنطقة. وهذا ما تخبرنا به الرسالة السرية التي بعث بها علي السلاوي إلى الراهب ليرتشوندي بتاريخ 19 أبريل 1889 ، فقد جاء فيها :"(...) واعلم أن صاحبنا محمد الباهي كان هذه الأيام بفاس، وسأل هناك على خبر الفرنصيص ، فأخبره رجلان من فكيك أن الفرنصيص مشغول في البناء هناك على الجهد ، وقالوا له إن الفرنصيص الآن وصل لعندهم مع أنه كان بعيدا عنهم مسيرة 4 أيام ، والآن يرون ضوءه وناره ليلا . وحين يبعث سيدنا من يخبره عن الفرنصيص يتوجه ويقبض عددا من الدراهم من الفرنصيص ويرجع يقول له إن الفرنصيص لازال بعيدا عن قبيلة فكيك(...)"(10).

إن مسألة ارتشاء بعض المغاربة من الفرنسيين المشار إليها في الرسالة أعلاه ، قصد السكوت عن الغزو الفرنسي ، لاتختلف في جوهرها عن الرشوة التي أعطتها فرنسا قبل أربع وأربعين سنة عندما تم توقيع اتفاقية للامغنية سنة 1845. فكلتا العمليتين استهدفتا اغتصاب أراضي مغربية بجعل المخزن أمام الأمر الواقع. ولانستبعد أن تكون فرنسا قد قامت بعمليات أخرى مماثلة، ولكننا، للأسف لانتوفر على وثائق لإثبات ذلك.

ولم تكن هذه اللعبة السياسية القائمة على الرشوة حكرا على فرنسا وحدها، بل كانت كذلك من اختصاص دولة أخرى متعطشة للسيطرة على المغرب بحكم علاقة الجوار التي تربطها به من ناحية الشمال ، وهذه الدولة هي إسبانيا.

سلوك اسبانيا نفس السياسة في غزو أراضي مغربية :

لانتوفر على وثائق متعددة تمكننا من استجلاء مدى تفوق الإسبان في توظيف الرشوة لتحقيق أطماعهم الاستعمارية . إلا أن ما توفر لدينا منها يؤكدد أن فعل الرشوة لدى الإسبان لم يقتصر على تقديم المال إلى المرتشين فحسب، بل شمل مختلف وسائل الإغراء ، كما تؤكد ذلك الرسائل المغربية الموجهة إلى الحكومة الإسبانية احتجاجا على تصرفات حكامها بمليلية. فما هي الغاية التي سعت إسبانيا إلى تحقيقها من وراء اعتماد سياسة الرشوة ؟

لقد كانت إسبانيا طيلة القرن 19تطالب السلاطين المغاربة بتوسيع حدود مليلية المحتلة. وأوفدت لهذا الغرض سفيرها المعتمد بطنجة إدواردو روميا إلى فاس سنة 1877 لتقديم طلبها بكيفية مباشرة إلى السلطان مولاي الحسن. غير أن هذا الأخير رفض الطلب الإسباني ، فعمد حكام مليلية، نتيجة ذلك إلى إثارة البلبلة في القبائل الريفية واستمالة بعض العناصر منها وإغرائها بالمال وتقديم أراضي ودور سكنية لها . وتخبرنا الرسالة التي وجهها مولاي الحسن إلى نائبه بطنجة محمد بركاش بتاريخ 14 حجة 1298 / 7 نوفمبر 1881 بما يلي :"إن حاكم مليلية جاد في التحزب برعاع مزوجة وبني شيكر الذين لايسعون في خير بين المسلمين والنصرى. وأراد أن يدفع لهم بلاد الحدود يحرثونها بالمنفعة وإسكانهم بالدور التي أدخلت في الحدود الصبنيولية(...) وهذا زائد على ما تشكوا به قبل من كونه يبني الحصون والأبراج بالحدادة ويستميل فساد القبيلة (...)"(11).

وبعد مضي تسع سنوات على الأحداث المشار إليها في الرسالة أعلاه. اغتنم حكام مليلية أوامر السلطان الصادرة إلى عمال قبائل الريف وأعيانها قصد الاتصال بهم لرسم الحدود بين الجانبين (12) ، وقاموا برشوة بعض العملاء لكي يسهلوا مأموريتهم في الاستيلاء على جزء من أراضي القبائل الريفية وإدخاله في حدود مليلية المحتلة ، فوقف الريفيون لهذه المحاولة بالمرصاد ، ولكن السلطان مولاي الحسن أرغمهم على السكوت لعدم تأكده من حقيقة الأمر. وتم توقيع رسم الحدود بين الطرفين المغربي والإسباني(13). بيد أن مولاي الحسن سرعان ما تبين من صحة الخروقات الإسبانية القائمة على الرشوة، كما تؤكد ذلك رسالته الجوابية إلى قبيلة بني شيكر الريفية بتاريخ 12 رمضان 1308 / 21 مارس1891، التي جاء فيها :" وصل كتابكم بأن القائد العربي بن حميدة الشركي لما طلب منكم الخروج معه للحدادة خرجتم معه ووقفتم في البعد منها احتياطا من تشويش النصارى . ولما رأيتموهم أرادوا الزيادة على الحدود الأولى والرشم بعلامة تكون واقفة وتمييزها طردتم المسلمين الذين أرادوا ذلك ، ففروا لعند النصارى لكونهم اتفقوا معهم على الزيادة في الحدادة بمال له بال (...)"(14). فاحتج السلطان على تصرفات حكام مليلية لدى الحكومة الإسبانية ووجه إليها سفارة سنة 1894 برئاسة عبد الحميد الرحماني لمطالبتها بإلزام حاكم مليلية بالتخلي عما زاده في الحدود من أرض قبيلة بني شيكر وإبقاء الحدود على أصلها (15). وهكذا ، فقد استهدفت الدولتان الفرنسية والإسبانية ، من خلال سياستهما القائمة على الرشوة، غزو الأراضي المغربية وضمها إلى نفوذهما بالطرق "السلمية"، ودون إثارة ردود فعل الدول الأوربية الأخرى.

توظيف إنجلترا للرشوة في سياستها الاقتصادية في المغرب.

تشكل معاهدة 1856 الموقعة بين المغرب وإنجلترة الانطلاقة الحقيقية للغزو التجاري الأوربي ، وخاصة الانجليزي ، للمغرب. وبغض النظر عن ظروف الضغط والتهديد التي اضطر المغرب فيها إلى التوقيع عليها ، والتي كرست لها بعض الدراسات (16)، نشير إلى أن المسؤولين الإنجليز لم يترددوا في استعمال الرشوة لتحقيق أهدافهم التجارية في المغرب ، فقد توصل ممثل إنجلترة بطنجة جون دريموند هاي(John Drummound Hay) في 14 نوفمبر 1845 بتعليمات من حكومة بلاده تخوله بعض الصلاحيات لتسهيل توقيع المعاهدة الجديدة مع

المغرب ، حيث جاء فيها :"إذا ما دعت الحاجة إلى إنفاق بعض مئات من الجنيهات بالإضافة إلى هدايا من أي نوع بهدف تخطي المصاعب ، فإن اللورد كلارندون لن يعترض على إنفاق مالايزيد عن خمسمائة جنيها في هذا الصدد(...)"(17) كما توصل برسالة أخرى في 5 فبراير 1885 ، خولته زيادة المبلغ إلى ثلاثة آلاف جنيه (18).

لانستطيع - في غياب أدلة ملموسة - الجزم بأن المفاوضين المغاربة ، الذين كلفوا بدراسة المقترحات التجارية الإنجليزية ، تلقوا بالفعل هذا المبلغ من المال، أو غيره مقابل إقناع السلطان المغربي عبد الرحمن بن هشام بالتوقيع على المعاهدة. ولكننا لانستبعد حضور فعل الرشوة بقوة في أذهان الإنجليز ، وتخبرنا إحدى الدراسات (19) بأن المفاوضين الإنجليز كانوا يخصصون مبالغ مالية هامة لإنجاح المفاوضات التي كانت تجرى بينهم وبين السلطات المخزنية بشأن قضية معينة، ومثال ذلك أن قنصل إنجلترة العام جون روسل (John Russel) ، خلال مهمته لدى البلاط المغربي فيما بين يونيو وغشت 1729 ، خصص أكثر من ربع تكاليف البعثة للمفاوضات التي أجريت بينه وبين المخزن ، فقد كان عليه - كما تشير إلى ذلك الدراسة - التقرب من الحاشية الطويلة والتي لاغنى عنها والخاصة بالمساعي الحميدة لإنجاح المفاوضات . وتؤكد نفس الدراسة أن النصيب الأوفر من المال الموزع كان من حق الوزراء ، أو بصفة أدق "أهم شخصيات القصر الذين تعددت زياراتهم للمبعوث [روسل] لإخباره عن الثمن الذي يريدونه مقابل إرادتهم الحسنة ، التي بدونها كانت المفاوضات مصيرها الفشل. وكان المبلغ هو 135 ليرة، أما مستشار الامبراطور فقد طلب لنفسه 92 ليرة ونصف ليرة"(20).

لقد اضطر روسل إلى توظيف هذه الأموال التي يمكن اعتبارها رشوة واضحة ، لكي يحصل على مواصلة العمل باتفاقية السلام الموقعة عام 1721 بين المغرب وبريطانيا العظمى ، وكذا التفاوض حول أربعة بنود إضافية يعتبر واحدا منها على الأقل حيويا بالنسبة للمصالح الإنجليزية وهو تموين حامية جبل طارق (21).

ومن جهة أخرى ، أثارت ظاهرة الرشوة أزمة قوية في العلاقات المغربية الإنجليزية في أواخر القرن التاسع عشر ، ففي نهاية شهر أبريل من عام 1892 ، توجه السفير الإنجليزي المعتمد بطنجة شارل أووان سميث (Ch.Ewan Smith) إلى فاس لفرض معاهدة تجارية على السلطان مولاي الحسن (1873 - 1894) وإرغامه على تقديم سلسلة من التنازلات لفائدة الرعايا والتجار الإنجليز (22)، ومن ثم فرض شبه حماية إنجليزية على المغرب ، لكن السلطان المغربي تنبه إلى خطورة المطالب الإنجليزية ، فرفض الاستجابة لها. ومن هنا خيمت الرشوة بظلالها على أحداث السفارة الإنجليزية بفاس. وتضاربت حولها مواقف الجانبين المغربي والإنجليزي .

بالنسبة للموقف المغربي ، تؤكد وثيقة مغربية أن السفير الإنجليزي أووان سميث هو الذي طلب الرشوة من المخزن، ذلك أنه لما فشل في انتزاع موافقة مولاي الحسن على مطالبه التجارية ، بعث أصحابه إلى المفاوضين المغاربة " ذاكرين لهم أن المخزن إذا أعطى الباشدور مائة ألف ريكلو(23) يسقط المسائل التي فيها الضرر من الشروط . ويتساهل معهم في باقي الشروط". وتضيف الوثيقة ، أن المفاوضين المغاربة لما أطلعوا السلطان على طلب السفير ، استفهمهم عن الريكلو، فلم يعرفوا معناه. فاعتقد السلطان أن ما يطلبه أووان سميث

بمثابة تعويض لحكومته على الشكل الذي كانت تطالب به في قضية طرفاية(24). فاستجاب لطلبه ، حينئذ وافق السفير الإنجليزي على عدم تسريح وسق القمح والشعير والبهائم ، ثم على عدم إسقاط عبارة "موافقة المخزن" من شرط تملك العقار(25). غير أن السفير الإنجليزي لما علم بأن الطريس يريد إخبار وزير خارجية حكومته بالأمر ، اشتد غضبه "ورام نقض الفصال الواقع معه في تلك المسائل ، وزعم أن المفاوضين المغاربة هم الذين اقترحوا عليه أن يسلمه المخزن مائة ألف ريال رشوة ، كما هي عادته مع السفراء الأجانب"(26).

هذه إذن ، تفاصيل الرواية المغربية بشأن قضية الرشوة التي أثيرت خلال سفارة أووان سميث إلى فاس ، فماذا تقول الرواية الإنجليزية عنها ؟

ذكر أووان سميث أن مبادرة رشوته جاءت من السلطان ومستشاريه. وذلك عندما قام مبعوثان مغربيان هما المفضل غريط وابن المواز بزيارته في محل إقامته يوم 28 يونيو (1892) بأمر من السلطان. وطلبا منه أن يسلك مسلك الوزراء الآخرين الذين سبق لهم أن توافدوا على الأعتاب الشريفة "ويوافق على إلغاء الشروط التي حصل بشأنها خلاف في المعاهدة التجارية المقترحة مقابل حصوله على قدر من المال ، اعترافا من جلالته وتقديرا له على هذه الخطوة الحميمة. وأضاف أووان سميث أن مبعوثي السلطان صرحا له بأن جلالته وجد في هذه الوسيلة (الرشوة) حلولا مرضية للكثير من المشاكل التي كانت معلقة بينه وبين السفراء الأجانب في غضون سفاراتهم إلى البلاط ، وبأنه يتمنى ، عن طريقها ، التغلب على كل المصاعب التي تعترض المفاوضات التجارية ، وسوف يضع تحت تصرفه 100.000 ريال إلى 150.000 ريال , وأكد أووان سميث في الأخير أنه رفض هذه الهبة من المال ، واعتبرها رشوة(27).

ليس من السهل ، انطلاقا من هاتين الروايتين المتناقضتين ، الحسم في قضية مبادرة إعطاء الرشوة أو طلبها. ومهما كان الأمر ، يجب التأكيد هنا - في انتظار العثور على وثائق جديدة لتوضيح القضية ، على أنه إذا كان المخزن هو الذي بادر إلى إعطاء قدر من المال (رشوة) إلى السفير الإنجليزي ، سواء قصد ذلك أو التبس عليه الأمر في قضية "الريكلو"، فإنه لايمكن بأي حال من الأحوال اعتبار ذلك رشوة ، لأنه وهو المغلوب على أمره ، سعى في كلتا الحالتين إلى الدفاع عن سيادة البلاد واستقلالها. أما إذا ثبت أن أووان سميث هو الذي طلب مبلغا من المال، فتلك رشوة حقيقية.

استخلاص :

وظفت الدول الأوربية الرشوة في سياستها تجاه المغرب خلال القرن التاسع عشر ، واستهدفت منها شراء ضمائر بعض المغاربة ممن فضلوا تحقيق مكاسب شخصية على حساب مصلحة البلاد العليا. ولم تكن الرشوة تعطى دائما لأشخاص مغاربة، عاديين أو موظفين مخزنيين سامين ، من طرف ممثلي الدول الأجنبية المعتمدين بالمغرب، بل كان هؤلاء أيضا يطلبونها لأنفسهم. والفرق بين رشوة المغاربة وارتشاء الأجانب في المغرب هو أن سيادة البلاد المغربية هي التي كانت مستهدفة في الحالتين معا ، في حين كان الأجنبي هو المستفيد سواء رشا أو ارتشى. فقد رأينا الأخطار التي تعرض لها المغرب من جراء إعطاء

الرشوة لبعض المغاربة. أما بالنسبة للأخطار التي تعرض لها من جراء ارتشاء القناصل والسفراء الأجانب المعتمدين به ، فتتمثل أساسا في تسلم هؤلاء رشاوى من الرعايا المغاربة مقابل منحهم الحماية. وقد أوردنا هنا مثال الحماية ، لأن المحميين ، وهم الرعايا المغاربة الذين انسلخوا عن سلطة بلادهم القضائية والجبائية ، سببوا للمغرب مشاكل متعددة طيلة النصف الثاني من القرن التاسع عشر. أما فيما يخص استفادة الأجانب في المغرب من الارتشاء ، فتتمثل - بغض النظر عن الثروات الكبيرة التي حصلوا عليها من الرشوة - في مساهمتهم في تمهيد الطريق أمام بلدانهم لغزو المغرب، وذلك بزرع الفوضى بين شرائحه الاجتماعية المختلفة ، وخاصة بين المحميين وغير المحميين ، أو باستنزاف خزينته وإجبار المخزن على دفع مبالغ مالية كبيرة كرشوة مقابل عجزه على الدفاع عن سيادة بلاده بالقوة. ومثال أووان سميث خير دليل على ذلك .

الهوامش :

1) - فواز (زكريا) : "مساهمة نظرية في دراسة الاقتصاد السياسي للرشوة " ، مجلة دراسات عربية ، العدد 6/5 السنة 33 ، مارس / أبريل1997 ، ص : 89 - 97 .

2) - الناصري محمد : " الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى "، الدار البيضاء 1956 ، ج 9 ، ص : 44.

3) - أنظر هذه المعاهدة بنصيها العربي والفرنسي في الوثائق، دورية تصدرها مديرية الوثائق الملكية بالرباط ،1976، ع1، الوثيقة 144، ص :466 - 472.

4) - أنظر هذه المعاهدة كذلك بنصيها العربي والفرنسي في المرجع السابق ، الوثيقة 145، ص : - 484 475.

5) - الرسالة مؤرخة بتاريخ 27 ربيع الأول 1261. المرجع السابق ، الوثيقة 146، ص : 487.

6) - ابن منظور : لسان العرب ، بيروت ، دار صادر ، الجزء6، ص :322 - 323.

7) - فواز: مرجع سابق ، ص :90.

8) - دورية الوثائق ، ع 1، الوثيقة 147 ، ص : 489.

9) - المرجع السابق ، الوثيقة 149 ، ص : 494.

10) - مجلة دار النيابة ، ع 16/15 ، ص : 56.

11) - ابن زيدان (عبد الرحمن) : إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس ، 5 أجزاء ، الرباط 1989 ، ج2،ص :345-347.

12) - رسالة إلى القائد عبد القادر الجيلالي ،25 ربيع الأول 1308/ 8نوفمبر1890 ، محفظة إسبانيا ، مديرية الوثائق الملكية بالرباط .

13) - أنظر نص الاتفاق في : الإتحاف ، مرجع سابق ، ص :341.

14) - كناش رقم **630** ، الخزانة الحسنية بالرباط ، ص :25.

15) - الإتحاف ، مرجع سابق ، ص :340.

16) - أنظر على سبيل المثال : - Miège, (J-L) Le Maroc et l'Europe,(1830 - 1894) . p 2

- ابن الصغير ، المغرب وبريطانيا العظمى ، الدار البيضاء ، ولادة ، 1992.

17) - روجرز (ب.ج) : تاريخ العلاقات الإنجليزية المغربية حتى عام 1900 ، الدار البيضاء ،1982 ، ص :218.

18) - المرجع السابق ، ص :218 ، هامش 39.

19) - مكالي مرسي : " تكلفة بعثة دبلوماسية إنجليزية إلى المغرب خلال القرن 18 "، تعريب جواد الهندي ، مجلة البحث العلمي ، السنة السابعة عشر ، 1981.

20) - المرجع السابق .

21)- المرجع السابق .
22)- تطرقنا لأحداث هذه السفارة في رسالة جامعية لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، موضوعها : السفارات الأجنبية إلى فاس ومراكش في عهد مولاي الحسن(1873 - 1894).
23)- الريكلو (Regalo) كلمة إسبانية تعني الهدية .
24)- رسالة إلى سفيري فرنسا وألمانيا (أوبينيي وطاطنباخ) ،20 حجة 1309/ 16يونيو1892، محفظة فرنسا ، مديرية الوثائق الملكية.
25)- شكل هذا الشرطط أهم نقط الخلاف في المفاوضات المغربية الأوربية خلال القرن 19.
26)- كذب المخزن كون السفراء الأجانب يأخذون منه الرشوة ، فهم " منزهون عند المخزن عن ذلك متحاشون عنه" ، وأكد أن هدف السفير الإنجليزي هو إفساد العلاقات الودية بين المخزن والسفراء الأجانب الرسالة السابقة .
Correspondence respecting sir Ewan Smith ' s mission to fez. London.1892.n°2.pp2-3. -(27

دور المرأة المغربية في معركة التغيير الجذري

ذ. عبد الله إبراهيم *

في معركة المصير المغربي ، المرأة غائبة عنا الآن .ولكنها مع ذلك، حاضرة بإلحاح، في قلب جميع المشاكل المفجعة ، التي يتخبط فيها المجتمع المغربي ، في الوقت الراهن. ففي كل هذه المشاكل تنعكس صورة المرأة المغربية، في القرب أوفي البعد ،عن شعور أو عن غير شعور، وغالبا ما تكون هي الضحية الصامتة فيها ،الضحية الطيعة.لأنها مستعبدة في المجتمع المغربي على درجتين، لا على درجة واحدة، كما هو الشأن مع أخيها الرجل. فهي مستعبدة ومسحوقة أصالة، تحت نفس الشروط العامة، ولنفس الأسباب التي تستعبد الرجال وتسحقهم اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا وثقافيا. ولكنها مستعبدة ومسحوقة على درجة أخرى ،كأنثى كعضو اجتماعي قاصر، وتابع للرجل، وغير متساو معه.

سأتناول ما أمكن، في قسم أول ، جذور اللا مساواة بين الرجل والمرأة، وتطور هذه الجذور عبر المجتمعات الإنسانية، منذ عهود الإقطاع إلى اليوم.وفي قسم ثان، سأتناول وضع المرأة المغربية الراهن، في المجتمع المغربي، ووقعها بالضبط من مختلف المشاكل المأساوية التي تصطلي بنارها الجماهير الشعبية في مغرب الاستقلال.ثم سأتناول في قسم ثالث آلية الاستغلال في المجتمع المغربي الشبه الإقطاعي والشبه الرأسمالي، الممزقة شخصية الأفراد فيه والجماعات - رجالا ونساء - تحت ضغوط الاستلاب الفردي والمادي، للاستعمار الجديد والإمبريالية ، وتحت ضغوط الآراء والتقاليد الوطنية الفاسدة.ثم نخلص في الأخير إلى تحديد دور المرأة في معركة التغيير الجذري للمجتمع، الذي بدون تغييره لا يمكن تحريره وبدون نضال المرأة إلى جانب الرجل، لا يمكن التغيير.

جذور اللامساواة بين الرجل والمرأة في الحضارات البدائية :

من المهم جدا أن نستعرض باختصار بعض البنيات العليا الأساسية في المجتمع البدائي،لأن استعراض هذه البنيات هنا، سيضع أصابعنا على تقاليد ومقاييس وردود فعل مشروطة ،تنحدر جذورها من مجتمعاتنا الوطنية الراهنة، إلى الحضارات البدائية الأولى، أو إلى عصور عهد الإقطاع، في ظلمات التاريخ الإنساني البعيد فهي جذور ما تزال تربطنا نفسيا بالإنسان البدائي، ومن أبرز هذه البنيات البدائية، المقياس الفكري الذي حدد به إنسان الكهوف، علاقته بالمرأة، وعلاقة المرأة بالآلهة،

* ذ عبد الله إبراهيم الأمين العام لحزب الاتحاد الوطني للقوات الشعبية .

ووضعية المرأة، بالتالي ، داخل النظام الاجتماعي، منذ خطواته الأولى، الثقيلة والغير اللبقة على الأرض، والتي تشبه خطواته الآن على سطح القمر ، في فجر هذه المرحلة الجديدة من التاريخ الإنساني.

مجتمع بشري يقوم على ثلاث دعائم أساسية :

تركيب الإنسان البيولوجي واحتياجاته المادية والمعنوية ، قاداه من البداية إلى صوغ بنيات عليا أساسية وملائمة، منها انطلق كل تاريخه.وهذه البنيات العليا الأساسية تقوم على ثلاثة مبادئ كبرى أول الأمر:

1 - التملك (الفردي أو الجماعي).

2 - الأسرة .

3 - الصلوات والأدعية والقرابين ، تقديسا لرب الأسرة، ووفاء لذكراه واستحماء بقوته الغيبية، وارتباطا بعالم أرواح الموتى، الخفي المثير ، عن طريق عميد الأسرة المتوفى.

وعميد الأسرة هذا، بعد موته، يقدم له أبناؤه وأحفاده الأطعمة المقدسة، ويوقدون عند رأسه النار المقدسة ويجرون الاتصال السري بشبحه، عن طريق الأدعية والصلوات.ولكن الميت لا يقبل من القرابين ، إلا ما قدمه له أبناؤه الذكور الذين ينحدرون منه وينقلونه، والميت الذي لم يعقب ذكورا ، يبقى على جوعه الأبدي.وبما أن الأب وحده يحتوي على المبدأ الخفي للكون، وينقل شرارة الحياة لتخليد النوع، فإن المرأة إذن مجرد وعاء لسرارة الحياة هذه . ومن ثمة فهي غير مقبلوة لا في تقديم القرابين ولا في إيقاد جذوة النار المقدسة ولا في تلاوة الأدعية والصلوات على روح عميد الأسرة.

وبما أن الأنثى غير مقبولة في هذا كله،فليست عليها أية تكاليف، وبالتالي فهي لا ترث.لهذا كانت ولادة البنت لا تحقق الغاية المقدسة من الزواج. لأن الأسرة لا تستمر إلا بالإبن، ولاتقوم بواجباتها الدينية، إلا بالعبادة.فالبنت إذن أجنبية داخل أسرتها.

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأباعد

كما علل ذلك الشاعر العربي القديم، بوضوح وواقعية،يكشفان عن الطابع الاقتصادي للمشكل، ويجعل من الدين البدائي، أداة لمصالح مادية محسوسة.

هذه هي النواة، سواء على مستوى البنيات السفلى أو على مستوى البنيات العليا، التي انبثقت منها اقتصاديا ودينيا، الجذور الأولى للمساواة بين الرجل والمرأة، عبر الحضارات الإنسانية الأم.

وقد تحولت فلسفة اللامساواة إلى طاقة انفعالية عنيفة، في نفوس الرجال، أخذت تبدو وكأنها انفصلت عن جذورها المادية البسيطة، وأدت، لا إلى بسط وصاية الرجال على النساء فقط، وحرمانهن من الإرث، بل إلى وأد البنات في بعض الأحيان، فرارا من العار، وإلى تقديم البعض منهم قربانا للآلهة. وقد كان الرجال ولاشك يقفون هذا الموقف من الأخوات، تحت ضغط إرهاب عاطفي مفجع، كانت تمارسه ضد الإنسان ، الشروط المادية والنفسية المحيطة به.وذلك ما يفسر التمزيق النفسي للرجل: "وإذا بشر أحدكم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به. أيمسكه على هون أم يدسه في التراب؟".

الأنثى في عهود الإقطاع :

أدخلت الثورة الإقطاعية مفاهيم أساسية وجديدة، على بنيات المجتمع البدائي التقليدية:

- بخلق مفهوم التسخير كمؤسسة اجتماعية مهيمنة تقوم علاقات الإنتاج فيها على أساس العلاقة بين السادة والعبيد في المجتمع.
- ببناء الكتل العسكرية الضخمة، عن طريق المحالفات بين الإقطاعيين وربط المصالح المشتركة بين العشائر.
- بتكوين طاقات إنسانية هائلة تحت قيادة إقطاعية موحدة ، ساعدت على الخلق الحضاري، والتقدم العلمي والفني والاقتصادي وإشادة المدن، وتطوير الدين والأخلاق،لجعلهما متلائمين مع الوضع الإنساني الجديد (حضارات الشرق العربي - الحضارة الفرعونية - حضارة موهانجو - دارو على ضفاف الكانج).

وطرأ بالتالي على مفهوم الأنثى تغيير أساسي، إذ من وعاء لشرارة الحياة، وجهاز لتخليد النوع - والبشر لا يتعدى عددهم بضعة ملايين - أصبحت المرأة "متاعا" أساسيا في الترفيه الإقطاعي ، ومادة بارزة من مواد الأحلاف العسكرية عن طريق المصاهرة ، بين الإقطاعيين ، وموضوعا شيقا للشعر ، وسرا محجبا عن الأنظار ، فانهارت وتلاشت شخصيتها كمواطنة ، و تزيفت علاقاتها في الإنتاج والمبادلات، وسط المجتمع.فأصبحت بالتدريج عالة عليه،ومشكلة من مشاكله الكبرى.

المرأة المسحوقة تحت عجلة الثورة الصناعية:

وواكب النظام الإقطاعي في العالم، مدة من الزمن ، انفجار الثورة الصناعية. فكانت المرأة بالتالي ، هي نقطة الالتقاء بين الحقيقتين التاريخيتين المتناقضتين: داخل بوتقة التحولات البورجوازية، ذات الطابع الثوري. وقبل انفجار الثورة الصناعية ، سبقت ألفية النظام الإسلامي إلى العالم.وهكذا - انطلاقا من مجتمع كان وأد البنات فيه ، وهن حيات أمرا متعارفا بين الناس - حمل الإسلام إلى المرأة ، قواعد أساسية لتحريرها الاجتماعي ، ولكن الإسلام كان ثورة، ابتلعتها سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وفلسفيا، الثورة المضادة، منذ السنوات الأولى من تاريخه، وحولته إلى جهاز تبرير وإخضاع، بين يدي قوات سياسية واجتماعية غير نظيفة في الغالب.

وجاءت الثورة الصناعية ، بعمادها التكنولوجي ، وتحررها من الضغوط الرجعية في المجتمع، فخلقت بذلك الشروط الموضوعية والنفسية لتغيير مفهوم دور المرأة في المجتمع، ضمن تغيير المجتمع بحذافيره. ولكن الأشياء كانت بعيدة مع ذلك،عن أن تكتسي طابعا مثاليا في الواقع الاجتماعي.لقد فتحت معامل الإنتاج الضخم للنسيج، الأبواب على مصراعيها، للنساء العاملات في بريطانيا، فعرف تاريخ المرأة، وسط المدن الصناعية، من البؤس والاستغلال الرأسمالي ، والانحطاط الرأسمالي الجشع، على يد كارل ماركس وانجلس في اتجاه الاشتراكية العلمية، على أساس التناقض المطلق بين الاستغلال الرأسمالي ، وضحاياه من الجماهير الشعبية. وعلى يد فلاسفة فضلاء، في اتجاه الاشتراكية الخرافية، على أسس نظريات أخرى، غير أساس التناقض الطبقي.

وإن الاطلاع على ظروف المرأة العاملة في بلاد أوربا، وما أصبحت تعانيه فجأة من تعاسة مادية ومعنوية، في فجر الثورة الصناعية، داخل معامل النسيج ببريطانيا على الأخص، ليجعلنا نتلقى اليوم بابتسام وعطف قول أبي العلاء المعري :

علموهن النسيج والغزل والرد ن وخلوا كتابة وقراءة

فصلاة الفتاة "بالحمد"و"الإخـ ـلاص تغني عن"يونس"و"براءة"

في السعادة مجتمع المعري ، الذي كان فيه الاشتغال بالغزل والنسج،بالنسبة للمرأة، هو منتهى الحكمة وحسن التدبير الاجتماعي!

لقد فجرت الثورة الصناعية في القرن التاسع عشر، التناقض الأساسي في العالم، بين قوات الاستغلال وقوات الثورة، بين الرأسمالية والنظام الاشتراكي . فتغير رأسا على عقب،وضع المرأة الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، تبعا لتغير الأوضاع في جميع البلاد الصناعية، تحت تقدم التكنولوجية والعلوم وازدهار الإنتاج من جهة، وكنتيجة للصراع القائم بين قوات الثورة وقوات الاستغلال من جهة أخرى.

وقد اندلعت ، على الأخص بعد ثورات 1848 عبر أوربا، حركات نسوية موازية، تطالب الرجال بمنح المساواة للمرأة . وأريقت دماء نساء ، في مظاهرات جماهيرية صاخبة، من أجل المساواة المدنية والسياسية بالرجل. وكان إلى جانب هذه الحركة النسوية، ذات الطابع البورجوازي ، حركة نسوية ذات محتوى طبقي ، تكافح داخل النقابات والحركات الثورية لا لانتزاع حقوق المرأة من الرجال ، وفرض مبدأ المساواة الجنسية على هؤلاء، بل لفرض تغيير كلي للهياكل الاجتماعية، وتغيير علاقات الإنتاج، على أساس إلغاء النظام الرأسمالي.

ثم جاءت ثورة أكتوبر سنة 1917 فأطاحت لا بالنظام القيصري في روسيا فقط، بل أيضا بتقاليد وآفاق ومثل، عاش عليها الإنسان ، ونمت وترعرعت في ضميره، منذ حضاراته البدائية وجرد منها مقاييس للخير والشر، والجمال والقبح، والرذيلة والفضيلة، آلاف السنين.وقد ألغت الثورة البلشفية بصفة نهائية الفروق المصطنعة بين الرجال والنساء، ونادت بشعارها الثوري(من كل حسب طاقته، ولكل حسب احتياجاته).

المرأة في العالم الثالث ليست في نفس الخط من التطور:

لا يمكن فهم وضعية المرأة الآن في بلاد آسيا و إفريقيا وأمريكا اللاتينية، إلا بفهم وضعية هذه البلاد نفسها، و لا يمكن فهم وضعية هذه البلاد نفسها إلا بفهم علاقاتها بالنظام الرأسمالي ، وآلية استغلاله لشعوب العالم الثالث.

وهكذا فالرجل والمرأة معا، يعانيان مصيرا مشتركا، وتطحنهما رحى واحدة، من جراء اللامساواة بين الشعوب، الناجمة عن استغلال الامبريالية، وهيمنة الاستعمار الجديد في مختلف بلاد العالم الثالث .

حالة المرأة المغربية تنعكس فيها حالة الرجل المغربي أيضا:

المغرب ، في بلاد العالم الثالث، نموذج وسط والمرأة المغربية بالتالي، سواء بنواحي الاستلاب الشبه الإقطاعي والشبه الاستعماري في شخصيتها، أو بنواحي شقائها الاجتماعي، أو بتبعيتها الاقتصادية، إنما تحمل نفس سمات المجتمع الوطني المختل التوازن، المتناقض القطاعات، الممزق الروح، الذي تخرج منه، وتنتسب إليه، وتشكل هي أيضا، إحدى سماته

البارزة وبعض عناصر الأزمة فيه.مجتمعان متناقضان في مجتمع واحد.أحدهما تقليدي متخلف، من عصر آخر، يقطنه 75 في المائة من السكان يعيشون كلهم من الزراعة، والآخر عصري متطور، تتحكم فيه المصالح الأجنبية على الخصوص، ويرتبط المغرب عن طريقه، بالإمبريالية والاستعمار الجديد، ويعيش عليه ما يناهز 25 في المائة من السكان، خمسة في المائة منهم فقط ، يستأثرون بحصة الأسد، ويتوفرون على الأهمية والنفوذ الحقيقيين، في المجتمع المغربي الراهن. وما يناهز 15 في المائة يعيشون في أحط درجات البؤس المادي والروحي.

اختيارات أساسية في غير مصلحة الجماهير الشعبية:

هذا المجتمع الممزق، الذي هو جحيم للأغلبية من بنيه وبناته، وجنة(مخيفة) للأقلية فيه، يخضع لاختيارات أساسية ليست في مصلحة جماهير المغرب في شيء. فالحجم الأكبر من الرساميل ، والخبرات التكنولوجية ، و الأبناك ، ومؤسسات التأمين ، واللغة والثقافة ، والتجارة الخارجية، والوزن السياسي، والنفوذ الاجتماعي ، والطموح الشخصي، والقيم الفلسفية العليا، كل ذلك أجنبي في المغرب، وكل ذلك يشكل الآن امتدادا للاستعمار، تحت راية الحرية والاستقلال.

إن التوجيه العام في المغرب ـ والحالة هذه ـ يرد الأغنياء كل سنة أكثر غنى، والفقراء أكثر فقرا.

فقد انتقل الإنتاج العام في المغرب ، بين سنة 1960 وسنة 1970 ، من 820 مليار إلى 130 مليار فرنك ولكن عدد السكان ازداد هو أيضا بنسبة 38 في المائة على الأقل. وليس معنى هذا أن الزيادة في الإنتاج، رغم ضآلتها بالنسبة للضغط الديموغرافي ، كانت موزعة في الواقع بعدالة على الأفواه المغربية الجديدة، ولكن معناه أن الأغنياء ازدادوا بالفعل غنى، والفقراء فقرا، لأن القطاع الذي سجل الزيادة في حجم الإنتاج وقيمته، بين سنة 1960 وسنة 1970 هو قطاع الـ 5 في المائة من السكان الناشر أخطبوطه على الصناعة والتجارة في المدن، وعلى إنتاج الحوامض و الباكر في البوادي.

إن الرأسمالية الأجنبية تتعب الجماهير الشعبية وتشقيها، لتجمع من تعبها وشقائها أرباحها السنوية الباهضة، ثم تنقل هذه الأرباح بالتالي إلى بلادها، محدثة بتصرفها هذا ، نزيفا دمويا في جسم المغرب، يسحق قوته باستمرار ، ويحول بينه وبين إمكانية تكوين الاعتمادات المالية اللازمة لنموه.

وتتحالف مع الرأسمالية الأجنبية مصالح وطنية حليفة لها ، ممتزجة بها ، مدافعة عنها، محدثة في الجسم المغربي نفس النزيف، ومتعارضة مصالحها هي أيضا ومصالح الجماهير المغربية، ومعاكسة لأي إصلاح جذري يمس الهياكل الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية أو الثقافية الراهنة، أو يقضي على آفاق الاستعمار الجديد ، ويضايق وسائل العمل بين يديه.وهكذا كلما تقوى ونما قطاع الرفاهية والاستغلال والأرباح المرحلة إلى الخارج،كلما تفاحشت النكبات ، وتكاثر البؤس، واشتد الضغط الديموغرافي وتنوعت التعاسة المادية والسقوط المعنوي ، عند الأغلبية الساحقة من سكان البلاد.

تمر السنون ، وتتعاقب الأحداث ، ولكن آلية الاستغلال ، بعواقبه الوخيمة ومآسيه المتهاطلة على الجماهير، مستمر عملها تعطي نفس النتائج دائما، تحت تأثير نفس

الأسباب.داخل هذا المجتمع المتناقض بقطاعيه المتخلف والمتطور معا ، تعيش ثمانية ملايين امرأة مغربية في مساواة تامة مع الرجال من ناحية العدد ومن ناحية البؤس الاجتماعي 3.500.000 منهم لايتجاوز عمرهن 15 سنة.4.000.000 منهن دون العشرين و5.000.000 منهن دون الخامسة والعشرين، ثم يزداد عدد النساء في المغرب كل سنة، بما يناهز تقريبا 200.000 بنت ، ليتضاعف عدد السكان الإجمالي ، في كل عشرين سنة بالمغرب.وتتفاحش البطالة في العنصر النسوي أكثر جدا مما تتفاحش عند الرجال وتستفحل المشاكل الاجتماعية المتنوعة وتتهاطل وتتعقد في كثير من الأحيان على المرأة، بحكم الشروط الموضوعية والنفسية الخاصة ، المحيطة بها .

وفي ميدان التعليم هناك 376.000 بنت في الأقسام الابتدائية ، خمسون في المائة منهن ينقطعن عن الدراسة، قبل إتمام تعليمهن الابتدائي.وإذا قدرنا أن الفتيات المغربيات اللواتي يتراوح سنهن بين 6 إلى 14 سنة ، يتجاوز عددهن مليونين ، فإننا نصل إلى نتيجة محزنة هي أن 19 في المائة فقط من البنات يذهبن إلى المدرسة في المغرب.أما بالنسبة إلى التعليم الثانوي (إحصاء 1970) فإن عدد الفتيات فيه لا يتجاوز 71.600 أي 7 فقط مما يناهز مليون بنت مغربية يتراوح سنهن ما بين 14 إلى 19 سنة.وفي التعليم العالي 1.700 طالبة لا غير من مجموع مليون ونصف فتاة مغربية، يتراوح سنهن ما بين 20 إلى 25 سنة.

الجو قاتم ومؤلم في المغرب، والقضية أخطر بكثير من قضية السفور والحجاب. وأن تلبس المرأة المغربية ملابس أوروبية أو ملابس وطنية وأن تنتخب أو لا تنتخب أعضاء في البرلمان. وأن تذهب وحدها إلى السينما أو تلازم البيت مع أولادها.

المرأة ليست مضطهدة بصفة أساسية من طرف الرجل الآن، لأن الرجل نفسه مضطهد مثلها. هو وهي معا ، ضحايا أوضاع اجتماعية واقتصادية وسياسية فاسدة، تحت راية الحرية والاستقلال !

داخل هذه الأوضاع الفاسدة، والقائمة هياكل المجتمع فيها على الاستغلال والمغالطة، كيف يمكن فتح أبواب التعليم العالي على مصراعيه، أمام مليون ونصف طالبة مغربية، بدل ألف وسبعمائة طالبة في الوقت الراهن ؟ كيف يمكن فتح أبواب المدارس الثانوية أمام مليون بنت، بدل 71.000 فقط في الوقت الراهن ؟ كيف يمكن توفير أسباب العيش الشريف، للمواطنة المغربية، ليمكنها أن تواجه مشاكل الخلق والإبداع في بلادنا بثقة، وتسير في الطريق سعيدة، رافعة الرأس ،حرة في مجتمع حر، مبدع وخلاق من غير أن يتهمها أحد أو يمس بكرامتها أحد أو تكون عالة على أحد.

إن المسألة ليست مسألة نوايا، بل مسألة هياكل اجتماعية وسياسية واقتصادية قائمة، يجب تغييرها بصفة جذرية وحاسمة، لينفتح طريق التحرر الحق، أمام الجماهير المغربية، رجالا ونساء.

يجب تغييرها، من طرف من ؟ من سيحقق التغيير ، وفي أي ظروف مضبوطة يمكن أن يتحقق هذا التغيير في المغرب؟

إن الحياة، ليست مسرحا للتفرج. ولا يمكن للجماهير الشعبية أن تفك القيود عن أيديها إلا بأيديها. وإن تنظيم القوات الاجتماعية المسحوقة الآن في المغرب في إطار توجيه ثوري مستقيم وتوحيد إرادتها، على أساس تحرير فكرها من البلبلة والرجعية والمغالطات وضمان

انضباطها الواعي لهو الطريق الوحيد الذي سيجعل منها قوة تاريخية حاسمة، وقادرة على الاضطلاع بمهام التغيير الجذري بعمق وأصالة، وبدون ضياع كبير وقت.

وذلك لا يتوقف إلا على هذه القوات الاجتماعية المسحوقة نفسها ولا يتوقف على غيرها مطلقا. فمفتاح خلاصها في يدها، يجب أن تحقق الشروط الموضوعية والنفسية لاستعماله.

لا يمكن أن ينجح أي تنظيم جماهيري، بدون قوة طليعية. وعلى خلق هذه القوة الطليعية، يتوقف التنظيم الجماهيري الآن في المغرب، وبالتالي يتوقف تحقيق التغيير الجذري للأوضاع ووضع حد لآلام وبؤس واستغلال الجماهير المغربية لتأبيد انحطاطها المهيأ منذ الآن لما بعد سنة 2000. ودور المرأة التاريخي في تكوين هذه القوة الطليعية الحاسمة والأساسية لتنظيم الجماهير وقيادتها، لا يعوضه دور الرجل. بل إن حضور المرأة في معركة التنظيم والتوعية، يكتسي أهمية كبرى، ويحطم الآراء الرجعية للرجل عنها ومن أبرز مهام النضال بالنسبة للمرأة المغربية في الوقت الراهن:

- رفع درجة وعي المرأة بالمشاكل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ومعرفة أسبابها الحقيقية بوضوح ونتائجها على المستقبل.
- دراسة آلية الاستغلال في الأوضاع المغربية، في ارتباطاتها بالاستعمار الجديد، تحت التوجيه الشبه إقطاعي ، وضغوط الامبريالية العالمية.
- تنظيم حملات توضيحية، في الأوساط النسوية، لمنع المرأة المغربية من أن تبقى فريسة للاستغلال في تزييف الانتخابات ، عن طريق استغلال بؤسها المادي وعدم ارتفاع وعيها الوطني ، وللحيلولة دون تشكيل قوة تهريج لاستعباد الجماهير وإظهار عدم رشدها وعدم شعورها بانحطاطها العميق.
- العمل باستمرار على تفجير الطاقات النضالية للمرأة المغربية عن طريق التنظيم المسؤول، والانضباط الواعي ، والوضوح في الأهداف، داخل صفوف الاتحاد الوطني للقوات الشعبية وجنبا لجنب مع أخيها الرجل في نضال طليعي لا ينفصل فيه الرأي عن العمل.

لقد أضاعت الجماهير المغربية زمنا غير يسير منذ الاستقلال إلى الآن، وضاعت في المغرب طاقات نضالية هائلة، نتيجة اضطراب الخط السياسي العام، للنضال الثوري الصحيح، ولعدم كفاية الخط التنظيمي واستجابة لشروط النضال التاريخية في المغرب بعد الاستقلال. ومن أهم نقط النقص غياب المرأة عن المعركة المصيرية لحد الآن ، بصفة منظمة، أو تركها نفسها ، تستغلها قوات رجعية، معادية لمصلحة الجماهير.

على نسائنا إذن، على نسائنا ، أن يقمن بدورهن في معركة التغيير الجذري للمجتمع، لأن مصيرهن مرتبط أشد الارتباط في ذلك، بمصير الرجال.